Islamic World
Studies Centre



مركز دراسات
العالم الإسلامي

المستشرقون والقرآن



دراسة نقدية لمناهج المستشرقين

عمر لطفي العالم



مؤسسة علمية أهلية ، غير حكومية ، تعمل في حقل الدراسات والبحوث المتعلقة بالعالم الإسلامي في المجالين الإقليمي والدولي ، بهدف تحقيق وتأصيل الواقع واستشراف المستقبل وطرح البدائل الملائمة .

من أوجه اهتمامه :

* **العناية بالقضايا الاستراتيجية التي تهم شعوب العالم الإسلامي وأقاليمه وتؤثر على مصائرها ، لا من زاوية النظر السياسي أو الأمني فحسب ، بل بمنظور استراتيجي شامل .**
* **معالجة تكوّن الجغرافية ـ السياسية للعالم الإسلامي في مختلف مراحلها التاريخية ، واستشراف مستقبلها ، ورصد التطورات الدولية ، مع التركيز على مستقبل العلاقات بين قوميات العالم الإسلامي ، ولاسيما مستقبل علاقات العرب مع محيطهم الجيوسياسي .**
* **مراجعة تجارب النهوض والتحرر والوحدة ، بحثاً عن صيغ مناسبة لنظام عربي ونظام إسلامي لهما حضور دولي فاعل .**
* **ربط الدراسة النظرية بالواقع الميداني ، وتأصيل الأفكار والمناهج وتجديدها في المشروع الحضاري المستقبلي في الوطن العربي والعالم الإسلامي .**
* **السعي من خلال البحث العلمي المتنوع الإختصاصي إلى إرساء مناهج موضوعية وتكاملية في الدراسات الخاصة بالعالم الإسلامي .**

ومن وسائله :

- **إصدار المجلة الفصلية : «مستقبل العالم الإسلامي» .**
- **إصدار الكتب والرسائل والبحوث والتقارير .**
- **عقد المؤتمرات العلمية والندوات والحلقات الدراسية .**
- **إقامة علاقات تعاون مع المراكز المماثلة في العالم الإسلامي .**
- **حشد طاقات الباحثين للتعاون معهم في تحقيق أهداف المركز العلمية .**
- **متابعة توثيق ملفات العالم الإسلامي .**

المستشرقون والقرآن

الطبعة الأولى

1991 م

منشورات



P.O. BOX: 528 VALLETTA - Tel: 00356/697202 - Fax: 697207 - Malta

المستشرقون والقرآن

دراسة نقدية لمناهج المستشرقين

عمر لطفي العالم



بسم الله الرحمن الرحيم

مــقــدمــة الكتــاب

ليس كالاستشراق مجال رحبٌ خصبٌ للدرس والتـمحيص و إعمال النظر . ففي مكتبته الزاخرة العامرة بكلِّ أضراب الدراسات الإنسانيـة مـن لغة وأدب وتاريخ وديـن وفن ، يقف الباحث على أسئلة وقضايا لا مـناص مـن تقبُّلهـا والإقبال عليهـا بعقليـة مرنة متفتحة ، والنظر إليهـا على أنهـا جزء مكمل لتراثنا الـمجيد الذي نعتز به ونفخـر ، ونسعى جاهديـن لإحيائه و إثرائه كدليل ملـموس على ذلك الفخر والاعتزاز .

لكن ردود الفعل تجاهه تفاوتتْ واختلفت ، فـمـن مُعجَبٍ مـنبهرٍ راغب إلى غيور معارضٍ مكابر ، وظل صوت الاعتدال خفيضاً أسيراً بيـن الـموقفيـن الـمتعنتيـن الـمتطرفيـن . . .

إن محاولاتنا التي جاءت كردةٍ فعل طبيعيـة على القوى التي تتجاذب الساحة الفكريـة ، ستنصبُّ هذه الـمرة على الجانب الأهـم مـن مكوِّنات الثقافة العربيـة الإسلاميـة متـمثلاً في عزهـا ورمزهـا وضمان استـمرارهـا ، القرآنِ الكريم . . لكننا قررنا في محاولتنا التي نسأل الله لها التوفيق والنجاح ، أن ننحـوَ مـنحىً آخـر غير الذي جرى به العرف واعتاده أغلب الناس .

لا نريد بعد اليوم قضايا مجزأة نقتطعهـا مـن سياقهـا العام ، بل نريد الرجوع إلى جوهر الـمشكلة وأصلها كما تحسسناهـا مـن خلال تفحص هذه الحركة في نشأتهـا الأولى وتطورهـا عبر الدهـور والعصور .

ولقد خلصنا إلى استنتاج أكيد ، يتـمثل في أن أنماط الفكر وأساليب العمل هي التي فرضتْ نفسهـا على أولئك الدارسيـن وأوصلتهـم إلى تكويـن تلك الصورة الـمكفهـرة عن الإسلام وأهله .

سيكتشف القاريء بنفسه ، كيف خرَّ أولئك الباحثون فريسة سهلة للـمـناهج ، وسجناء للتزمت ، وتبَّعاً لقوالب البحث الإكليريكيـة الجاهزة .

لكننا ، برغم هذه النتائج المتوقعة ، نشعر أن المسافة التي مازالت تفصلنا عن تحقيق الهدف الرئيس مازالت واسعة ، وأن ما قمنا به لا يعدو كونه خطوة ، أجل خطوة واحدة على طريق طويل . .

المؤلف

نحن والاستشراق

(تمهيد)

قبل وفاته بوقت قصير ، سئل المستشرق المعروف تيودور نولدكه ، وقد شارف على التسعين ، قضى منها سبعين سنة في مدينة شتراسبورج ، سئل إن كان يشعر بالندم ، لأنه لم يعكف على دراسة علم يعود بالفائدة العملية على الجنس البشري ، كدراسة الطب أو الزراعة ، أو أي فرع غير الدين واللغات والفلسفة ؟ أجاب الرّجلُ الذي عركته الخبرة والتجربة : إذا كان من ندم فلأنني درستُ علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة[1] .

والظاهر أنه كان يريد أن يقول : إن الدراسات الإنسانية التي أفنى عمره في طلبها ، مات وفي نفسه حرقةٌ منها . يؤكد ذلك تصريحه للمستشرقين بيرتزل وشفاللي ، اللذين أرادا الحصول على إذن منه بإعادة طبع كتابه طائر الذكر : (تاريخ القرآن) ، فاعتذر وعبّر بأسلوبٍ ملتوٍ عن عدم رضاه عن كتابه المذكور لأنه لم يزل في حيرة من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . الجدير بالذكر هنا ، أن نولدكه ، قبل أن يناقش كتابه كرسالة لنيل شهادة الدكتوراه ، وكان وقتها مطلع العقد الثالث من عمره المديد ، قام بمحاولته الأولى التي أطلق عليها اسم : (حول نشوء وتركيب السور القرآنية) ، وحين سئل عن مصيرها أجاب : (لقد كانت عملاً غير ناضج)[2] . وتحضرنا عبارةٌ أخرى شهيرة ، قالها في إحدى دراساته الشهيرة : (مساهمات في علوم اللغات السامية) ، خصصها للحديث

---

(1) وردت هذه العبارة في مقالة للمستشرق الهولندي سنوك هورجرونيه نشرت في مجلة جمعية المستشرقين الألمان في الذكرى الأولى لوفاة نولدكه .

(2) انظر مقدمة الكتاب وما ذكرته المستشرقة شيمل بالخصوص في سلسلة مجلة فكر وفن .

عن خصوصيات اللغة العربيـة فذكر : (إن اللغة العربيـة لغة غير قاطعة الدلالة)[3] ، وهو يشير بذلك إلى الأثـر السلبي على فهـم النصوص وتفسيرهـا .

إن الـمقولات السابقة وما سيليها مـن أقوال أخرى مشابهـة لـمستشرقيـن أمثاله ، إنما أردناهـا أدلّاء أقوياء وشهـوداً في هذا العمل الـمتواضع الذي يأتـي استجابة لضرورة ملحـة بعد سنيـن عدة مـن العمل الـمتصل في خدمة علـم لـم يتبلـور ولـم يخرج مـن دائرة الشك والتخميـن والحذر . أقول التردد والحذر ، ولا أعني بذلك الـمشتغليـن بهذا العلـم ، و إلا فما كانتْ بنا حاجة لأن نـمضيَ في ترسُّم خطاه ، ورسم أبعاده ، وتحديد مساراته ، واستشراف آفاقه ، وتقديـمه مـن بعدُ بالصورة التي نقرهـا ونرتضيهـا لأبنائنا الدارسيـن وللقراء بشكل عام .

أما مصدر الخشية ، فنرده صراحة إلى الفئويـة الديـنيـة التي تلتف على مفاهيمهـا الدينيـة التفاف الشرنقة ، تأبى أن تغادر وتطير مـن سجنهـا الانفرادي ، ولو كان في ذلك هلاكهـا ، قبل أن تتـم دورتهـا ، وتضع فقسهـا كما تفعل فراشة القز في ساعات عمرهـا الأخيرة .

كانتْ فاتحة عهدنا بالاستشراق ذاتيـة عفويـة . فأقبلنا على الخوض في متاهـات هذا العلـم مـن غير أن يكون لنا مرشدٌ أو نصير ، كتابٌ أو أي عمل مـنهجي واحد يـمهد قِبلنا الطريق ، ويدلُّنا بأسلوب الـمتبصر الـمتـمكن العارف ، كيف نـمسك بأول الخيط ، وكيف نهتدي بـمهـارة إلى نهـاياته . لقد تـميزتْ دراساتنا ومطالعاتنا ـ والحق يُذكر ـ بالـموسوعية والتعدُّد ، إن لـم نقلْ بالاجتهـاد الشخصي والتخبط في كثير مـن الأحيان .

وعذرنا أننا لـم نكنْ بصدد نظريات علـميـة محدَّدة ، ولا علـم معترفٍ به له أصولـه وحدوده وقواعده . ولـم نكن حتى بصدد دراسة حفريـات تاريخية نظفر مـنهـا في نهـايـة الـمطاف بتعريف يقنعنا ويقنع مـن حولنا .

أجل . لسنا أمام حقائق ساكنة مستقرةٍ ثابتة ، بل أمام فكر ووجدان متقلب جياش .

إننا نتعامل مع اللامحسوس . موضوعنا هو الغيب ، مادتنا هو التاريخ ، وسيلتنا أطنان مـن الورق الهش الذي يتحدث عن الـماضي السحيق بـمئة لسان وألف بيان .

---

(3) أعني بها مجموعة مقالاته باللغة الألمانية Beitraege zur semitischen Sprach.W.

ليس من افتراض لا يقابله افتراض آخر ، ولا معلومة إلا وترادفها معلومة مماثلة . وليس هناك موضوع واحد ولا حقل بحثي مخصص ، بل هناك عنوان وحيد يجمع بين دفتيه شتاتاً له أول وليس له آخر . .

لقد بدأ الاستشراق بداية هيِّنة ثم اتسعتْ دائرته لتشمل أهم العلوم وأدقها من مكتبتنا العربية والإسلامية . ولم تفزْ ثقافتنا من هذا الكم بأوكس النصيبين ، بل أصابت منه قدْراً لم يجر به العرف في أي حضارة من حضارات التاريخ القريب والبعيد ، حتى إن ما كُتب حول شخصية الرسول العربي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم باللغات الحية واللغات الميتة ، يفوق كلَّ تصور ويجاوز كلَّ حساب . فإذا أضفنا إلى حساباتنا الرقمية كتباً ومقالاتٍ ومؤلَّفات عدتِ الرسول عظيماً من أكبر العظام ، وقائداً فذاً من أكبر القادة ، هبطتْ أرقام الشخصيات العالمية وتدنّتْ أسهمها وبلغتْ شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال منظور العبقرية المجردة شأواً يتضاءل إلى جانبه كلُّ ظِلٍّ لأي شخصية مهما كبُرتْ هالتها ومهما ارتفع ذكرها ، روحية كانت أو فلسفية ، سياسية أو عسكرية ، والرأيُ ، ذاتُ الرأي ، ينطبق على القرآن الكريم .

وبالقدر الذي كبُرتْ فيه الاهتمامات وزادتْ ، وتعاظمتْ الأحكام وتنوعتْ ، رقيَ إحساسنا بهيبة العمل وأخطار البدع والنحل ، ومفاسد ردود الفعل العاطفية والفجائية ، وكان لا بد من أن يُعاد النظر في أسلوب العمل والتعامل مع الكم الاستشراقي وكيفه ، الذي ما انفك يغمر بطوفانه واحات العلم منذ مئة عام ونيِّف بغير هوادة ولا انقطاع ، هذا إذا استثنينا طفولته ونشأته الإسبانية والفرنسية وحسبناها في طور النمو والنشوء والتخلق الذي لا تجري بشأنه سنن التكليف والمساءلة التي تجري على غيره عادة .

إن السؤال الكبير الذي أهمنا وشغلنا، بل وكان شغل الناس من حولنا : من أين نبدأ ؟

من أين نبدأ ؟ كان نقطة الانطلاق المنطقية الصحيحة ونحن نغرغر في طوفان المعلومات والوثائق التي تزخر بها المكتبات الغربية والشرقية والمؤمنة والمنكرة سواء بسواء.

لقد اختار أغلب مثقفينا والمعنيين منا بحركة الاستشراق ، اختاروا القتال والمبارزة بالأفكار والكلمات ، فكرة تفند فكرة ، ورأي يغالب رأياً ، لأنهم استقبلوا الفارس القروسطي ممتشقاً حساماً ممتطياً صهوة جواد ، ونسوا أن ذلك الفارس الصليبي ترجل عن

فرسه وآثر أن يتنكب ريشة ومحبرة ، وأن الفارس الغربي كان متسربلاً بلبوس الرهبان في كثير من الأحيان .

إن الذي يفكر بسلطان الكلمة وأثرها الحقيقي يعدل في هذا العلم بالذات عن انتقاء العبارات الأنيقة والألفاظ المنبرية الطنانة إلى البحث عن استراتيجية فكرية (وتكتيك) عقدي جامع ، يصلح لمنازلة المناهج والنظريات العلمية ، ولمقارعة الأعاصير المبدئية التي تقتلع ـ كلما هبتْ وعَتَتْ ـ واحداً من أسافيننا التي تجسد حقيقة وجودنا على هذه الأرض . و إن ماكتبه توفيق الحكيم قبل أكثر من نصف قرن حول المطلوب من المدافعين عن الإسلام ، لا يختلف في جوهره عما أسلفت من قول : (إن الناس لم تعد تُعنى بتلك الكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاطُ بها اسم النبي . وهو في عظمته أجلُّ من أن يحتاج إليها . إنما تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة ، هي في تجردها أجمل وأسمى وأبلغ في النفوذ إلى القلوب ، وهذا ما صنع (هيكل بك) في كتابه (حياة محمد) على نحو خليق بالثناء ، فلقد أسقط من حياة النبي تلك المعجزات التي لا تُغني من الحق شيئاً مادمنا في مجال التدليل العقلي ، وأظهر شخصية النبي عظيمة في بشريتها السامية ،وأبان عن غرض النبي في الدعوة إلى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . إن هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة . و إن أولئك السفهاء[4] الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوَّتهم بالمعجزات قد أثموا في حق الفكر البشري قبل أن يأثموا في حق الدين)[5] .

يجب أن نقرَّ أولاً أننا بصدد حركة يجب الاعتراف لها بمكان في حقل الدراسات الإسلامية واللغوية والأدبية والتاريخية ، وأن اعترافنا هذا لا يحطُّ من قدر حضارتنا إذا كانتْ ذمّاً ولا يزيد فيها إذاكانت مديحاً واستحساناً ، وأن الأمر يتعلق أولاً وأخيراً بحق كلِّ أمة في أن يعرف أبناؤها المثقفون ما يقوله الآخرون في عقيدتها ، كما أن من حقِّ هؤلاء الأبناء أن يتناولوا تلك الأفكار بالنقد والتحليل ، لأنّ السكوت عنها تسليم ضمني بها .

وقبولنا بمبدإ النقد ليس وليد إحساس بأرضية هشةٍ ، أو موقفٍ مخلخل ، أو شكٍّ في

---

(4) قصد الكاتب بعبارة السفهاء ، مشركي مكة حين طلبوا من الرسول أن يأتيَهُم بالمعجزات .

(5) الحكيم ، توفيق ، الدفاع عن الإسلام ، مجلة الرسالة ، العدد 93 ، السنة الثالثة ، ص 579 .

صحة وأصالة ما وصل إلينا بالنقل ، بل هو قبول مقيد ومشروط وله مابعده ، إذ سيخدم في نهاية المطاف غايةً تمثل جانباً أساسيّاً من أركان الدعوة إلى الله ، ألا وهي إعداد وتكوين (الفكر الصِّدامي) للداعية الذي يمكن أن يتعرض في أية لحظة لأكثر من سؤال .

إن القضايا التي أثارها المستشرقون ويثيرونها ، ليست مما يؤرق لنا مضجعاً ، أو يثير فينا حفيظة ، على العكس ، إنها الجانب الآخر الذي به يظهر الحق .

والجدل حول هذه المادة ، لا ينبغي أن يدور حول وجودها ، فهذه أمور فُرضتْ علينا فرضاً ، ولا نملك لها دفعاً ولا ردّاً ، بل ليس من حقنا أن نفرض حَجْراً على عقول الآخرين ، بل الخلافُ كل الخلاف حول أسلوب تناولها ومعالجتها وتقديمها .

لا يظننّ عاقل أننا نطرب لهراء صليبي مخمور ، أو ربيب ضائع مأفون مأجور ، يتشدق بما يعرف وما لا يعرف ، في اللغة كان ، أو في النبوة ، أو في الكتاب والسُّنَّة ، أو غيرها مما درسوا وبحثوا وصنفوا وألّفوا ، وحققوا وترجموا ، وجمعوا ففرقوا . .

لا يذهبنّ أحد بظنونه هذا المذهب ، فإننا مثلهم وأكثر ، غيورون . . مؤمنون . . مسلمون . . لكنّ قراءتنا لتاريخ هذه الحركة ، تجعلنا نعيد النظر في طريقة استقبالها والتعامل معها : لا أستطيع مثلاً أن أنسى ، عمري وما حييت ، ما قرأته من سيرة الراهبين رايموندوس لولوس ، ورايموندوس مارتيني (لؤلؤتان) في تاريخ حركة التبشير المسيحي ، تعلمتُ منهما فنّ الإجهاز على الفكر المرتجل الفطير ، والانقلاب المحمود المشكور على الذات ، وديناميكية الهدم والبناء والاختراق ، حين تشلُّ حركة الفكر ، وتتصلب شرايين البحث ، ويتبلد الدّم في أوعية المبادرة والعطاء ، ويستغيث الملأ : ألا هل من مُجير ؟ !

تزمته ؟ حبه أو كرهه ؟ لا أدري ! لكن (خطر) المسلمين الذي بات يهدد وسط أوروبا ، أنطق الملك لويس التاسع بحكمة عظيمة مازلنا ندفع ثمنها حتى الآن كأغلى ما يكون الثمن : (إن السيف لم ينفع مع هؤلاء المسلمين . يجب أن نفتش عن السبب الذي يجعلهم دائماً ينتصرون) .

وفيما خشي عالم الوراثة (ماندل) على نفسه من إجراء تجاربه في التهجين عنوة ، ثم بذر بعض حبوب الباسلاء في ركن قصي من أركان حديقة الدير الذي كان يعتكف فيه خلسة ،

وفيما كان البابا جريجوريوس يحرر أمراً بالسجن والطرد من الكنيسة بحق أحد المطارنة ، لأنه (صبأ) فعلم تلامذته اللغة اللاتينية بقواعدها ،وَقَفَ الأب الروحي لولوس وقته على التنقل و إقناع باباوات روما بإنشاء كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية ، وقضى رايموندوس نحبه واقفاً على قدميه يناظر فقهاء المسلمين في حوار مفتوح بمدينة تونس ، ومن بعد رحيله ، عُقد مؤتمر فيينا الذي تمخضتْ عنه أخطر القرارات ، بإنشاء كراسي للدراسات الشرقية ، العبرية والعربية واليونانية ، وأخصبت بذلك فكرة لولوس وأينعتْ ، وأنجبتْ غلماناً شؤماً ، ونُقش اسمه في سجل (الخالدين) ، الذين حولوا انتصارات المسلمين إلى هزائم ، وتاريخهم إلى أسلاب ودماء وغنائم ، وروّادَنا ـ مشاعلَ الفكر فينا ـ إلى قردةٍ مقلدةٍ . . إلى سوائم ! !

لماذا نخشى الاستشراق ، ولماذا ترتعد له فرائصنا فَرَقاً ؟ لماذا وكأنّ سلعتنا الثقافية تجاوزها الزمن فبارتْ ودالتْ وهانتْ ؟ !

إن كنا نفهم القرآن جيداً ، فكتاب الله أول من جاء في دستوره وفي محكم سننه (بليبرالية) الفكر ومبدإ الحوار . ما على المسلمين إلا أن يقرؤوا القرآن كي يتبينوا أن المعارضة الدينية كانت موجودة دوماً ، وأن شمولية القرآن لكل عصر وزمان ومكان ، تسمح ببروز شكل أو أكثر من أشكال الإبهام والاستفهام .

لم تعرض لي اليوم مسألة من مسائل الاستشراق إلا ووجدتُ لها أصولاً وحلولاً في تاريخ الدعوة إلى الله . كلُّ نقاط الهجوم ، جميع مرتكزات النقد ، سائر ألسنة السوء مما تعرف وأعرف إلا وكان للقرآن وقفة معها .

النضر بن الحارث ، ومسيلمة ، وابن المغيرة ، وأم جميل ، ويهود يثرب ، وسائر من قرأت أو سمعتَ عنهم من رؤوس الشرك والتشكيك ، لهم في عصرنا أشباه ونظائر وموالون وأنصار . وليس اللاحقون أشد بأساً وألحن حجةً وأعز نفراً من سابقيهم . وبرغم ما عرف عن العرب من قوة بيان وفصاحة لسان ، بزّهم هذا القرآن ووسم كبراءهم على الخرطوم .

وكان القرآن أول كتاب ديني مارس النقد بقوالبه وأصوله العلمية ، وكان القرآن أول من كشف عورات العقائد ، وكان المستشرقون أول من شهد له بذلك السبق : (المسلمون ، يقول المستشرق باريت ، هم الذين بدؤوا الهجوم ، فليتحملوا تبعة

ذلك)[6] .

إن معارضة الإسلام للزيف والكذب ، هو الذي يـمنحهـم ـ كما يزعمون ـ نفس الحق في تشخيص حالتنا الروحيـة والنظر في أوضاعنا العقائديـة .

وبقدر ما يحمل هذا التصور مـن مغالطة ، فإنه يـنطوي على صدق كبير أيضاً . فالإسلام ، بقدر ما يربأ بنفسه عن الفردية الديـنيـة ، ويـنأى بذاته عن الجهوية ، يأبى العيش في الأقبيـة والأديرة والدهـاليز ، لذا تراه دوماً محبّاً للصدام والالتحام ، ولكـم أحسن الـمستشرق الفرنسي كلود كاهـان ، وهو يحلل نظريـة الإسلام الحضاريـة إذ قال : (. . . إن الإسلام لـم يتبـنّ نظرياتٍ معيـنـة ، ولكنْ جاء حاملاً معه نظاماً مصححاً ، فحيثما صادف الخطأ صححـه وقوّمه وأتى بالبديل الأفضل . . .)[7] .

لماذا الخوف إذاً ؟ وما الـمبرر لهذا القلق ؟ وذاك شأن عقيدة وحال دعوةٍ عبرتْ كل مسالك الخطر ، وزرعتْ حيثما رحلتْ وحلّتْ بذور اللاءات التي لـم تسمع عنها عقيدة قط . . ! !

وبقدر ما تكون العقيدة ـ أيـة عقيدة ـ شمولية ، عالـميـة ، عقلانيـة النشأة والروح والتوجه ، بقدر ما تسمح بوجود ردات فعل ، وبنـمو أفكار (راديكاليـة) ، لذا فإن تعدد الـمدارس الفكريـة في الأسرة الإسلاميـة الواحدة علامة صحـة وعافيـة ، ومدعاة فخر واعتزاز ، لا دليل خور وعجز وضعف . والعقائد التي تضيق ذرعاً بالنقد والـمعارضة ، هي وحدهـا التي لا تسمح بتعدد مدارس الرأي . فالـمنكرون على الإسلام الآخذون عليه بعدما تقدم ، وجود تلك الكثرة مـن مسائل الخلاف ، إنما يعيبـون عليه حقَّ الإنسان الطبيعي في حريـة التعبير .

لكن كل ما تقدم ذكره ، ليس جواز عبور للفكر الـمسـمم الـمتحـيـز الهدام . فالحريـة مهما سمتْ لا تطال الله ، ولا تنال الرسول ، ولا كتابنا الـمـنزل ، لا لأنها مقدسات فحسب ، بل لأن الجدل حولها قد انقضـى وانتهى بانتهـاء البعثـة ، ولأنّ ملف الشك قد طُوِيَ بعدما ظهـرت الحجة وبانت وانقهـر الباطل واندحـر .

P. RUDI, DAS GESCHICHTSBILD MOHAMMED'S. (6)

CAHAN, CLAUDE, GESCHICHTE DES ISLAMS, TEIL II. (7)

ثلاث عشرة سنة كانت كافية للحكم على دعوة بالصدق أو البطلان .

ثلاث عشرة سنة من الأخذ والرّد بين طرفين غير متكافئين زمنٌ كافٍ لأن تلين قناة أي دعيٍّ مزوِّرٍ كذاب ! !

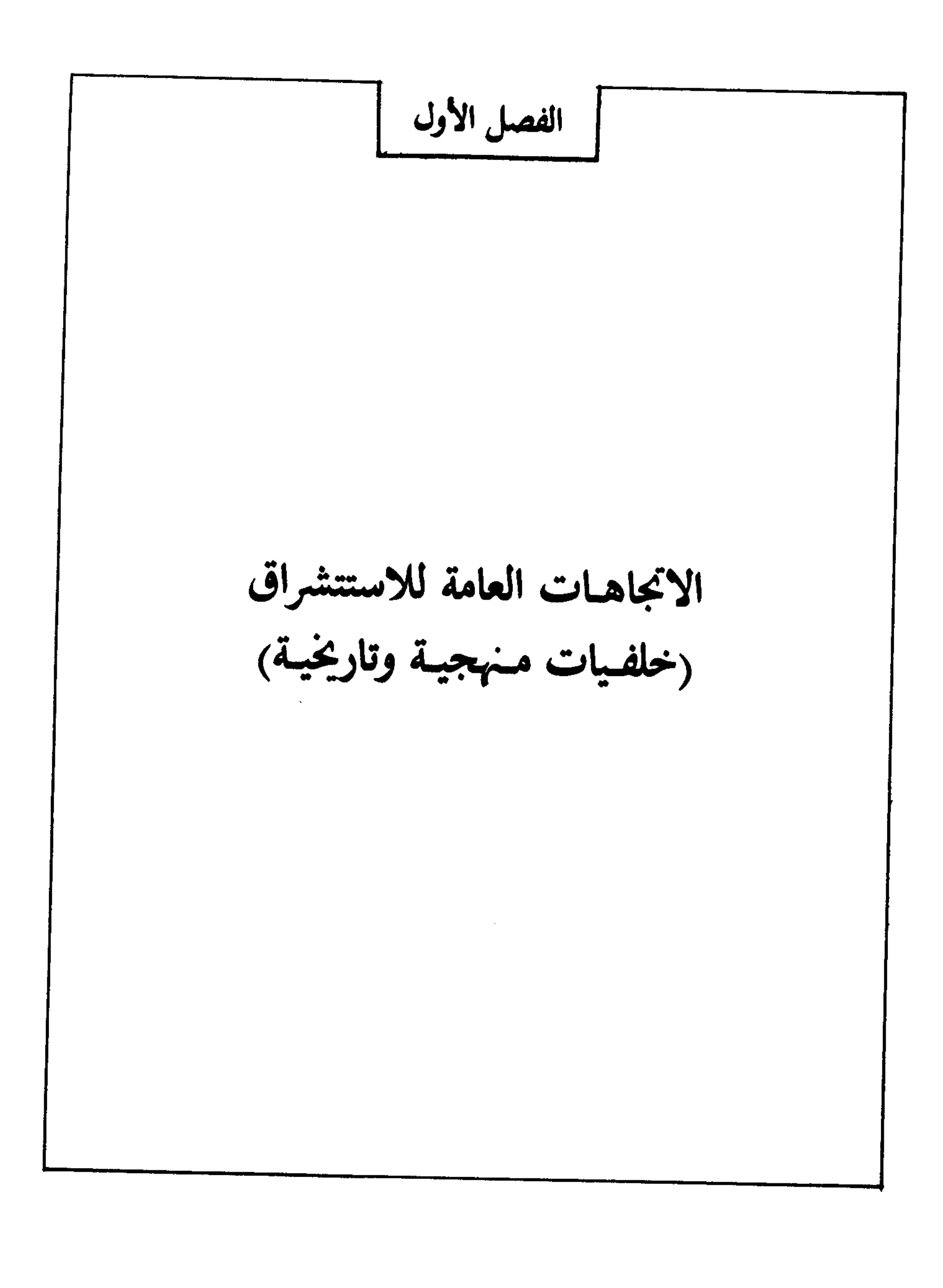
وأربع عشرة قرناً من التجربة الناجحة مع هذا الدين كفيلةٌ بأن تقنع أي مكابر مغالط . .

نحن ، مع الاستشراق ، ولكن بشروط ، أولها أننا ننطلق من مسلَّمة كبرى لفهم حقائق أصغر ، وليس آخرها أننا لا نسلِّم في هذه القضية بالذات بشرط الشك الكامل المسبق كما يريده منا الغربيون ، وكما تمناه نولدكه حين عجز عن الخوض في لجج العربية ، فعلّق فشله على تحيز المسلمين إلى دينهم .

وأما الذين لا يريدوننا أن نبحث ، لأنهم يشعرون بأن في فهمهم الكفاية والغنى عن فهم العالم وتفهمه فهم واهمون أيضاً .

وأما الذين فهموا الاستشراق على أنه مواقف حماسية (ومروءاتية) فهم يراوحون في موضعهم . إن الاستشراق هو ما عبرتْ عنه د . ،أنماري شيمل ، المتصوفة التي أحبتْ الإسلام حبّ عقل وروح معاً . فحين سُئلت قالتْ عنه : (إن الاستشراق علم ، علمٌ له أصوله وقواعده ومناهجه . .) ونحن فهمنا الاستشراق على هذا الوجه ونتعامل معه على هذا الأساس كذلك .

وأيّاً كان شأن الاستشراق ، ومهما تكن اتجاهاته وتوجهاته وردود فعلنا عليه ، فثمت خلفيات .



الفصل الأول

الاتجاهات العامة للاستشراق
(خلفيات منهجية وتاريخية)

كثُر الحديث في الآونة الأخيرة عن الاستشراق : نشأته ، صوره ، أهدافه . وبالرغم من أهمية ذلك فثمة مسألةٌ أساسية غابت عن أذهان أغلب الدارسين : إنها الدور الخطير الذي لعبه المنهج المقارن في توجيه مسيرة حركة الاستشراق في فترة عصيبة جدًّا من تاريخ الأمة الإسلامية .

ولكي تتحقق لنا القناعة الكافية عن الطريقة التي تَمَّ بها ذلك ، لا بد من أن نستعرض ، ولو سريعًا ، الحقبة الفكرية التي سبقت تلك المرحلة سواء من حيث الامتداد الزمني أو باستعراض موجز للقضايا التي عولجت .

* أغلب الَّذِين أرخوا لحركة الاستشراق وهم غربيون ـ والعرب في هذا الميدان والمسلمون عامة ناقلون ومرددون ـ اعتمدوا عام 1143 م منطلقًا وبداية لتاريخ الاستشراق . لكنَّ الواقع التاريخي يحدثنا بأن أول تماسٍّ فكري بين الإسلام وخصومه إنما وقع في اللحظة التي تنزَّل بها الوحي الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

ففي كتابه الذي نال به جائزة الدولة البروسية: «ماذا اقتبس محمد عن اليهودية » ، Was hat Mahammad aus dem Judentum auf genommen ، ذكر المستشرق اليهودي إبراهام جايجر حادثة نقلاً عن رواية للبيضاوي مفادها : أن عمرَ رضي الله عنه دخل مدارس اليهود يومًا فسألهم عن جبريل ، فقالوا : ذلك عدونا يُطلع محمدًا على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب . وميكائيل صاحب الخصب والسلام . فقال : وما منزلتهما من الله تعالى ؟ قالوا : جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة . فقال : لئن كان كما تقولون فليسا بعدوِّين ولأنتم أكفر من الحميريين ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله تعالى ثم رجع عمرُ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام : **لقد وافقك ربك يا عمر** » .

* وكَوْنُ الاستشراق حركةً مقرها الغرب ، وتتجه إلى الشرق بأنظارها ، بينما هذه الحادثة جرت على أرض عربية وفي موئل الوحي بالذات ، فإن ذلك لا يبدِّل من الأمر ولا يغيرِّ فيه شيئًا ، لأن بصمات اليهود والكنيسة الغربية متشابكات في الأثر ، وهي امتداد منطقي وصدى حقيقي لأبكر حملة ثقافية ، دليلاً ساطعًا على أنَّها شُنَّتْ قبل 14 قرنًا في شبه جزيرة العرب لا في شبه جزيرة آيبريا قبل 650 عامًا ! !

« جبريل عدوُّنا ويطلع محمدًا على أسرارنا . . . » كلمات قليلة تلخص في رأيي

حقيقة الصراع الحضاري ، وتفضح من جانب آخر ، كيف يمكن أن يسخَّر منهج علمي متأخر ليخدم فريةً دينية مبكرة جدًّا ، ونعني بذلك هذا التوافق العجيب بين رأي الأكاديميين المتأخرين في دراساتهم المقارنة ، وبين واقعة تثير الضحك حقًّا فيما نسب اليهود إلى الملك جبريل ، وما يريدون قوله في واقع الأمر ، من أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم « اقتبس دينه ، كلَّه أو بعضَه من الديانات السماوية الأخرى . . . » .

* أما عن المرحلة التي سبقت ظهور هذا المنهج وتطبيقاته ، فكانت خطوة تمهيدية أولى قام بها الإيطالي بطرس فينيرابيليس في عام 1143 م ، وهي الإيحاء بفكرة أو ترجمة للقرآن الكريم ، سبقتْ ذلك رحلةٌ له إلى إسبانيا للقيام بمهمة مصالحة بين ألفون الكاستيلي ، وألفون الأراجوني . وهناك وجد مناسبة لمناقشة التناقضات بين الإسلام والمسيحية ، والحرب السجال بين المغاربة والإسبان ، ولدراسة (السياسة الدينية) – حسب تعبيره – التي يسير عليها الموحدون في هجماتهم ضد إسبانيا . وقد توصل خلال زيارته إلى استنتاجه الذي كان بمثابة شرارة البدء الأولى حين صرح : « إنَّه لا يمكن محاربة (إلحاد) محمد بعنف السلاح الأعمى ، بل بقوة الكلمة في تعاليم المحبة المسيحية » . وقد اشترط لتحقيق ذلك فهم (الخصم) بصورة فعلية .

وكخطوة ثانية راجع الانجليزي هيرماتوس دالماتا Hermatus Dalmata ، كتاب مسائل عبد الله بن سلام ، وذلك للاطلاع على ردود الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودخوله الإسلام . وفي (تحدِّيه) للقرآن الكريم من خلال زعمه بمعرفة اللغة العربية ، (نظم) سورة كلها تهجُّم على القرآن (بنفس الأسلوب القرآني) .

رايموندوس لولوس

* ولعل المبشر الأكثر من سابقه شهرة هو رايموندوس مارتيني . وقد ولد هذا في جزيرة مالوركا قبل احتلالها من قِبَلِ الموحدين بست سنوات . واستبدَّت بذهن هذا الصبي الكاثوليكي المتصلب فكرة التغلب على « الإلحاد » .

وكان قد توصل من خلال استعراض تاريخ الأندلس السياسي ، بأن لا سبيل إلى فرض تعاليم الكنيسة بوسائل الإكراه الظاهر ، (وثبت له كذلك) بأن المشاكل السياسية

الدينية بين الأمراء المسيحيين هي التي صعَّدتْ من حدَّةِ انتصارات المسلمين وانتصاراتهم في الأندلس بالذات . لكنَّ الأمل الأقوى الذي راوده هو أن يتوصل إلى صيغة للإقناع . فإذا قُدِّر لأحدهم حملُ التعاليم المسيحية « الكاثوليكية » إلى (خصم مثقف ، بلغته الأم ، فلن يتمكن الأخير آنئذٍ بهذه الطريقة ، يهوديًّا كان أو مسلمًا ، أو أي (وثني أو كافر آخر) من الصمود في وجه الحجة . وأي امتناع عن التجاوب ، لا يمكن أن يفسر إلا على أنه شر خالص . وما إن توصل مارتيني في عام 1265 م إلى هذه الفكرة ، حتى وطَّد العزم على الدراسات الفلسفية ـ اللاهوتية والتأمل الروحي . وكان يرى في الإسلام أكبر خطر يتهدد الكنيسة[1] .

لم تكن الحروب الصليبية قد وضعت أوزارها بعد ، لكنه كان من الممكن سلفًا التنبؤ بنتائجها ، وذلك بعد أن شهدت مملكة القدس والإمارة نهايتهما في عام 1244 م . على أنه و إن تمكن المغول من إسقاط الخليفة البغدادي عام 1258 م ، إلا أن مصر بقيت مصونة ، وتمكنت بقيادة سلطان المماليك الظاهر بيبرس ، من إثبات وجودها كقوة إسلامية فاعلة ، كما أن سلسلة من الدول الإسلامية تمتد من الأندلس في الغرب وحتى آسيا الصغرى في الشرق ضربت حصارًا للحيلولة دون دخول شعوب أوروبا المياه الدافئة .

كان تراث القدامى (اليونان) في الدول الغربية الخاضعة للمسلمين يتمتع باحترام وافر . وحققت فلسفة ابن رشد نجاحًا باهرًا في دول أوروبا . واستنتج لولوس بالخبرة الذاتية أن المسلمين لم يعيروا مجهوداته الدينية أدنى اهتمام . ووجب على كل من يريد « إقناعهم » بحقيقة المسيحية ، أن يدخل معهم في نقاش حاد ومناظرات طويلة . لذا كان لا بد من إتقان لغتهم إتقانًا غير منقوص ، هذا الشيء حمل لولوس على تعلم اللغة العربية على رقيق مغربي . وقد استغرق ذلك منه تسع سنين بحالها . وفضلا عما تقدم ، فقد لعب هذا الأخير دورًا هامًّا ولا سيما في تحريض العالم المسيحي والتشجيع على تسيير الحملات الصليبية ، وبالاتصال بالتتار . وذهب أخيرًا إلى تونس بالرغم من تقدم سنه ، وتهجم على المسلمين علانية فعاقبوه ومات متأثرًا بجراحه عام 1316 م . ولنا عودة للحديث بتوسع عن هذا الصليبي المتصلب إن شاء الله .

Fueck. J. Die arabischen Studien in Europa s.17 — 19 (1)

على أن المهم هنا ، هو أن ما كان يسعى إليه لولوس ، وهو التوسع في معرفة اللغات كمدخل لا غنى عنه لدراسة وفهم ثقافة الخصم ، قد تحقق ، فبعد صدور الإرادة البابوية ، صار إلى تعيين أستاذين كاثوليكيين في كل من الجامعات الخمس (باريس ـ أكسفورد ـ بولونيا ـ سالامانكا ـ وكوريبي) . وذلك لتعليم اللغات : اليونانية ، والعبرية ، والعربية ، والكلدانية . وبعد موت لولوس اقتنى أثره مؤلف مجهول في تأليف ما يدعى (Arabica Vocabolista) ، ورتب بحسب الأبجدية العربية . ومنه يلاحظ أن مؤلفه سعى إلى تعريف المبشر بالحياة العربية اليومية ، وبما يحتاج إليه من مفردات للدخول في حديث مع مثقف مسلم . يلاحظ أيضًا أن المفردات العربية لم تشكل بحسب قواعد النحو العربية القديمة ، بل كما كانت تنطق بها الأوساط المثقفة في إسبانيا آنذاك . وبذلك فإن الأحرف الصوتية تحظى ـ من أجل معرفة العامية العربية السائدة في إسبانيا خلال القرن 13 ـ بقدر كبير ومستمر من الأهمية .

إن المرحلة التي تلت ، وهي الممتدة من أواخر القرن الثالث عشر وحتى مطلع هذا القرن ، لا تخرج عن كونها بناءً قام على ما وضع الأقدمون من أسس . فاللغة العربية تبقى دومًا هي المفتاح لفهم الإسلام انطلاقًا من قاعدة التعرُّف إلى (الخصم)[1] .

لقد شهدت حركة الاستشراق امتدادًا واسعًا فيما تلا من قرون على مستوى القارة الأوروبية وعلى شكل مراكز تتناوب الترجمة ، والتحقيق ، والتأليف ، وإصدار الدوريات ، وعقد المؤتمرات . واتسعت دائرة البحث لتشمل كل المعارف العربية بعدما كانت مقصورة على القرآن والحديث وكتب الفقه والفلسفة والعلوم المتصلة بها .

* إن الروح الغالب على كل الدراسات باستثناء الرومانسيين ، هو روح الكراهية والعداء والدس على الثقافة العربية ـ الإسلامية ، وهم ، وإن حاولوا التعلل والتذرع بالمنهج العلمي المتشدد ، وعملوا على تقمص الشخصية الأكاديمية الجدية ، فإنهم « أي العلماء منهم » لم يستطيعوا إخفاء حساسياتهم الحقيقية ، وحقدهم التاريخي المتأجج . وإذا كان روّاد حركة الاستشراق منذ مطلع القرن الثامن عشر يصمون من سبقهم من الباحثين باللهاث وراء اللغة واللاهوت بغرض تفسير الكتاب المقدس ،

---

(1) المصدر السابق ص: 25.

فيعرُّونهم بذلك من أية صفة علمية ، فإن المتأخرين ـ برغم زعمهم بسلامة منهجهم ـ قد وقعوا في نفس الخطإ من حيث يريدون أو لا يريدون .

كما سبق أن رأينا ، فقد كانت الاتهامات الموجهة للقرآن أصلاً والإسلام عامة ، تنطلق من وجهة نظر المسيحية الكاثوليكية حول قضايا تعتبرها عماد عقيدتها الدينية ، لم يُقرها الإسلام ولم يقبل بها كحقيقة أبدًا . غير أن تلك الانتقادات جاءت على شكل هجوم (POLYMIK) لم تسلم من شروره كل رموز الإسلام حتى مبلِّغ الرسالة صلى الله عليه وسلم .

وبعدما تقلص دور الكنيسة مع الدعوة إلى تأسيس أقسام للدراسات العربية في الجامعات الأوروبية ، على سبيل المثال ، في ألمانيا قبل 832 سنة على يد المستشرق اللغوي هـ . ل . فلايشر . وكانت كل من فرنسا وانجلترا قد سبقتها بوقت غير قصير ، (الأولى عبر مدرسة دي ساسي وباسم حماية مسيحيِّي الشرق ، والأخرى بدافع العناية بمستعمراتها في الهند) .

وقد تزامن ذلك مع مجهودات باحثين آخرين . عكفوا على حل رموز كتابَيْ آ . فستا وفيدا الهنديين (Vesta— Veda) وهما الكتابان المقدسان للزرادشتية والبراهما الهندية . وكانت القصص الهندية الخرافية تستأثر باهتمام الباحثين في وقت مبكر من القرن الثامن عشر .

إن مؤسسي دراسات اللغة السنسكريتية في ألمانيا لم يكونوا من خريجي الجامعات النظامية . فقد قادت النزعة الرومانسية الأخوين شليجل (B.Sch legel) في تقصيِّهما لأصول التاريخ البشري إلى الدراسات الهندية .

فقد درس أحد الأخوين واسمه فريدريك على يد الضابط الانجليزي البحار الأسير هاملتون في باريس ، درس اللغة السنسكريتية بين عامي 1803 ـ 1804 ، غير أن كتابه حول لغة الهنود وحكمتهم ، الذي نشره بعد ذلك بأربع سنوات لا بد من أنه استقاه من ترجمات مبكرة . أما آ .فيلهلم ، وهو الأخ الأكبر ، فقد درس في معهد جوتنجن العالي المناهج المتشددة للغات القديمة قبل أن يُستمال إلى الحكمة الهندية بُعَيْدَ قراءة كتاب أخيه فريدريك ، لكنه تتلمذ على يد ألماني آخر في باريس واسمه « بوب » (Bopp) فتعلم السنسكريتية وبذلك أصبح أول أستاذ لهذه اللغة في جامعة بون وفي ألمانيا

كلها . أما بوب فلم يزر جامعة في وطنه حين غادره إلى باريس في عام 1812 ليتلقى علومه باللغتين العربية والفارسية في مدرسة دي ساسيه ، لكنه ما لبث أن غيَّر رأيه ودرس اللغة السنسكريتية دراسة ذاتية(1) .

إن النتيجة الأولية المتحصلة مما سبق ذكره ، أن منهج الدراسات المقارنة استعمل أساسًا للكشف عن أصول الآداب وجذور اللغات . ولقد ظهرت أولى بشائره في أبحاث العالم Kosegarten ، وهو تاريخ الخرافات المتنقلة ، ولدى العالم Gildemeister ، الذي يسعى إلى إماطة اللثام عن الروابط بين حقلي الثقافتين .

* لا بد لنا ، قبل مواصلة الحديث ، من وقفة على طبيعة القرآن الكريم وبشيء من الإيجاز نقول :

1 ـ كلام الله تعالى ، كتاب فيه : ا ـ العقائد ، ب ـ العبادات ، حـ ـ المعاملات والأخلاق . وهو فضلاً عن ذلك كتاب فيه جوامع الكلم ، فيه اللغة والأدب ، أخبار السابقين (فهو مصدر تاريخي هام) وأخيرًا علوم تطبيق ! !

وشيء آخر : كلام الله تعالى ، ذهب المفسرون في فهمه شتَّى المذاهب ، فمنهم من قال بنسبته إلى الله معنى ، وآخرون معنى ولفظًا ، وحيث إنه أُنزل بلغة العرب ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا . . . ﴾ ، قوم لهم ماضيهم (وحضارتهم) ، برعوا في فن الكلمة وأبدعوا فيها أيما إبداع ، فقد استهووا غيرهم لدراستهم وتعقب أخبارهم .

وعلى أساس الفهم السابق ، أخضع المستشرقون القرآن الكريم كظاهرة لغوية إلى نفس المعايير والقواعد والمقاييس التي أخضعوا لها مواد الدرس الأخرى . إذًا فالقرآن ـ انطلاقًا من فهمهم ـ لا يختلف من [حيث ظاهره وأداؤه عن أي كتاب لغوي آخر] ، [ومن حيث مضمونه ـ جانب هام منه ـ عن أية كتب أدبية أخرى] ، فإذا ثبتت لديهم أي أوجه للتشابه فهذا من ذاك ، أيهما أسبق ، وبهذا أيضًا تنتفي عنه أية صبغة سماوية لتحلَّ محلَّها صفة أخرى أرضية . ليس ذلك فحسب : طالما أن المقابَلَةَ أثبتت التشابه ، فإن أمر التأثر أو الاقتباس كما حدث لكثير من الثقافات ناشيء إما بطريق الأخذ العمدي أو بالتأثر التلقائي ، والحضارةُ الإنسانية ، هي في النهاية ثمرة مجهودات ساهم فيها كلٌّ

---

(1) Brockelmann C. die morgenlaendische studien in Deutschland. Z.D.M, S5.

الجنس البشري . . . فعملية الأخذ والعطاء بين الشعوب لم تقف يومًا ، ولا وقفت الهجرات البشرية التي حملت معها أفكارها وثقافاتها .

بين الأصالة والاستفادة

والمحصلة النهائية ، أو ما يراد الوصول إليه : هي أن القرآن لا يعدو أن يكون كتابًا (مستفادًا) من الثقافات الأخرى ، وبصفة أخص من الأديان السماوية التي سبقته « الموسوية ـ والمسيحية » ، فعملية الأخذ أو الاقتباس هنا شرط أساسي ، فإذا عرفنا أن الروابط التاريخية والجغرافية في المدينة وفي التخوم كانت بين العرب واليهود من جهة وبين العرب والمسيحيين من جهة أخرى على أشدها ، [صح الظن وتأكد] ، وهكذا أُخضِعَ القرآن قسرًا ، في أسوإ تنكيل يشهده كتاب ، لضروب شتى من الطعن والسخرية والتشكيك ، كل ذلك تحت مظلة (العلم) ودريئة المنهج الأكاديمي المقارن ، وعقلانية البحث العلمي .

* إنَّه لمن الصعب جدًّا إحصاء الكتب والمقالات والمحاضرات والرسائل العلمية التي راحت (تفتت) القرآن وتجزئه بقصد (اكتشافه) (Forschung) ، منفصلاً أو مجتمعًا ، فمن غير المستغرب أن تقع عينُك على شرح وافٍ ، ضافٍ ، لكلمة (كتاب) بعد ردها إلى أصول لغوية إيغالاً في لغات ميتة ، وتوغلاً في عقائد بائدة ، أو أن تقع على لفظ (آمين) الذي طرق سمعك كلما صاح مؤذن الله أكبر ، أو على أصل (لخرافة) يوسف وزليخة ، وأهل الكهف ، ويونس ذي النون ، أو فكرة التوحيد وقد رُدَّت إلى أصول جاهلية استنادًا غير منصف إلى الحنيفية ، دين سيدنا إبراهيم عليه السلام وعقيدة التوحيد . ستقابلك مقالات تقول : إن كلمة (راعنا) في الآية الكريمة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ . . . ﴾ عبرية عامية ليهود يثرب ، أو أنَّ شعائر الحج : السعي ، والوقوف بعرفة ، ورميَ الجمار ، والعمرة ، كلها يهودية الأصل نسبة إلى أعياد لليهود . أما عذارى الجنة ، أو الحور العين التي ورد ذكرها في القرآن ، فلها شبيهاتها في الإنجيل ، وبعض مشاهد القيامة في القرآن مأخوذة منه أيضًا ، هذا فضلاً عن أنَّ فكرة الجنة والنار والعقاب والحساب أفكار قديمة جدًّا سبقت إليها

الديانات القديمة .

* ولقد توسعت دائرة البحث بحيث شملت الكلمة والآية والسورة كما في (الفاتحة) . وشملت اللغة من حيث الشكلُ أو النحوُ . فنمط الكتابة العربية « الأسلوب » لا يختلف – في رأيهم - عنه في الكتابات السريانية القديمة ، وهي إشارة خبيثة إلى أنَّ الكتاب المقدَّس الذي نزل باللغة الآرامية أو السريانية . كان هو الأصل .

* والسجع في القرآن ليس غريبًا عن لغة العرب وأدبهم . لقد عرف الكهان في الجاهلية هذا الضرب أو الإيقاع من موسيقا الكلام « ليلٌ داج ، ونهارٌ ساج ، وسماءٌ ذات أبراج . . . » .

ولعلَّ أية مقابَلَةٍ نجريها هنا لن تثري البحث ولن تفيد القارىء في شيء لجهل الكثيرين باللغات القديمة التي أهملها علماؤنا وأولاها الخصوم عناية فائقة . مع ذلك فإن فقرنا بها وافتقارنا إليها ، لا يُعَدَّان علامة إفلاس تحول بيننا وبين تفنيد كل المزاعم السابقة وتسفيهها :

* بشهادتهم ، وبرأينا وهو الأهم ، إنهم دون المستوى التأهيلي اللغوي عربيًّا ، بحيث يتصدون بشكل أو بآخر للغة وبلاغة القرآن . فالقرآن الكريم ليس كتاب البراهما ، ولا أدب بيديا ، ولا أسلوب زرادشت في كتابه « هكذا تكلم زرادشت » . إن القرآن الكريم بحق – لمن فتح الله عليه فعرف مداخل اللغة ومخارجها – معجزةٌ كلاميةٌ وأي معجزة ؟ !

ونذهب أبعدَ من ذلك : لا الإحاطةُ بالنحو ولا البلاغةِ ولا العلومِ الأخرى كافٍ أيضًا للدخول في هذا الخضم ، فهناك حسٌّ أدبي ، ومواهبُ وملكات واستشراف هو وقف على بعضٍ دون بعضٍ آخر كما في سائر العلوم !

* وأول طعن نوجهه إلى طريقة البحث والكشف تلك ، لا ترد على لساننا أيضًا ، و إنما على لسان مستشرق منهم هو (ديوهان فوك) في مقالته : « أصالة النبي العربي » التي انتقد فيها طريقة العمل حين قال : « إنه لا يمكن تقسيم القرآن إلى شذرات ، كلمةٍ ، وسورة ، وقصة ، وآية ، بحيث أصبح الكتاب وكأنه لوحة (فسيفساء) . . ! »[1]

---

(1) Fuck. J. Die Originalitaet des arabischen — Propheten,
انظر الصفحات 515 وما بعدها.

و إذا كان دفاعه من وجهة نظر خاصة لا من وجهة نظر الإسلام ، فإننا نضيف إلى ما قال بأنَّ القرآن الكريم يؤلِّف (وحدة) مترابطة متراصة لا يمكن فهمها منفصلة العرى ، وبالتالي وضعها تحت المجهر كما لو كانت كلمات الله عناصرَ وعيِّناتٍ يراد فحصها وتحليلها .

* والقرآن الكريم و إن كان لغة ، وأدبًا ، وتاريخًا ، وشعائر ، وشريعة ، فإن أحدًا لم يقل بأن هذا الكتاب ، في تنزيله ، قد تجاهل ما كان يجري على الأرض ويستجد ، و إنَّه و إن تنزل من الغيب ، إلا أنَّه نزل ليقرَّ أمورًا وينسخ أخرى ، ويثبت سلوكًا ويزكيه ، وينهى عن أخلاق ويعيب على الأمم والمجتمعات العمل بمقتضاها .

* والتشابه الذي قد يلاحظ بين المفاهيم ، دنيوية كانت أو أخروية ، لغوية أو قصصية ، لا يرجع إلى عمليات (سطو) على الأديان الأخرى كما يحلو لهم تسميتها ، و إنما إلى وحدة المصدر ، فالديانات السماوية على اختلاف أزمنتها وأمكنتها من الله ، وأيُّ توافقٍ أو تشابه هو في الواقع دليل قوي إلى جانب الإسلام لا ضده[1] .

وللأنبياء والرسل صفات جامعة وقاسم مشترك ، والكتب السماوية كذلك ، و إلَّا لما افتضح أمر (الأنبياء الأدعياء) وما استبان للناس لغوهم لولا وجود هذه الخاصية في (وحدة الأديان السماوية) .

* ولا يمكن مقابَلَةُ القرآن و إن كان وعاءً لغويًّا بأي كتاب مكتوب آخر ، لأنَّ الأعمال الأدبية تؤلِّف موضوعاتٍ مستقلة وتخدم فكرة أدبية معينة ، والقرآن في أدبه لا يسعى إلى إبراز هذا الاتجاه ، وما القصص القرآني وما زُعِمَ عنه إلَّا قصصٌ هدفُه استخلاص العبرة .

ونختم بالقول : إن ما يمكن قوله أكثر بكثير . وهو على كثرته ، لا يغير من أمر واقع : « القرآن الكريم فوق الشبهات ، والمتشابهات ، ولقد جرَّب قبلهم الجاهليون فما نفع كيدهم » : ﴿ ... **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا** ﴾ .

---

(1) نذكر بالخصوص ما كتبه المستشرقون هـ. فنكلر (Winkler)، مقالته باللغة الألمانية (أبانا الذي في السماء والفاتحة) (Fa'tiha.u.Vaterunser)، وما كتبه المستشرق ر. كوبرت (R.Kobert)، حول لفظ الطاغوت في القرآن، وما كتبه المستشرق د. يوليوس أوجابفل مقالته بالألمانية (Das Kitabim Koran). والمصادر مذكورة في الثبت كاملة.

ومهما يكن من أمر هذا المنهج أو غيره من المناهج ، فثمت ملاحظات جامعة نود تسجيلها قبل المضي قدماً في رسم صورة القرآن التي علقتْ في ذهن العقل الأوروبي المثقف وهي :

أولاً : إن تلك الاستنتاجات والدراسات ـ على ما تنطوي عليه من إصابة و إخفاق ، إساءة و إحسان ، لا تخلو من عنصر هام وهو فضيلة الكشف عن الطريقة التي يفكر بها الآخرون .

ثانياً : إن أوروبا «المسيحية» ، لدى تبلور هذه المناهج ، خلال القرنين الثامن عشر والنصف الأول من هذا القرن ، كانت لا تزال في طور النقاهة ، أي أنها كانت لاتزال تعاني من آثار القمع الفكري والتسلط اللاهوتي ، فكان تعبيرها نابعاً من إحساسٍ عميق بالحنق والنقمة على الأديان عامة .

ثالثاً : إن أوروبا في هذه الفترة ، كانت تعيش حالة انقسام وشتات فكري ، فهذان القرنان شهدا ميلاد أشد وأقوى التيارات الأدبية والفلسفية تأثيراً ، وأنها ساهمت كما سنرى ، بكثير أو قليل ، في توجيه دفة الفكر الغربي وفي بلورة المدارس الفكرية المعروفة وفي تحديد المواقف من الأديان أيضاً .

رابعاً : لا نقر التقسيم الذي ذهب إليه بعض الدارسين بتصنيف الاستشراق إلى مدارس ، بحيث نسمي بعضه استشراقاً انجليزيّاً وبعضه الآخر فرنسيّاً أو ألمانيّاً أو هولنديّاً . صحيحٌ أن الدارسين يسمون بأسماء البلدان التي ينتمون إليها ، غير أن النتيجة التي توصلنا إليها باستعراض طرق البحث والتفكير والمحصلات ، تنفي صحة هذا التقسيم ، و إذا كان لا بد من وجود اختلاف ، فليس مرده إلى الجغرافية ، بل إلى التناوب في تسيير عجلة الاستشراق . وبعبارة أخرى ، فإنه ما إن وَقَفَتْ مدرسة المستشرق دي ساسيه في باريس عن العطاء ، حتى استأنفته مدرسة تيودور نولدكه في شتراسبورج ، أو مدرسة هورجرونيه في هولندا[1] . أما الموضوعات فتوشك أن تكون متطابقة مكملة . فإذا عرفنا أن الاتصال عبر المؤتمرات السنوية والدوريات المنتظمة لم ينقطع أبداً ، جاز لنا القول : إن سحنة

---

(1) كان دي ساسيه المستشرق الفرنسي اللغوي المعروف على رأس المدرسة الفرنسية في باريس، بينما كان نولدكه في مدينة شتراسبورج على رأس المدرسة الألمانية وطبع حركة الاستشراق سبعين سنة بشخصه. وكان المستشرق الهولندي هو رجرونيه في مدينة لايدن بهولندا، انظر مقالة بروكلمان بالألمانية (الدراسة العربية في ألمانيا).

الاستشراق واحدة ولاسيما في وسائلها وغاياتها المتجهة نحو القرآن الكريم .

[لا أسعى] في هذا البحث إلى تزكية طرف لأنه أثنى على التراث ، والحطّ من طرف آخر لأنه حاول الغضَّ من شأنه . إلى تحسين صورة أو تشويه أخرى ، لمجرد موقف أو مقولةٍ صدرت عن هذا أو ذاك ، فأذكتْ فينا مشاعر الكبرياء والفخار ، أو ألهبتْ في قرارتنا الغيظ والاستنكار ..!

إن ما أرمي إليه تحديداً ، هو الوقوف على الظواهر البارزة والمحطات المهمة التي أثرتْ في توجيه حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية) ، وساهمتْ في تحريك وتحديد سيرها إلى سنوات طويلة ، بغض النظر عن طبيعة ووقع الحكم ، وقربه وبعده من النفس .

من المتعارف عليه أن الاستشراق بدأ صغيراً في إثر اجتهادات ومجهودات بعض رجال الكنيسة من أجل تخصيص كراسي لتدريس اللغات الشرقية والسامية ، العربية والعبرية واليونانية والآرامية . غير أن الحديث عن التخصص والدراسات الأكاديمية وتسمية كليات بهذا الاسم ORIENTALISM ، لم يبدأ عمليّاً إلا مع القرن السابع عشر ، وبظهور شخصية كانت معلماً بارزاً ، وظاهرة استثنائية وُلدت في غير زمانها ، لإضفاء الصفة العقلانية على هذا النوع من الدراسات[1] ، إضافة إلى أساتذة الجامعة المتخصصين الذين كانت غالبيتهم من رجال اللاهوت .

ليس في وسع أحد أن ينكر إذاً أن الاستشراق اختراع أوروبي ، يتصرف بخامات شرقية ويتحرك بأدوات غربية . والدارسون الذين يجهلون أو يتجاهلون هذه المسلَّمةَ الكبرى كثيرون ، وهم من الغفلة بحيث لم يدركوا بعدُ الهدف الحقيقيَّ من دراسة الاستشراق ولا الطرق المؤدِّية إليه . وهكذا يخطيء خطأً جسيماً كل من يذهب إلى الاعتقاد أن هذا العلم نُتفٌ وقطوف ، مواقفُ وبطولات مبعثرة هنا وهناك ، وبمجرد جمعها من هذه المقالة الحماسية أو تلك ، يستكمل العلم ملامحه ، ويصبح الدارس مؤهلاً للحديث في شؤونه وشجونه من غير ما تحفظ واحتراس . فحين أقبلت أوروبا على دراسة ثقافتنا (نقداً وتحليلاً) ، والاستشراق كما قلنا ، اختراع أوروبي ، غايته التعرف

---

(1) هو المستشرق الألماني يوهان ياكوب رايسكه أو شهيد الأدب العربي كما يسمونه. وقد أفردنا فصلاً خاصّاً للحديث عنه.

إلى الإنتاج الفكري للشرق[1] ، بدأت عملياً البداية الصحيحة التي لا بديل عنها كمدخل إلى فهم الغير ، ونعني بذلك عامل اللغة .

في هذا السياق ، نكرر العبارة الشهيرة التي أطلقها بطرس المبجل Peter Venetables ، بعدما رأى أن القوة ليست هي الوسيلة الصحيحة للتغلب على هجمات الموحِّدين : (بكلمة المحبة المسيحية ، لا بعنف السلاح الأعمى يريد التغلب على الهرطقة المحمدية) . أما الخطوة التي تلتْ ، فكانت تأليف المعاجم اللغوية والانكباب على الدراسات (الفيلولوجية) ، وتبع ذلك الإقبال على دراسة السِّيَر الشخصية للرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة وتاريخ القرآن الكريم وما يتصل به من علوم .

لقد حدد المستشرق فوتكة أربع محطات رئيسة للدراسات العربية نلخصها في أربع نقاط :

ا ـ التغلب على المصاعب اللغوية البدائية بعد ظهور كتاب بطرس الكالا في النحو والمفردات عام 1505 ، وتأسيس كراسي اللغات الشرقية ، ودراسة المخطوطات العربية في باريس عام 1587 .

ب ـ الترجمة الشعرية للقرآن الكريم من قِبَلِ الشاعر الألماني الكبير فريدريسن روكرت .

جـ ـ دي ساسيه الفرنسي ومدرسته النقدية ، وقابل الألماني ودراساته التاريخية .

د ـ وكتاب المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر بورجشتال (تاريخ العرب الأدبي) عام 1850 م[2] .

لكن هذا الرأي ـ على وجاهته ـ لم يؤلِّف في نظرنا سوى البداية ، و إن هذا الحكم وليد عصره وابن زمنه . أما الدراسات والتوجهات الأكثر أهمية وفعالية ، فهي التي بدأت مع القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، وأما ما سبق ذلك فكان تمهيداً (جديّاً) لها . ونحب أن ننوه إلى أنه لا توجد في المكتبة الغربية ولا المكتبة العربية

---

(1) نفضل لفظ (النقد) كتعريف اصطلاحي للاستشراق على غيره من المصطلحات الشائعة.

(2) مستفاد من دراسة نقدية لمؤلِّف المستشرق بورجشتال L .G.der Araben.s.

بحوث مستقلة بهذا المعنى ، وأن ما نصفه هنا ـ معتمدين على بحوثٍ لمفكرين ومستشرقين كبار ـ استُخلِص من سياق الإشارات إلى المنعطفات التي مرّت بها الدراسات العربية ، أو بحوث ودراسات ركز فيها أصحابها على أهمية المناهج العلمية في البحث ، وأنحَوْا باللائمة على التوجهات العاطفية (وغير العقلانية) في الاستنتاج .

لكن ما يهمنا الإصغاء إليه ، هو أن اللاهوت THEOLOGIE ، كان يجسِّد القاعدة العلمية والتنظيرية لكل ثقافات وديانات الغير : (. . فلقد كان أساتذة اللغات الشرقية ، العبرية وأخواتها ، واليونانية ، كانوا برمتهم من رجال اللاهوت أو أنهم انطلقوا منهم ، وأن أعمالهم في هذه الحقول ، اعتبرت في حينها بمثابة تكملة للشروح اللاهوتية التي كان يجب تسليح روادها بالمعارف اللازمة لشرح الكتاب المقدس) . (. . هذه التبعية للاّهوت لم تمكن الاستشراق في القرنين السابع والثامن عشر من التوصل إلى نتائج علمية ذات قيمة مستقلة إلا لماماً)[1] . ولعل المحاولة اليائسة الأولى ـ كما تحدثتْ عنها كتب الاستشراق ـ بُذِلَتْ على يد المستشرق ي . رايسكه الذي وهب حياته لدراسة اللغة والتاريخ العربيين . (وكان المستشرق شولتنس قد أوصى تلميذه بدراسة الشعر العربي ، فقام هذا بنسخ ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، ثم حماسة البحتري ، وأما معظم وقته فقد صرفه في مطالعة أشعار الجاهلية الأكثر شهرة وهي المعلقات) . وقد ظهر كتابه عام 1742 م محتوياً على المتن العربي بلا حركات مع ترجمة لاتينية وحواشٍ له مع شرح النحاس ، ولعل المسترعي للنظر هو الدراسة التي قامت من حول الشرح ، والتي تؤلِّف في نظرنا باكورة التوجهات العلمية القائمة على أسس منهجية . إذ يعلق المؤلِّف على الترجمة والحواشي ببعض الملاحظات ، التي تظهر كيفية تطور أفكار الشاعر وموضوعات العقيدة بيتاً فبيتاً . كما أنه يفسر الأشكال الشعرية ، وطُرُزَ البلاغة بمساعدة كثير من الأبيات والعبارات المقتبسة من المعلَّقات الأُخَرَ ، ومن ديوان الهذليين والحماستين وأشعار المتنبي وأبي العلاء المعري وسائر الشعراء . وتعالج المقدمة أنواع خطوط المعلقات ، وحواشيها وشروحها ، والأسماء التي تعرف بها . ويقدم

---

(1) Brockelmann, morgenlaendishe S.S.3.

للقراء محتويات كل واحدة منها ، ويضيف في المعلومات الخاصة بمجرى حياة مؤلِّفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل ، ويضيف جدولاً للأنساب . وكان رايسكه بهذا العمل صاحبَ أول مبادرة مازالت تُطرق على نفس النحو في الغرب . وبهذا العمل يمكن أن نصنف المستشرق رايسكه في طليعة الرجال الذين يرجع إليهم الفضل الأول في تخليص المعرفة من سلطة اللاهوت ، وفي إعطاء البحث صبغته العلمية العقلية . وعلى ذلك يعلق المستشرق فوك بقوله : « . . . ومع ذلك فإن المنهاج الجديد كان بعيداً جدّاً عن الأساليب التي بحث فيها أستاذه شولتنس عن أصول اللغات السامية في ضبابيات خياله ». (إن من يقتنع ببراهين رايسكه على أن المعلقات هي من نظم القرن السادس الميلادي ، يعرف أن لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربي القديم . أما شولتنس فلم يكن يعرف كيف يفهم كتاباً في العربية لا علاقة لموضوعه بتفسير التوراة ولا بنظريات رجال اللاهوت . كما أن رايسكه لم يكترث بما قاله الكثيرون ، وثابر على المضيِّ في نفس الطريق التي عرفها صحيحة وثابتة ، ولم يبال بالسؤال : هل للمعرفة بالتوراة ودرس اللغة العبرية أية فائدة تُجنى من جراء دراسة العربية ؟)[1] .

إن العبارة الأخيرة المستخلصة من دراسة المؤرخ فوك تبيِّن لنا النزعة العلمية الاستقلالية لهذا الرجل : (. . . وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وآدابها وجعله علماً قائماً بذاته . ولم ينتبه أحد من معاصريه إلى استقلالية هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية . ولم يتوجه أحد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة PHILOLOGIA SACRA الذي كان مسيطراً على عقول العلماء في ذلك العصر . . .) . ولا ينبغي أن نغادر رايسكه إلى غيره قبل أن نتعرف إلى ما قاله المستشرق بروكلمان عن الدور الهام الذي لعبه رايسكه في سعيه إلى تخليص المعرفة من سلطة اللاهوت إلى النتيجة التي أسفرت عنها مجهوداته بعد كفاحه المرير مع الكنيسة : (. . . إن ف . جيسينوس الذي احترف اللاهوت ، هو الذي عرف كيف يُخرِج اللغويات من فلك اللاهوت بعقلية علمية جادة ، وأن يسند إليها مهام جديدة مستقلة في علم

---

(1) الترجمة الكاملة في آخر الكتاب.

الكتابة وفي استكشاف اللغات السامية الحية) . . (. . ولقد نتج عن ذلك حقل كامل جديد في علوم الإسلام . إن ي . ي . رايسكه الذي حرص ـ وليس بدون وجه حق ـ على تسمية نفسه شهيد الأدب العربي ، وحاول تحقيق ذلك ، نجح فيه خليفته هـ . ل فلايشر نجاحاً باهراً ، بحيث حظيت الدراسات العربية على يده بمكانة في الجامعة الألمانية ، وعلى يد دي ساسيه في باريس) .

فإذا غادرنا القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الذي يليه ، حيث يربطنا موعد بشخصية أخرى لم تُعنَ بالعربية عنايةَ الشخصية السابقة ، لكنه لا يمكن إنكار الدور الذي أداه صاحبها في الحد من هيمنة اللاهوت على العلم والسير به في طريق مغاير ، ولكن ليس بنفس الروح المسالم الوديع الذي عهدناه في سلفه رايسكه . لقد أثار المستشرق ياكوب ضجة كبرى وأحدث جلبة قوية . صبّ جام غضبه في غير هوادة على الأساليب الكلاسيكية في فهم اللغة العربية واتهمهم بشتى النعوت والأوصاف[1] . ولم يسلم من ذلك حتى أستاذه EWALD عالم اللغويات . نادى ياكوب بالعناية بالجوانب الجمالية ، وبعدم الغوص في أصول الثقافات واللغات ، ودعا إلى الاكتفاء بوجوه الحسن فيها ، لكن دعوته اعتبرت غير علمية وغير منهجية ، فكان الصدام الذي تحدثنا عنه .

جوزيف فون هامر بورجشتال : قبل الشروع في تناول آثاره وتأثيراته على مسيرة البحث العلمي ، يحسن بنا أن نُعرِّف بالموقف التاريخي الذي اكتنف إبداعات هذه الشخصية . (. . . في النمسا التي دعتْ إلى اعتبارها الوارثة للامبراطورية العثمانية ، باعتبارها نقطة الصدام الأولى لأوروبا المسيحية ضد هجمات الإسلام الأخيرة ، ازدهرت الدراسات التركية ، ووجدتْ في شخص يوسف فون هامر بورجشتال ممثلاً ألمعيّاً لا يمكن نسيان أفضاله على متابعة التاريخ العثماني حتى يومنا هذا)[2] .

كان يوسف هامر أحد طلبة الأكاديمية الشرقية التي أسستها الامبراطورة ماريا تيريزيا . ولد عام 1774 وتوفي فجأة عام 1856 في أثناء اشتغاله بكتابه : (تاريخ

(1) انظر فوك، يوهان. الدراسات العربية بالألمانية ص: 319.
(2) من دراسة نشرت في مجلة فكر وفن.

العرب الأدبي) . « وبالرغم من أن هامر ألّف أكثر من 75 كتاباً بعضها ضخم جدّاً ، ومئات من المقالات والتراجم ، ويندر أن نرى مثيلاً له في تاريخ الاستشراق ، فإنه لم يكتسب لقب عالم بحث بكل ما في الكلمة من معنى) .

كان في أسلوبه مقلّداً للأسلوب الشرقي المزين بالسجع ، المتلاعب بالألفاظ . كثير التشابيه والرموز بقصد إذكاء الذاكرة بين الروح الشرقي والعقل الغربي . وكانت عبارات آثاره مطرزة بشتى أساليب الخطابة ، بحيث يصعب على القاريء الغربي إدراك معناها البسيط .

عُين هامر رئيساً لتحرير مجلة معادن الشرق « FUNDGRUBENDES ORIENTS » ؛ واختار للمجلة الآية القرآنية الكريمة : ﴿ . . . قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ﴾ شعاراً . والملاحظ على هامر ، أنه تجنب في مجلته إدخال علم اللاهوت والأبحاث اللاهوتية واقتصر على اللغات الهامة في العالم الإسلامي ؛ وهي العربية والتركية والفارسية .

غير أن مجهودات هامر ونَتَاجَهُ الغزير ما كانا ليمنعا الناقدين من توجيه أقسى وألذع أنواع النقد إليه .

يقول العالم الانجليزي ي . أ . نيكلسون « لقد كان من سوء حظ تائية ابن الفارض أن يكون هامر مترجماً لها » وقال المؤلف نفسه في طريقة هامر في الترجمة الشعرية للقصائد العربية : « لم يكن أكثر من اقتباس كلمتين أو ثلاث كلمات من كل بيت ، وحشو الباقي بالمعاني التي تخطر على باله في تلك اللحظة » . وهذا النقد شبيه بما ذكره العالم اللغوي فلايشر الذي سبق ذكره ، حين نشر هامر (أطواق الذهب) للزمخشري في مطلع عام 1835 ، وذلك بعد إجراء تصحيح لترجمة الكتاب ونشر ترجمة جديدة له ، تتضمن نقداً شديداً لأخطاء هامر وهفواته .

نشر هامر أيضاً مجموعة جميلة من الأدعية العربية بالألمانية أطلق عليها اسم (ميقات الصلاة) . ودخل حقل التمثيل المسرحي (سقوط البرامكة) عام 1813 (وهما مسرحيتان) ، ونوى تصنيف كثير من المآسي الشرقية ، ولم ينشر سوى واحدة هي (محمد) أو (حصار مكة) عام 1823 ، أراد منها الرد على فولتير الذي كان تعرض للرسول صلى الله عليه وسلم . ويبدو أن هامر أدرك حرج موقفه واضطراب وتناقض

أحكامه على التاريخ فبرر ذلك تبريراً ينأى به بعيداً عن الروح العلمي للبحث : « إن المؤرخ لَيشاهد أمام ناظريه سطوة ممالك الدنيا العظيمة ، وقد انسكب شعاعها في نقطة واحدة بالقرب من قوة كل من الدول المتعددة وقد توزعت في ألف شعاع . و إنه لَيرى السِّيَر الأسطورية لأقدم الممالك إلى جانب أدق التواريخ لأحدثها ، كما يبدو أمامه عصر الجاهلية قبل بعثة الرسول وأيام المعرفة والهداية بعده ، كل ذلك إلى جانب (معجزات الفرس) وبطولات العرب ، وروح المغول المدمر الذي اجتاح أطراف العالم ، وحكمة العثمانيين في إقامة دولتهم وتدعيمها »[1] .

والذي يقرأ مؤلَّفات هامر يخلص إلى أن الرجل لم يتمتع بعقلية الباحث العلمي الذي يجعل المسألة الواحدة أكبر همه ، فيمضي إليها بثبات ووضوح رؤية وبالوسائل العلمية التي تستطيع إثبات صحتها أو بطلانها .

إن هامر لم يفعل ذلك بل راح ينظر ويقفز هنا وهناك ، لم يكن له رأي معين ، فبنفس الحماس الذي أظهره للإسلام في نتاجاته الفكرية الجذابة الجميلة ، مضى إلى ديانات الفرس . وفي الوقت الذي تحدث فيه بإعجاب عن بطولات العرب ، أثنى بقوة على معجزات الفرس ، وهكذا . ولعل الروح الرومانتيكيّ الذي غلب على أعماله ، هو الذي دعا بروكلمان إلى القول : « . . حتى و إن وجد فيه نقاده اللغويون المتشددون فيما بعد هنّات كثيرة ، أضرّتْ بسمعته الطيبة التي كسبها أيام شبابه » .

وبالرغم من أن كتابه (تاريخ العرب الأدبي) ، يُعدُّ واحداً من الكتب القليلة التي ساهمت في دفع حركة الدراسات العربية ، بما قدمتْ من معلومات تاريخية غزيرة عن تاريخ العرب حتى عصور متأخرة ، فإنه ـ الكتاب ـ كان أحد مظاهر الجمع بين التوجه المنهجي القائم على الاستدلال والاستنتاج ، والتوجه الرومانتيكي الذي يعتمد على المزاج . وهكذا ، فإن مظاهر إعجابه بالقرآن ﴿ . . . **قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ** . . . ﴾ لم يمنعه من القول : (إن سجع القرآن الشعري هو تصعيد لأسلوب الكهانة القديم) .

وكون هامر بورجشتال عاش في قصر من الطرز العربية تزينه النقوش والزخارف

---

(1) المصدر السابق نفسه.

والأقواس والآيات الكريمة ، وأنه دُفن بناء على وصيته في قبر يشبه قبور المسلمين ، الشيء الذي ربما لا يفهم منه الشرقي سوى ضرب من الإيمان أو الإعجاب على أقل تقدير ، فإن رأيه في القرآن الكريم الذي كثيراً ما استشهد بآياته ومفرداته ، نسمعه من المستشرق فودكه في دراسته النقدية حول (**تاريخ العرب الأدبي**) حيث يقول : « لقد أسرف هامر في كلماته لتفنيد ودحض حجة أولئك الذين يصرون على عدم اعتبار محمد شاعراً ، إن من لا يريد أن يستشعر عبقرية محمد من السور شعريّاً ، فليس قميناً بالإدلاء برأيه حول الشجون الشعرية . أما السؤال الآخر الذي يفرض نفسه ، فهو ما إذا كان القرآن قد عمل على تنشيط الفن الشعري أو أنه أضرَّ به ؟ !) .

ولا أظن أننا نستطيع الوقوف أكثر لدى اجتماع النزعتين ، العقلية والجمالية (الرومانتيكية) لدى بورجشتال ، لكننا مضطرون للقول : لا ينبغي لهذا الضرب من الإعجاب أن يصرفنا عن الاعتقاد بأن هذا الإطراء يمكن أن يحمل في متونه كثيراً من الضرر لقضية الإسلام ، ولاسيما لدى أولئك الذين لا يقوِّموننا إلا من خلال الأعمال الجادة التي لا تجد العاطفةُ الشخصيةُ فيها موضع قدم .

فريدريك روكرت : وبالنظر للأواصر الروحية القوية التي ربطت بين الأستاذ وتلميذه ، ونعني بين هامر بورجشتال والشاعر الألماني الكبير فريدريش روكرت ، فلا نرى ضرورة لإفراد صفحة خاصة لهذا الشاعر ، ليس انتقاصاً من قدره أو استهانة بموهبته ومكانته ، بل لأنه امتداد لمذهب بورجشتال بالجوانب الجمالية والانصراف عن المعاناة الفكرية .

لقد أحب روكرت الشرق ولغاته : « لي معشوقتان ؛ العربية والفارسية » . فليس عجيباً إن هو أبدع في ترجمة القرآن الكريم إلى (درجة الإعجاز)[1] في رأي وشهادة أستاذه الذي تخرج على يديه . لقد ترجم روكرت ثلثيْ القرآن وأدركته المنية قبل أن يتم عمله .

لم يأبه روكرت إلى الجوانب التنظيرية كما أسلفنا ، بل التفت إلى العناية بالنص من ناحية الثوب اللفظي . وهكذا يمكن أن نحكم على عمله بأنه عمل أدبي من زاوية

---

(1) الإعجاز من وجهة نظر أستاذه وبموازين اللغة والبلاغة الألمانيتين بالطبع.

لغته وفي نظر قومه . أما من وجهة نظرنا نحن فلا نظن أنه بلغ أو سيبلغ إعجاز القرآن بأي مقياس ولمن يجيدون اللغة التي ترجم روكرت القرآن إليها شعراً .

اخترنا هذه الترجمة لسورة التكوير : والذي لم يُصِبْ منها حظّاً ، فما عليه إلا أن يلاحظ القوافي في نهايات الجمل أو ليستمع إليها مقروءة ليدرك الموسيقا التي حاول الشاعر فيها محاكاة السجع القرآني والإيقاعات العذبة .

(1) Wenn die Sonne sich verschleiert.
(2) Und die Sterne erblassen,
(3) Wenn die berge schwanken,
(4) Kamelstuten sind verlassen,
(5) Wenn die wilden Tiere sich rotten,
(6) Wenn das Meer aufgejagt,
(7) Wenn die Seelen sich paaren,
(8) Wenn man die getöteten Töchter fragt,
(9) Um welcher Schuld sie ermordet,
(10) Wenn Rechnung ist vorgebracht,
(11) Wenn der Himmel enthüllt ist,
(12) Das höllische Feuer entfacht,
(13) Wenn nahe der Paradiesesgarten,
(14) Dann erkennt die Seele, was sie gemacht,
(15) Fürwahr, ich schwöre bei den Planeten,
(16) Den wandernden, unsteten,
(17) Und bei der Nacht, wenn sie dunkelt,
(18) Und beim Morgen, wenn er funkelt,
(19) Es ist das Wort eines, den Gottgesandt,
(20) Der bem Herrn des Thrones Geltung fand,
(21) Dem Gehorsam gebührt, der treu gewesen,
(22) Nein, euer Genosse ist nicht besessen!
(23) Er sah ihn doch am Horizont so klar.
(24) Er trügt in dem, aws ihm offenbar.
(25) Es ist auch nicht eines Teufels Wort!
(26) Wo bleibt ihr nun, hier oder dort
(27) Es ist nur ein Mahnwort für die Welt,
(28) Für den von euch, der das Rechte wählt!
(29) Doch ihr könnt nicht wollen, wenn's nicht Gott dem Herrn gefällt.

شاعر ألمانيا الكبير يوهان فولفانج جوته : لا نريد أن نعيد إلى الأذهان ما كان من

موقف الشاعرين الأوروبيين الكبيرين دانتي الإيطالي وشكسبير الانجليزي من الإسلام ، كي نبرز الموقف الإيجابي النبيل الذي اتخذه الشاعر الألماني من الإسلام وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في تآليفه وأشعاره ونقده الأدبي .

والملاحظ على الشاعر الأديب أنه لم يوظِّف أحاسيسَه الشعرية لفن إقليمي ، ولا تحيز لتراث وطني أو عقيدة واحدة ، بل كان فنانًا عالميًّا ، فيه التقت صورة الشرق والغرب معًا .

لقد سُجِّلَ عليه في بداية حياته ميلُه إلى قصص التوراة التي كانت أمه كثيرة القراءة لها . فأي شيء يا ترى جعل الصبيَّ ييمِّم وجهه شطر الشرق على النحو الذي سنشاهده فيه مع القرآن الكريم والنبي العربي ؟ !

وباختصار ، فقد كان (سفر أيوب) الذي أثبت المستشرق هيردر نسبته إلى العرب ، وذلك بدليل إيجازه البليغ ، وزخر عمق معانيه ، وأناقة العبارة والخيال الذي يؤلِّف نسيجَ وَحْدِهِ ، إذ لم تتكرر قوالبه ومعانيه في غيره من أسفار العبرانيين ، الأمر الذي قطع بأن صاحبه عربي من مشايخ القبائل المجاورة من (الآدوميين) ، وهو ما ذهب إليه بعض آباء الكنيسة الأولين ، من أن أيوب هو الذي كتب هذا السفر بنفسه ، وبالعربية لغة بلاده ، ثم جاء النبي موسى (فنقله) إلى العبرية .

وفي عام 1772 م ، عكف جوته على تلاوة القرآن في ترجمة ألمانية ثم في ترجمة لاتينية . أما الانطباع الذي سجله جوته بعد قراءاته فهاهو ذا بدون زيادة أو نقصان : « . . إنها قصصٌ رائعة من الديانتين المسيحية والموسوية . . إطناب بلا حدود وتكرار يؤلِّفان هيكل هذا الكتاب المقدس ، الشيء الذي قد يملُّه القاريء لأول وهلة ، لكنه يعود فينجذب إليه ، ثم لا يلبث في النهاية أن ينتزع منه الإعجاب والاحترام » .

وهذا القول يناقض تمامًا ما ذكره عبد الرحمٰن صدقي في مجلة فكر وفن : « . . ولا يرى جوته في هذا الإطناب والتكرار ما يراه النقاد الغربيون من دواعي الملل ، لأن محمدًا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن في القول ، والتنويع في ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوَّقة من الأخيلة والأوهام لاستحداث اللذة ، واستخفاف الظرف على النحو الذي يفعله الشعراء ، بل إن محمدًا ـ بنص القرآن ـ بَعِيدٌ عن هذا الوصف . إنه نبي مرسل لغرض مقدر ومرسوم . وهذا الغرض هو تبليغ الشريعة ، وجمع الأمم حولها لينضموا

تحت لوائها . . » . ولم يشر الكاتب أو المترجم إلى المصدر الذي أخذ منه . وعلى أية حال ، فإن حكمه الأخير (هذا القرآن ينتزع الإعجاب والاحترام في القراءة الأخيرة) يجُبُّ كلَّ ما قبله .

ويتجلى لنا بوضوح تأثر جوته بروح وعبارات القرآن الكريم في ديوانه الذي يطلق عليه اسم : (الديوان الشرقي للمؤلِّف الغربي) . من ذلك المقطوعة التي اخترناها تحت عنوان : (تعويذة) :

لله المشرق والمغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب . هو الحق ، ومشيئته في عباده حق . سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى . وتبارك اسمه الحق . وتعالى علوًّا كبيرًا . آمين !

« يتخطفني وسواس الغواية ، وأنت المعيذُ من شر الوسواس الخناس ، فاهدني اللهم في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم .

فاشكر ربّك إذا ابتليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ومن مظاهر تأثر الشاعر بالقرآن الكريم ، استعارة ألفاظ صريحة من الآيات الكريمة و إدراجها في سياق نصوصه الأدبية : ففي إحدى منظوماته : (التشبيه) لِمَ لا أستعمل ما طاب لي من التشابيه ، والله لا يستحي أن يضرب للحياة مثلاً من البعوضة ؟ وتلك إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** . . . ﴾ .

ولعل ذروة أقواله ، هذا البيت المقتبس من أشعار الحكمة في ديوانه : إذا كان الإسلام معناه التسليم لله ، فإننا ـ أجمعين لا محالة ـ نحيا ونموت مسلمين .

هذا ، وقد ألَّف جوته في شبابه تمثيلية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فصلها الأول تحت عنوان (مناجاة محمد) . وقد صوّر فيها الرسول في إحدى خلواته في الصحراء المترامية الأطراف تحت سماء زاهرة النجوم . واعتمد الشاعر في المناجاة على مضمون آيات من سورة الأنعام لدحض الشرك : (73 ـ 79) .

ثم يدور حوار بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومرضعته حليمة السعدية . والذي يتاح له الاطلاع على هذا الحوار بأكمله وعلى مذكرات جوته ، سيلمس مقدار تغلغل جوته في خصوصيات الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية .

غير أن كلَّ نفحات الإيمان هذه ، لا ينبغي أن تحملنا على الاعتقاد والوهم ، بأن الشاعر جوته ، أو روكرت ، أو هامر بورجشتال ، أو جورج ياكوب قد ارتدوا عن نصرانيتهم وتحولوا إلى الإسلام . ولا ينبغي لهذه المواقف أن تغريَنا بأن الرأي الإيجابي لفائدة ظاهرة أو أكثر من ظواهر الإسلام تكفي لإقرار قاعدة ثابتة دائمة . إن هذا الإعجاب الذي أظهره هؤلاء ، أو الذي يمكن أن يظهره سواهم من نفس المنطلقات والأسباب ، لا يعبر في الحقيقة إلا عن تيار أدبي وتوجه ثقافي ، قد يضر في بعض الأحيان أكثر مما ينفع .

ففي حين يظهر أحد «الرومانتيكيِّين» تعاطفه مع قضية ما ، أو موقف تاريخي معين في تاريخ الإسلام ، ينبغي أن نتوقع بأن نفس الشخص يمكن أن ينقلب على مواقف أخرى من نفس التاريخ ، أو أن يقف نفس الموقف المتعاطف وبنفس القدر والحماس من دين آخر ، أي دين . . ؟

إن الميل هنا ميل حضاري . . ثقافي . . جمالي . . إبداعي . لا علاقة له بمسألة العقيدة وصحة الديانة .

فإذا انتقلنا إلى الحديث عن التاريخ والمنهج التاريخي ، وتساءلنا عن المطلوب من دراسته ، ضربنا صفحاً عن شيء اسمه الإمتاع ، وصرنا نتحدث عن أهمية وخطر هذا العلم ، ورأينا أنفسنا لأول مرة أمام نظرة جديدة تستدعي استبدال العبارة « كان .. يا ما كان » . بعبارة حديثة هي الربط والتعليل والتحليل .

نحن لا نمانع من حيث المبدأ أن يُعاد النظر في وقائع تاريخنا ، وأن يُقرأ مرة ومرتين وثلاثاً ! أما الشيء الذي لا نسلِّم به ـ ونحن نُقرُّ ونعترف بما تحقق على هذا الصعيد من كشوفات أثرية هامة هي ثمرة طبيعية لهذه المناهج ـ فهو أن عقل الرسول صلى الله عليه وسلم وروحه يمكن أن يُنبَشا على النحو الذي نُبشت فيه مقابر الفراعنة ، وأن يُنَقَّبَ في سيرته بنفس الطريقة التي نقبت فيها آثار نينوى ! !

ففي ومضة من ومضات العقل وشطط الفكر ، تحول القاريء التاريخي الغربيُّ إلى أستاذ للتحليل النفساني ، أجلس فيه تاريخ الإسلام على أريكة (فرويد) وراح يتحدث عن محمد الرسول وكأنه (مريض) يتردد على عيادته الخاصة .

أجل ، هذا هو الانطباع الذي يحمله القاريء المتعمِّق في فكر المؤرخين

الغربيين ، وعلى رأسهم (بوهل)[1] (وواط)[2] (وبارت)[3] .

وقبل أن أوافيَ القاريء الفاضل بمقاطع مترجمة من هذه الكتب ، يحلو لي أن أحدد الإطار الداخلي والملامح ، العامة التي تحرك من خلالها هؤلاء المؤرخون .

بحثوا في البيئة والمحيط المجاور عن سائر (العلامات الفارقة) من معتقداتٍ وثنية جاهلية ، مصطلحاتٍ شائعة الاستعمال في البيئة العربية ، ألفاظٍ عامية يهودية ، كلماتٍ دخلت الحياة العربية وأصبحت بمرور الزمن جزءًا من بنية اللغة قبل ظهور الإسلام بكثير ، أي نقاط التقاء بين العقيدتين السماويتين والإسلام . هذه الملامح، بربط تاريخي محكم ، وسرد مُحبّك ومتقن ، أُريدَ لها أن تكون الإرهاصات الأولى ، والبيئة التي ترعرع فيها الرسول (واستنشق) أفكار رسالته التي بلّغها للعالمين .

والمتأمل، يكتشف مدى التقارب بين المنهجين، ومدى استفادة الواحد من الآخر، ويلاحظ أن أصحاب هذه الدراسات يتحركون من أربع قواعد وأسس هي :

ا ـ عدم وجود مصادر تاريخية عربية وسيرة نبوية متفق عليها والاستفادة من الثغرات فيهما.

ب ـ نقد مناهج المسلمين في البحث التاريخي واقتراح بدائل عنها.

جـ ـ الإسقاط التاريخي.

د ـ المنهج العقلاني في البحث العلمي.

إن الساحة التاريخية تشهد في وقتنا الحاضر تحركًا كبيرًا للدعوة إلى إعادة (تخطيط التاريخ) . هذه الدعوات في شكل ندوات وبحوث ، تُعَدُّ في نظرنا إقرارًا بأن التاريخ العربيَّ وقع فريسة لكثير من الدس والمغالطات . ولا أريد أن أتعرض إلى التاريخ السياسي ، وأن أتحدث عن الأمور المعلقة فيه كقصة الخلاف على الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه ، بل أريد البقاء ضمن حلقة الدرس الخاصة بهذه النقطة في الدراسات الإسلامية : ـ

1 ـ فثمت خلافات حول معنى أمية الرسول صلى الله عليه وسلم . هل هي أمية القراءة والكتابة له ولأمته « الأميين » التي بُعث فيها ، أم هل للأميين هنا معنًى آخر كما

---

(1) Paret. Rudi, Mohammad und der Koran.

(2) Watt, Montogomry, M.at, Mecca.

(3) نظر بحث القصص في هذا الكتاب ص: 64.

ذهب بعض المحدثين للقول ، وشدد النكير على كل من يصف الرسول (بالجهل) ، هذا فضلاً عن المدرستين الكبيرتين ، السُّنة والشيعة إذ ذهب المتشيعون للقول بأن : « . . شرف الرسالة يتنافى مع الجهل ويتفق مع العلم . . »[1] .

2 ـ واختلاف حول أول ما نزل به الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم . سورة اقرأ ، أم المزمل ، أم المدثر ؟ فلا يوجد اتفاق بين كتَّاب السيرة حول هذه الأمور الهامة التي لا نعيرها كثيرًا من الاهتمام ، بينما يُقرر المستشرقون أهميتها القصوى في سياق المقابَلَة بين الملامح والصفات المشتركة بين الأنبياء .

3 ـ واختلاف حول اللغة العربية التي لا تؤدِّي معانيَ محددة قاطعة ، في دلالة واحدة كما هو الشأن في اللغات الأُخَرَ ، مما فسح المجال أمام كثير من التكهنات والتأويلات لمعاني القرآن ، و إذ ننقل هذه الأفكار نقلاً أمينًا لا نعني تبنِّيها بالطبع ، و إنما هي ضرورة البحث تقتضي أن نذكر الشيء على علاته أحيانًا .

يمكن القول : إن الأعمال والأفكار الرائدة ، تفرَّد بها المستشرق الألماني رودي باريت . وهذا القول ـ على ما فيه من إشادة ـ لا ينبغي أن يُفهم على أنه تزكيةٌ للطريقة المفيدة في البحث التي اقترحها المستشرق باريت من خلال إبراز أعماله التي نسميها بأسمائها وهي كالآتي :

ا ـ اكتشاف لألفاظ موضوعات القرآن الكريم وترجمته .

DER QORAN, ÜBERSETZUNG (U) KONKORDANS

ب ـ حدود استشكاف القرآن الكريم .

GRENZE DER QORAN FORSCHUNG

جـ ـ حول استكشاف القرآن الكريم .

ZUR QORAN FORSCHUNG.

د ـ القرآن الكريم كمصدر من مصادر التاريخ .

DER QORAN ALS CESCHICHTSQUELLE.

---

(1) انظر بالخصوص ما كتبه المستشرق ت. لوهمان (Th.Lohmann) تحت عنوان: (Sure 96 und die Berufung Muhammed's) الصفحة: 258 وما بعدها.

هـ ـ التصور التاريخي لدى محمد .

DAS GESCHICHTS — BILD MOHAMMED'S

والقرآن كمصدر من مصادر التاريخ.

DER KORAN ALS GESCHICHTSQUELLE.

حاول باريت من خلال هذه الكتب والمقالات تقديم منهج متكامل للبحث ، يؤدِّي في النتيجة إلى الحصول على تصور أفضل لكثير من القضايا التي تعيش بين أخذ ورد ودفع وجذب . ذلك هو ظاهر الغاية ، أما باطنها فهو التحرر بالطبع من مناهج وتصورات المسلمين التي تؤدِّي إلى النتائج والمفاهيم التي عشنا عليها طوال أربعة عشر قرنًا ، وتقديم بدائل منهجية تخدم التصورات الموضوعة مسبقًا ، والتي لا تختلف في كثير عن آراء المتعصبين والمجردين من صفة العلم والمنهجية والعقلانية .

هي ـ إذًا ـ عمليةُ هدم وتشكيك من جهة ، وتقديمُ بديلٍ ظاهرُهُ البحثُ وباطنهُ التخريب .

أما عمله الأول (الكشاف) ، وهو عمل لا اعتراض عليه ، فهو عملية تجميع وتبويب وفهرسة لموضوعات وآيات وألفاظ القرآن الكريم ذات الطبيعة الموضوعية الواحدة . وهو ، كما نرى ، تمهيد للعمل الذي يلي . وكان باريت قبلها قد وضع خطة لترجمة القرآن الكريم ، حدد فيها الأصول التي يجب اتباعها في الترجمة بعدما بيَّن عيوب ومثالب الترجمات الأُخَرَ ، التي كانت تسقط كثيرًا من التفاصيل ، أو أنها تقفز من فوقها وتتغاضى عن ذكرها لمجرد صعوبتها .

إن نزعة البحث التاريخية ـ وهذه حسنة نسجلها لهم ـ تتجلَّى في محاولة الاستفادة من العامل الزمني ، أي تحديد نزول الآيات الزمني (CHRONOLOGIE) ، وذلك بقصد تفسير التشريع في ضوء الوقائع والمعطيات التاريخية التي رافقت الحدث . من ذلك مثلاً تثبيت زمن محدد لزمن نزول الآيات الخاصة بتشريع الزواج بالأرامل والأيتام من نساء وبنات المسلمين بُعيْد معركة أحد ومقتل 67 من رجال المسلمين . . ؟ !

أما الأفكار الأخرى الخاصة بمحاولة تفسير وشرح القرآن الكريم (وما استعصى على الشارحين المسلمين فهمه حسب رأيه ، فنوجزه في الأفكار الرئيسة التالية :

1 ـ إن المشكلة التي تواجه الباحث الغربي ، أنه لا يجري تقويم القرآن لدى

المسلمين على أنه مجموعة من المقولات المنسوبة إلى الرسول ، بل على أنها وحي ثابتة خالدة ، بُلِّغتْ بغير قصد بشري وفقًا للزمان والصياغة العربيين من لدن محمد بالذات إلى قومه . (وهذا شيء طبيعي لأن ابتلاء عود القرآن تَمَّ في تحديه للعرب منذ نزوله وليس لدينا ما نضيف) .

2 ـ وانطلاقًا من المبدإ السابق ، فإن الفارق بين النظرة المقدسة هذه وبين أسلوب النظرة العلمية التاريخية ، أن النظرة المقدسة محدودة ضيقة ، بينما تقوم الأخرى باقتفاء الأثر التاريخي للإسلام وعصر وحياة ناقل هذا الدين ، ومحاكاته ضمن التفسير المقيَّد به .

أما ما أسفر عنه هذا النمط من التفكير في نطاق الدراسات القرآنية فهي على النحو التالي :

1 ـ يمكن اعتبار مضمون النص القرآني في (جملته) صحيحًا ، إلا أنه برغم صحة صيغته الرسمية العامة ، يظل عرضة لكثير من التلاعب ، وأن ما ورد بشأن القراءات غير المعتمدة (الشاذة) لا يمكن فهمه إلا على أنه تأكيد أو نتيجةٌ محتَّمةٌ لهذه الحقيقة ، لذا يمكن التحدث صراحة عن عبث لغوي . . !

2 ـ إن كثرة التفاسير و إطنابها في شرح الواقعة ، يقدم للباحث التاريخي معلومات وافية في اللغة والمعاني ، لكنها ـ على كثرتها ـ تتهرب من المواضع العسيرة في الآيات ، فإذا رغب الباحث في شرحها ، اضطر إلى إعادة النظر فيها .

3 ـ وثمت حالات لا يثب فيها المغزى مواقع المعنى المتغير إلى الذهن في آن واحد ، فضلاً عن توقع زج أحد المعاني دون سبب ظاهر في مواضع لا نحصيها كما كان مقصودًا في الأصل .

4 ـ إن رؤى الشارحين والعلاقاتِ السائدة في أزمته متأخرة ، تُسقَطُ على شخص وعصر محمد انطلاقًا من المبدإ القائل : «إن النبي كان بشخصه وراء سائر الأوامر والنواهي التي كانت سببًا في نهضة المسلمين .

5 ـ إن آراء المفسرين لا تنطبق دومًا ـ أيضًا في سياق النظر إلى تركيب فرادى السور ـ على ما نراه صحيحًا ، وذلك بتعليقهم مضمون النص بوجهات نظر تاريخية ، في سعيهم للتوفيق بين إيحاءات الرسول المتفرقة مع وقائع تاريخية ثابتة .

6 ـ إنهم ـ أصحاب المنهج الجديد في التفسير ـ يقتصرون في محاولات التفسير كلَّ مرّة على مقاطع السورة التي تكوِّنُ وحدة موضوعية فيما بينها ، ويذهبون أبعد من ذلك حين يبحثون ـ وبشكل منتظم ـ في سائر أجزاء القرآن الكريم عن أية مواضع موازية عند محاولة تفسير موضع ما . أما المفسرون المسلمون ـ حسب رأي المستشرق ـ فلا يملكون الروح الناقد ، إنهم ينظرون إلى مقاطع النص (الآيات) كما لو كانت تابعة لبعضها ويحاولون تفسير بعض المواضع العسيرة بنزعها من السياق المستمر . هذا غير صحيح لأن المسلمين فسروا القرآن بالقرآن : (إنَّ ٱلْقُرْءَانَ يُفَسِّرُ بَعْضُه بَعْضًا . . .) .

7 ـ ومما يسترعي النظر ـ حسب اعتقادهم ـ أنه لا يمكن استخلاص شيء يذكر حول مجرى حياة محمد (الظاهرية) في القرآن ، لأنه ـ أي الرسول ـ لم يتعمد وقف الحدث ، بل قد وضع مسبقًا ما حدث وما قد حدث (لم يضع ولكن تلقَّى تلقيًا)[1] .

لقد أسقط الرسول نفسه في حوادث التاريخ الديني إسقاطاً ، والمقصود به هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد اطلاعه على أنباء وأخبار الأولين ، وتمثله لقصصهم وما حلَّ بهم من نعمٍ وما لحق بهم من سخط ونقم ، أعاد على قومه العرب باعتباره (نذيرًا وبشيرًا) لأمته ، ولكل أمة رسول ، خبرَ أولئك الأقوام لكي يصدقوه ويخشوا نذره وينزلوا عند تعاليمه .

سرد الرسول قصص الأولين وأعاد خبر ما حلّ بهم كعاد وثمود ، وروى قصص آدم وحواء ، والخروج من الجنة ، ونوح والطوفان ، إبراهيم وأبنائه إسحٰق وإسماعيل ، يوسف وإخوته ، موسى والهجرة من مصر ، وعيسى وطفولته وملابسات نبوَّته فيما بعد .

ولقد طرح هذا المؤرخ المُنظِّر ومَنْ حدا حدوَه السؤالَ القائل : حيث إن أهل الكتاب على اطلاع مسبق بمضامين هذه القصص وأنها ليست غريبة عنهم ، فهل هي كما جاء ذكرها في القرآن ، تطابق النص الأصلي (التوراة والإنجيل) ، أو أدخلت عليها تعديلات وتهذيبات ، وإطناب وتحوير في المضمون ؟ ! وهل نعثر على ما تقدم ذكره في

---

(1) للمزيد انظر ما كتبه المستشرق باريت في مقالته تحت عنوان: das Geschichtsbild.Mohammeds.S. صفحة: 216 وما بعدها.

المصادر المسيحية واليهودية مفصلاً كما في الشروح اليهودية للتوراة (المدراش) ، أو في النصوص المقدسة الأخرى APOKRYPHEN[2] ؟ ! أو أن الرسول كان ناقص الإلمامة بهذه القصص ، الشيءُ الذي جعل القصص مبتورة ؟ أو أنها ـ الروايات القرآنية ـ وردت هكذا بناءً على استحسانه الشخصي ! !

فإذا تحدثنا عن العقلانية في البحث، ظهر في الصورة المستشرق تيودور نولدكه كأشد ما يكون الظهور . إنه يمثل الاتجاه العقلاني RATIONALISM . إذ اختلف مع آخرين حول مصداقية هذه التسمية . فلا يوجد عكس بمعنى الضد ، بل هناك مناهج أخرى كما ذكرنا تتسم بالميل والعاطفة وحب الجمال في الحضارات والثقافات . لقد كان المستشرق تيودور نولدكه زعيمَ هذه المدرسة باتفاق الذين أرخوا أو اشتغلوا بالاستشراق كافة ولا توجد تطبيقات معينة يمكن أن نطلق عليها هذا الاسم ، كما أنه لا توجد ملامح واضحة كالتي رأينا في منهج الدراسات المقابَلَة COMPERATIVE METHOD ، أو في المنهج التاريخي أو غيره . . فإذا كان الحال كذلك ، فمن أين أتينا بهذه التسمية وكيف وصلنا إليها ؟!

الحقيقة أن المستشرق نولدكه بعد صدور كتابه : « **تاريخ القرآن** » GESHICHTE DES QURANS ، استطاع لمن جاء بعده ، رسم منهج خاص به في أسلوب دراسة القرآن الكريم والدراسات العربية والإسلامية عامة .

ويمكن أن أُشَبِّهَ عمله وأُمثِّله ، بأنه الفنان القادر على رسم شيطان ورحمان بنفس المواد الخام التي تضعها بين يديه . وكما أن الانحراف البسيط في ملامح الأجسام يخرجها عن بغيتها ، كذلك فإن ترتيب واختيار نوع الوقائع يؤدِّي إلى الأغراض المخالفة ، ولقد أجاد هؤلاء فن الاختيار والعرض ووصلوا إلى النتائج المتوخاة بمسخ الصورة وتشويهها وقلب الحقائق وتزييفها ، مع عدم الإخلال بأخلاقية البحث العلمي الذي يعتمد الصدق والأمانة والموضوعية وحسن التوثيق في مصادر البحوث . ومن هنا جاءت هذه التسمية « العقلانية » .

---

(2) وانظر مقالة إدموند بك (Edmund Beck) :Museon
Muhammad's ... die Gestalt des Abraham am Wende Punkt صفحة 2 ، وما بعدها.

لقد بحث هؤلاء المستشرقون ـ هذا الضربُ منهم ـ عن المثالب والسلبيات ، الثغرات والهنات ، وفي كل تاريخ حضارة ودين ، طالما أن الإنسان هو الأداة وحقل التطبيق ، وجهٌ آخر ، لم تصنعه العقيدة ، بل الإنسان نفسه ، يصححه الدين ويُقوِّمه لكنه يُحسَب في النهاية على تراث الأمة وتاريخها ، ولقد أفردنا للمستشرق نولدكه بحثاً خاصّاً به يعكس طريقة بحثه في هذه العلوم . وعلى أية حال فإن (العقلانية) قد تكون الوجه الآخر للاعقلانية اللاهوتية أو للرومانسية . وسواء كان المراد هذا أو ذاك من هذا المصطلح ، فإن بحوث نولدكه الإسلامية لا تشير إلى (العقلانية) ولا إلى العقل .

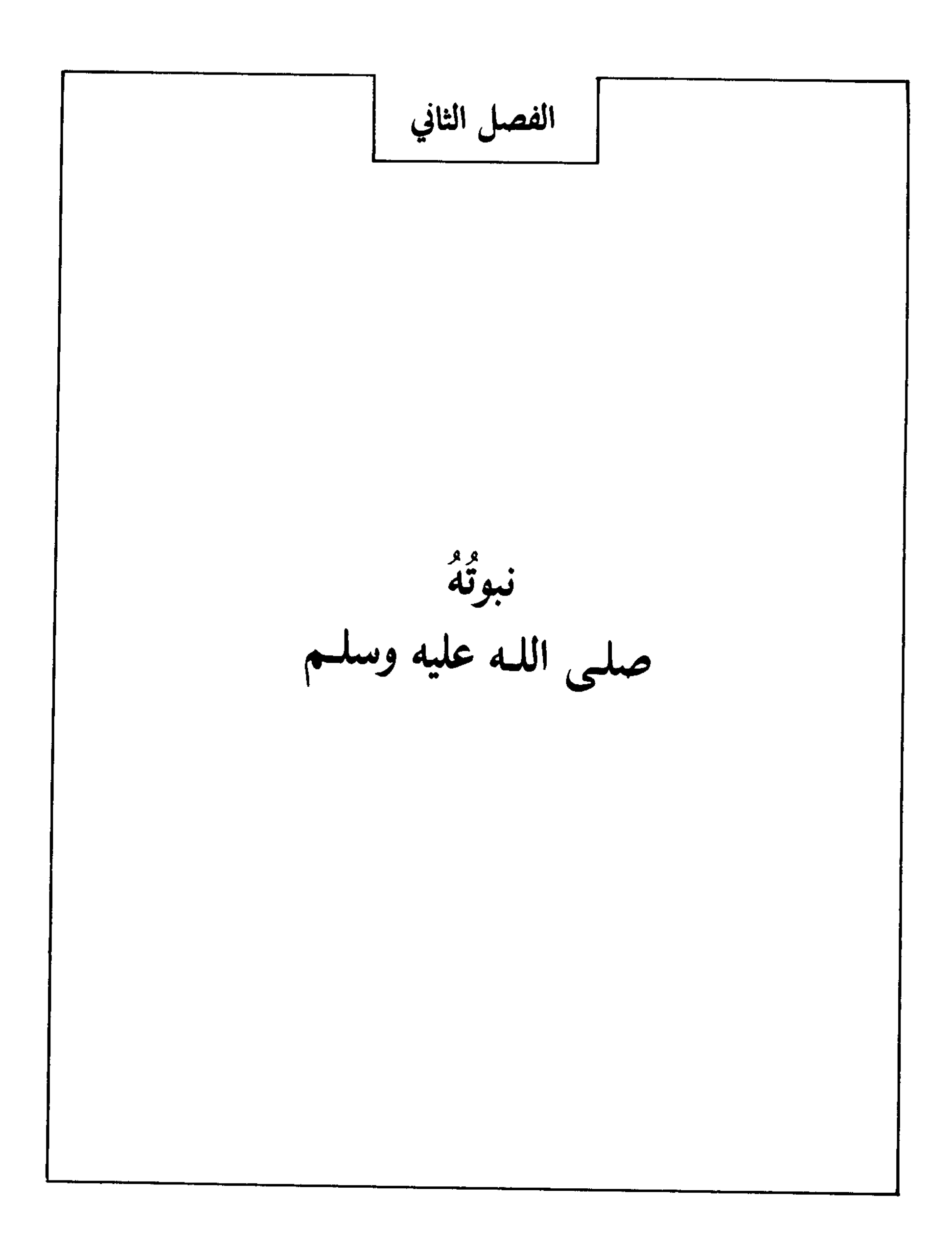
الرواية كما أوردها صاحب الكتاب : عداء تاريخي للعرب والمسلمين متى نفهم ذلك ؟

قيل : دخل عمر رضي الله عنه مدارس اليهود يومًا فسألهم عن جبريل فقالوا : ذلك عدوُّنا يُطْلِعُ محمدًا على أسرارنا وأنه صاحب كل خَسْف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام ، فقال : وما مَنْزِلَتُهُما عند الله تعالى ، قالوا : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة ، فقال : لَئِنْ كان كما تقولون فليسا بعدوَّيْن ولأنتم أكفر من الحميريين ومن كان عدوُّ أحدهما فهو عدو الله تعالى ، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام لقد وافقك ربك يا عمر .

„Man erzählt, Omar sei einst in ein Lehrhaus (בֵּית מִדְרָשׁ) der Juden gegangen, fragte sie über Gabriel, und sie sagten: dieser ist unser Feind, er offenbart dem Mohammed unsre Geheimnisse, auch ist er der Vollstrecker einer jeden Unterdrückung und Bestrafung, Michael hingegen der Bewirker eines jeden Ueberflusses und Heiles. Da sagte er: und wie ist ihre Stellung gegen Gott?, und sie antworteten: Gabriel zu seiner Rechten, Michael zu seiner Linken, zwischen beiden aber ist Feindschaft. Er aber sprach: Bewahre, dass es so sei wie ihr sprechet, sie sind keine Feinde, ihr aber seid ungläubiger als die Himjariten*); wer Einem von beiden feind ist, der ist der Feind Gottes. Darauf entfernte sich Omar und fand, dass Gabriel ihm durch eine Offenbarung zuvorgekommen sei, und Mohammed sagte zu ihm: schon hat mit Dir eingestimmt Dein Herr, o Omar!" — Wenn nun auch Einzelnes hier angeführt ist, was als wahre Meinung der Juden vorkömmt, so z. B. dass Gabriel der Vollstrecker der Strafen sei, vgl. R. Salomo Ben Adereth zum Traktate Baba Bathra 74,2: חֲכָמַי

---

*) Dies sind die Worte, auf die wir S. 8 aufmerksam machten.



الفصل الثاني

نبوتُهُ
صلى الله عليه وسلم

لـم تستأثر شخصية في الشرق أو في الغرب باهتمام المفكرين والباحثين على اختلاف أجناسهم وتوجهاتهم كما استأثرت بها شخصية الرسول العربي صلى الله عليه وسلم . ومن الصعب التنبؤ بحجم ما كتب وقيل في شأن رسالة الرسول ، فقد اجتذبت دعوته العقل منذ ظهوره ، وامتلكت ناصية القلم بعد وفاته ، وستظل الشغل الشاغل لكلِّ طالب حقيقة حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

وحين نبحث عن السبب ، ونتقصي حوافز الاهتمام ، نوشك أن لا نُجْمِعَ على رأي ولا نستقر على جواب ، لا لأن النبي في تعدُّد مناقبه ، وشمولية دعوته التي جمعت - كما لم يجمع دين قبلها بين الدين والدنيا والآخرة والأولى - شكل ظاهرة استعصى على بعض الناس فهمها ، وكان الرأي السائد دوماً أن الأنبياء من مصدر واحد ، تجمع بينهم صفات مشتركة وملامح خاصة ، هي المقياس المعتمد والمعيار الثابت للحكم لنبي أو عليه ولإثبات نبوته أو نفيها . !

إننا لا نسعى من وراء هذا الكلام إلى تقديم انطباع بوجود مثقال ذرة من شك ، فالنبوة بالنسبة لنا مسلَّمة غير قابلة للنقاش والنظر ، وكل ما أردنا قوله وتصحيحه ، هو بعض المفاهيم الخاطئة من خلال الرأي وضده ، وتشخيص جانب من أزمة ساهمنا فيها بقدر وفير حين قدمنا للعالم مادة مشوشة وروايات مختلفة حول السيرة النبوية . إن الحاضر مرآة الماضي ولا بد لنا من عودة إلى ذلك الماضي لعلنا نجد عنده الإجابة لأسئلة معاصرة كثيرة .

يمكن القول : إن الإطار الفعلي الذي وُضِعَتْ فيه صورة الإسلام على مدى قرون طويلة ، كان سلسلة من الافتراءات والتهم التي تناولت شخص الرسول أولاً والرسالة التي بعث بها ثانياً . ولقد أجمل مؤلِّف كتاب الإسلام والغرب[1] خطة الأيديولوجيين المسيحيين لخلخلة جذور الإسلام في عبارة وردت في باب النبوة المزيفة Pseudo — prophecy : « لقد بدا لأولئك الأكثر اهتماماً أن الهجوم المسيحي يجب أن يُوجَّه بمجمله إلى تعرية الرسول ، فإذا أمكن إظهاره على حقيقته ، أي تجريده من صفات النبوة ، فإن ذلك سيؤدي إلى انهيار صرح الإسلام كله .

---

(1) Normann, Daniell, Islam and the West P. 47

ولقد تبارى الكتّاب والمنظِّرون المسيحيون ، أيهم يكيل أكبر قدر من السباب لشخص الرسول ﷺ ، وبلغ الحقد ذروته على يد بطرس المبجل من بواتييه وبيدرو . إننا لا نشعر بأية متعة ونحن نردد هذه الأراجيف . وما نقوله على مضض إنما هو لتغطية مرحلة هامة من تاريخ أوروبي حافل بكلِّ أنواع الكيد للإسلام . وما دمنا بصدد الحديث عن ذلك المبجل (Peterveneralbes) « وهو شخصية سبق الحديث عنها » فلنذكر له هذه العبارة التي أطلقها قبل سبعة قرون تقريباً ومازالت تؤلِّف لدى الكثيرين منهم دليلاً دينيّاً : « إن أوضح منهج لصدق النبوة ، هو النهج الذي يتضمن رفض دعوة محمد[1] ولقد أردف ذلك بتحذير جاء فيه : « النبي لا يقول إلا الصدق لأن الرب صادق لا يصدر عنه كذب . والثاني الإحسان والعفة ، والثالث المقدرة على صنع المعجزات . والرابع شريعته التي أتى بها أن تكون مقدسة وخيِّرة ، تقود الأمم إلى عبادة إلَه واحد ، والبشر إلى طهر الحياة والوئام والسلام . وكل مَنْ أظهر نقيض ذلك لا بد من أن يكون نبيًّا مزيفاً »[2] واختلفت الصورة على يد المستشرق ڤوك بعد دخول بعض العناصر الإيجابية : « . . يعتبر محمد حتى عصرنا هذا في عداد الشخصيات التاريخية العالمية التي لا يُختلَف في شأنها . فقد تفاوت الحكم عليه إبان حياته كرسول مرَّة ، ومريض يبعث على السخرية تارة ، وارتفعت صورته بعد وفاته في نظر قومه إلى مرتبة فوق بشرية ، بينما طلاها هجوم الخصوم بأشد الألوان حلكة ، لكنه منذ أن لقي تقديراً منعنعاً من جانب المراقبين الدينيين المتحررين ، تفاوت حكمهم عليه وتراوح بين النظر إليه كحكيم فذ . . إلى مصروع يستدرُّ الشفقة . . إلى . . »[3] ، وكان لا بد من أن يمضيَ زمن على هذه الملامح قبل أن تأخذ في الزوال والاضمحلال لتحلَّ محلَّها أفكار وانطباعات جديدة بعد أن أخذ الحق يجد طريقه إلى عقول المتبصرين والراغبين في رؤية الحقيقة : « . . لو كان محمد يعاني منذ طفولته من مرض عضال حقّاً ، لما تخلَّى عن هذه الذريعة أبداً . بل من غير المعقول أن ينجز رجل مريض ما أنجزه محمد . ولا سبيل إلى إنكار عدد من الحقائق ، فقد كان تاجراً موهوباً هادىء الطبع ، وأن قراراته عادة ما كانت تصدر عن غريزة سياسية ذكية متبصرة ، وأنه

(1 و2) المصدر السابق صفحة 48.

(3) Originalitoet S. 34

كان دليلاً نشطاً للقوافل ، وقائداً بعيد النظر للدولة ولمجتمع دينيٍّ نامٍ على حدٍّ سواء ، وهذه كلها تظهر بما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان سليماً ومعافًى . وقليلاً ما تحدث الكتّاب والمعلِّقون في الحقل الديني منذ زمن غير قريب عن شذوذ وشطط . وتضافر الجميع يداً بيد يجمع بينهم الطموح لإسقاط خصم حيثما وجد من يحمل قيمة ، وكانت كلُّ وسيلة لبلوغ ذلك الهدف مشروعة . ولم يجر تقويم شخصية على النحو السيِّيء الذي قُوِّمت به شخصية محمد خاصة من قِبَلِ الكتّاب الغربيين ، الذين كانوا مهيَّئين لتصديق أي شيء رديء ضده . وحين كانت تخفف تهمة إلصاق صفة الدجل به ، سعوا إلى محاولة وصمه بالمرض والجنون لنفي صفة النبوة عنه . غير أن كلَّ الأطروحات الدراسية التي قالت بتعرض الرسول إلى نوبات صرع منذ طفولته المبكرة ، وبميل هستيري إلى الكذب والغش ، ووقوعه تحت تأثير نوبات الحمى العصبية ، وأنه كان ضحية الأشباح والأرواح ، فكان يعاني من ارتعاش جسماني وخلل عقلاني كانا هما السبب في تهيؤاته البصرية ورؤاه ، ومن الخوف العصابي ، وانفصام الشخصية ، وتشنجات كتشنجات الكهان ليوهم مَنْ حوله بطبيعته فوق البشرية ، كذلك تلقيه الوحي من إنسان في مستهل دعوته ، كلُّ هذه الدعاوى قد سقطت وثبت عدم صحتها ، بل العكس هو الذي حدث ، فالذين قالوا بهذا الكلام لم يحلوا المشكلة بقدر ما زادوها تعقيداً ، ويجب أن يساورنا الشك مستقبلاً في إمكانية إثبات أي ظاهرة خلل في سلوك محمد[1] .

ويصرِّون على عدم الاعتراف لمحمد بالنبوة ، ولكن لا يستطيعون تجاهل القوة الروحية الهائلة التي كان يتمتع بها لما رأوا من أعماله وأفعاله وأقواله : (. . إن من غير المفيد فهم محمد خارج إطار زمانه وبيئته . ولقد كان أنصاره الذين رافقوا وحيه ، ينظرون بإيمان إليه ، وهو ما بدا في نظرنا شيئاً غير عادي . إن بعض وسائل التنويم الذاتية ، والتأملات ، وممارسات الغيبوبة ، كانت معروفة لدى متصوفة الشعوب المتقدمة حضاريّاً ضمن شبه الجزيرة العربية وحولها ولربما حوّلها محمد من صيغتها الخام إلى عقيدة مطلقة صالحة ، وربما تحقق له بلوغ القرب الإلَٰهي جرَّاء إيمانه بإمكان بلوغه بالصبر والمثابرة وبعض رياضات العبادة . .)[2] .

---

(1) Lohmann, Th. Wann wurde Muhammad zum propheten Allahs geworden, S. 463

(2) المصدر السابق نفسه.

ومن مظاهر هذا التحول في الموقف الديني ما ذكرته المستشرقة شيمل (Schimmel) ، وقد جمعت في عبارة واحدة بين النقيضين ، الصورة الكئيبة السابقة والحقيقة الجديدة : « . . . لقد أثار محمد من الخوف والكره وحتى الازدراء في عالم الغرب أكثر مما أثارته أي شخصية تاريخية أخرى . فإذا كان دانتي في كوميديته الإلَهية في أسفل سافلين ، فإنما كان يعبر بذلك عن أعمق المشاعر لدى مسيحيي القرون الوسطى الذين لم يكونوا يدركون بعد ، أن ديناً جديداً إيجابيّاً ناجحاً وُجد إلى جانب المسيحية ، يؤلِّف معتنقوه جزءاً هامّاً من حوض المتوسط الذي كان خاضعاً للهيمنة المسيحية »[1] .

والآراء السابقة تمثل مرحلة زمنية غلبت عليها سلطة اللاهوت وطابعه ، لا بالنسبة لشخص الرسول فحسب ، بل لكلِّ ما جاء به الإسلام من تعاليم . وقولنا هذا لا ينفي وجود استثناءات هامة على صعيد الفكر ، كانت تظهر تمرداً على القاعدة وخروجاً جريئاً على الرأي العام ، وتضيء بآرائها المتلألئة حلكة الفكر الأوروبي في أشد الليالي قتامة .

ولعل عبارة المستشرق نورمان تمثل نقطة الوسط والاعتدال من بين مجموعة الآراء التي تحدثتْ عن الرسول[2] صلى الله عليه وسلم : « ليس للقرآن نظير في غير الدين الإسلامي . ولقد رأى فيه المسيحيون في بعض الأحيان نظيراً للكتاب المقدس . وجهلوا دائماً أن القرآن إنما يعبر عن ذاته وكما جاء في أصله السماوي ، بحيث إنه لا يشبه وبحق أيَّ شيء كان معروفاً لدى النصرانية . ومنزلة القرآن من الإسلام قريبة الشبه جدّاً من منزلة المسيح في المسيحية : كلمة الله ، أي التعبير الشامل عن الوحي . والكتاب المقدس بالنسبة لأنصار الإنجيل ، سواء كانوا من أتباع المذهب البروتستانتي أو الكاثوليكي ، إنما يستمد أهميته من المسيح ، في حين أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم ، يستمد تلك الأهمية من القرآن . وفي إخفاقهم إدراك تلك الحقيقة ، فقد قابل اللاتين وبإصرار شخصَ المسيح بمحمد ، وليس ما يبيِّن بشكل أوضح المسافة الفاصلة بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي ، وكلُّ ما وقر في الأذهان هو ضرورة التصدي لمنزلة القرآن السامية ،

---

(1) Schimmel, Annemarie, und Mohammad ist sein Prophet, S. Einleitung.

(2) Schimmel, Mohammad das schoene Bild S.21.

حتى و إن لم يكن واضحاً تماماً مقدار المكانة التي تقلدتها سلطة القرآن »[1] .

ومنذ ظهور منهج الدراسات المقارنة واعتماده منهجاً معترفاً به وله في الجامعات الأوروبية ، اختلف أسلوب التعامل مع الإسلام ورسوله معاً ، وغدا بالإمكان رفض أي رأي لا يلتزم بخط فكري معين . ومنذ ذلك الوقت أيضاً بدأ التفكير في طعن الإسلام ولكن بأسلوب رصين مهذب ، ظاهره العلم والمنهجية وباطنه الدس والهدم . لقد حاول الدارسون الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين الأنبياء والرسل منذ عهد إبراهيم عليه السلام ، بقصد حشر نبوة محمد ﷺ في مربع ضيق ، والقول بمخالفة النبوة الإسلامية لنبوات السابقين ، فماذا تقول تلك الدراسات؟

إن التوراة لم تشر إلى التكليف والوحي وكلّ ما جاء : « وتكلم الرب إلى إبراهيم : اترك أرضك وأهلك وبيت أبيك وارحل إلى الأرض التي سأريك ، لأنني سأجعل منك شعباً كبيراً ، وأجعل من اسمك شيئاً عظيماً ولتكون مباركاً : موسى 12 ، (3 ـ 1) ولقد قدَّم القرآن عرضاً مشابهاً للشروح اليهودية Midrasch ـ والحديث له ـ ذكرت بالاسم لا باللفظ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * ﴾ « سورة الأنعام : الآيات من 75 إلى 79 » .

والملاحظة الأولى التي سجلها الكاتب هي أن هداية إبراهيم والأنبياء الآخرين المشار إليهم في القرآن الكريم لا تتفق مع ما ذكرته السيرة عن حالة (اللاوعي) التي كان يتعرض لها محمد . ![2] .

وبخصوص موسى عليه السلام فقد جاء : « . . . وبينما كان يرعى الأغنام في الفيافي البعيدة ذات مرة ، قادته قدماه إلى جبل الرب ، جبل الطور . وهناك تبدَّى له

---

(1) Normann, Daniell, Islam P.33.

(2) Erwin, Craef, Muhammads Berufung Bustan. S. 20 — 28.

ملاك الرب كشعلة نـار خرجت مـن شعاب شجرة شوك . وحيـن نظر إليها رأى الشجرة والنـار تشتعل فيـها دون أن تمسَّها بسوء . هنـا حدَّثَ موسى نفسه : سأذهب إلى هنـاك لأنظر في ذاك الأمر العجيب ، كيف لا يشتعل الشوك؟! وحيـن رأى الرب مقدمه نـاداه مـن بيـن الشعاب : يا موسى! يا موسى! ورد بقولـه : هـا أنـا ذا . فقال الرب لا تقترب . اخلع نعليك لأن الأرض التي تقف عليها أرض مقدسة وقال : أنـا رب أبيك ، رب إبراهيم و إسحَق ويعقوب . وغطى موسى وجهه خشيـة أن يرى اللـه جهرة (هنـا كلَّفه ربُّه بإخراج بني إسرائيل مـن مصر »[1] موسى (3) 2 .

والقصة التي ذكرهـا القرآن قريبة الشبه جدّاً مـن الواقعة الـمذكورة . قال تعالـى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ * ﴾ « سورة طه : الآيات مـن 9 إلى 16 » .

والـملاحظة الثانيـة للكاتب هنا ، هي الإفادة في تحديد طبيعة الشيء الذي تجلَّى لـمحمد في غار حراء؛ أهو الرب أم الـملاك ، واستبدال رسالة موسى برسالة محمد [2] .

ـ ومـن إنجيل متى تعميد الـمسيح : « . . . فلـمـا اعتمد يسوع صعد للوقت مـن الـمـاء . و إذا السمـاوات قد انفتحت لـه فرأى روح اللـه نـازلاً مثل حمـامة وآتياً عليه وصوت مـن السمـاء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » (3/16) ومـن الحوادث التي سبق وصفهـا يستفاد أن الـوحي يُرَى ويُسْمَعُ وقد يسمع فقط وقد يُرَى ولا يُسْمَع .

ـ وأمـا عن نبوة محمد ، فقد استند في معلومـاته إلى مصدريـن : القرآن الكريم والسيرة النبويـة . وبمقابلة النصوص والآيات الكريمة الـمتعلقة بحادثة الوحي مع قصص التوراة والإنجيل ومـا في حكمهـمـا استخلص أن الآيات الكريمة لا تقدم شيئاً غير عادي أو شيئاً خارقاً

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) Bustan, S. 20 — 28.

حسب تعبيره . ولقد استبعد الرواية الخاصة بورقة بن نوفل وذلك لأسباب (نفسية) تتلخص في أن الموحى إليه لا يطلب الرأي من رجل على غير دينه وفي مسألة خطيرة هي من صلب عقيدته . واحتج بأنه لو كان لورقة مثل هذا النفوذ على النبي لوجب عليه - النبي - أن ينخرط في دين النصرانية مثلهم . ولا يكتفي الكاتب بهذا القدر بل يتساءل في دهشة : كيف يسمح لتلك الأسطورة أن تُختَلَقَ وفيها غضٌّ من مكانة الرسول . ولم يستبعد أن يكون الرسول هو الذي (ابتدعها) كوسيلة (تبشيرية) لدينه الجديد [1] .

- وعن المعراج قدم هذه الصورة : (. . تعرفتُ في شخص يسوع إلى إنسان عرج به قبل 14 سنة حتى السماء الثالثة . إن صعد بجسده وروحه لا أعلم ، الله أعلم . وأعرف أنه سيق إلى الجنة فسمع كلمات يستحيل وصفها ولا يسمح لبشر بالنطق بها . إن كان دخل الجنة بجسده وروحه لا أعلم ، الله أعلم . !

- وعن المشاهدة في العهد القديم نقرأ عن (Isaya) ، أحد أنبياء الله الأربعة إلى بني إسرائيل « . . . وبينما كان يتحدث من خلال الروح القدس ، وكان الجميع منصتين ، توقف عن الكلام فجأة ونُزِعَ وعيه منه فلم يعد يرى أحداً من الرجال الذين كانوا يقفون أمامه . فكانت عيناه مفتوحتين وفمه أَخْرسَ . ونُزِعَ الشعور من جسده لكن نفسه كانت لا تزال فيه لأنه رأى وجهاً » .

- وتحدثنا سورة الإسراء أيضاً عن مشهد من مشاهد الوحي : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا** * ﴾ « سورة الإسراء : الآية 60 » .

- وعن شجرة السدرة هذه نقرأ هذه المقتطفات المأخوذة من ملاحم أفرام الآشوري أو ما يسمى بالتراتيل الفردوسية حول رحلة في الجنة :

« بأم عينيّ رأيت الجنة . .

وفي ذلك الكتاب وجدت المدخل والمعبر إلى ذلك الفردوس .

ودخلت . .

ظلت العين خارجاً ودلفت الروح . . ورحت أطوف

---

(1) المصدر السابق نفسه.

بلا كتاب

وهناك رأيت أشجار الحق » .

ويستطرد في تلك التراتيل قائلاً :

الجنة مقسمة إلى درجات : السفلى للأدنين ، وجنباتها للمتوسطين ، وذروتها للعليين . بلى ، ربما كانت الشجرة الممجدة ، شجرة الحياة التي من ضيائها شمس الجنة .

أوراقها ملساء. وعلى صفحاتها تنعكس جمالات الأرواح، في الروضة تنحني كما لو كانت تريد الصلاة.. وفي الوسط غرس شجرة وملأها بالخشية وأحاطها بالخوف. وفيها سمع آدم مرتين: لا تأكلا من هذه الشجرة إنها مجتنبة.. !

ـ وثمة إشارة إلى إخفاء شجرة السدرة: «... والملائكة Seraphyme »، تسعى إلى إخفاء ضياء الأشجار وأغصانها بأجنحتها كي لا يشاهد سيدها .

ولعل هذه التورية أو (التغشية) هي التي أرادها القرآن : ﴿ **وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ** * ﴾ « سورة النجم : الآيات من 13 ـ إلى 18 » يمكن أن نجمل الأفكار العامة في هذه الدراسة في الآتي :

1 ـ إن السيرة النبوية ، بالرجوع إليها ، حرصت على تصوير الرسول وهو في حالة غيبوبة ، Extase[1] ، عند تلقي الوحي ، الشيء الذي يتعارض مع قول الله تعالى : ﴿ **فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** * ﴾ « سورة طه : الآية 114 » .

2 ـ ليس في القرآن الكريم إشارة واضحة ولا دليل ثابت لأول واقعة وحي ، وإن التأكيد جاء من غير القرآن[2] .

---

(1) الكلمة (Extase)، قد تعني النشوة أيضاً، وهي حالة من الغيبوبة المؤقتة، ولا نذكر أن أي مصدر من مصادر السيرة ذكر ما يشبه هذا الشيء، وهذا يتعارض تعارضاً تامّاً مع ما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قوة الذاكرة.

(2) هناك ترجيح يعتمد على أصول علمية، وأن لفظ اقرأ كان أول ما نزل به الوحي، وكون هذا المعنى لا يروق لهم، أو أنهم ـ المستشرقين ـ لا يرون فيه جوًّا مناسباً للنبوة فهذا رأيهم.

3 ـ يستفاد من الروايات التي وافتنا بها التوراة ووافانا بها الإنجيل حول تطابق وانسجام وحي الأنبياء ، أن الوحي حادث هام لا يُنسى ولا يكتم ولا يجوز أن يهمل بصورة من الصور . والوقائع المشار إليها لا تتمشى مع الحقائق التالية :

(ا) إن سورة اقرأ لا يصح اعتمادها (منطلقاً نفسيّاً للنبوة) . وإن الرؤيا الثانية حدثت بعد الوحي بوقت طويل ، أي بعد الصدام بأهل مكة فقط بل هي سلاح في النزاعات إذا تساءل :

(ب) إن لفظ (اقرأ والقرآن) ، سبقت إليها اللغات والديانات الأقدم ، سماوية كانت أو غير سماوية ، وأنها تنحدر من أصول آرامية وعبرية . أما المرادف في العبرية فهو كلمة qri a , أو Miqr¯a وفي الآرامية المسيحية الشرقية qerjańa ، وإن اللغويين رأوا في وزن (فُعلان) (قرآن) تعبيراً منتحلاً لا أصيلاً . والمعنى الذي يؤديه اللفظ الذي يرجع تاريخه إلى 722 سنة قبل المسيح هو (انقل أو بلِّغ) لا كما جاء في السيرة اقرأ بمعنى (أُتلُ) . أما الغاية التي كان الرسول يرمي إليها ، فهي القول بأن الكتاب ليس من بنات أفكاره و إنه ناقل فقط[1] .

ولكي نوفي الدرس حقه ، فلن نقف الآن لمناقشة هذه الأفكار وتقليبها على وجوهها المختلفة ، بل سنمضي قدماً في تسليط مزيد من الضوء ورفدها بوجهات نظر أخرى مشابهة ، مستقاةٍ من مصادر نهلت من مشرب واحد .

لقد أنحى أحد الدارسين الأجانب باللائمة على الشارحين المسلمين لأنهم لم يرجعوا إلى كتاب الله جيداً قبل البحث عن تفسير لظاهرة الوحي في سورتي النجم واقرأ . وقد استدل الباحث بالقول المنقول عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : « **كان قلب النبي يرى وعينه نائمة** »[2] . ومثل هذا القول يشترط حسب رأيه النوم المسبق ، بينما الآية الكريمة التي تلي 53/17 تقول : ﴿ **مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ﴾ . . ! !

---

(1) لقد أقحم اللفظ (بلغ) إقحاماً في النصِّ ، والفعل (بلِّغ) (Rezitieren) أو (Rezitato) المأخوذ من اللاتينية لا يؤدي نفس الدلالة التي يؤديها الفعل (Read) (اقرأ). ولم يقل أحد من كتاب السيرة : إن اقرأ أريد به (اتلُ) .

(2) جاء قول أنس رضي الله تعالى عنه في سياق الحديث عن تفسير سورة النجم واختلاف المفسرين حول طبيعة الرؤية في الآية الكريمة ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ قلبية أو بصرية ؟

يضاف إلى ذلك عدم الاتفاق حول السورة التي سبقت في النزول .

ـ وتحدث المستشرقان ، الألماني رودي باريت ، والانكليزي مونتجمري واط عن شيء غير معتاد في النبوات ، قدمته سورتا النجم والتكوير . فبينما يسلِّمان بوجود مشاهدات ينفيان أن تكون لهاتين السورتين أي صلة بتلك المشاهدة . لقد اعتبرا ذلك النوع من المشاهدة وليد توتر وتفكير دائم مسبقين . إنها ليست هدفاً ، وليست حديثاً موجهاً إليه ﷺ . لقد تحدث واط عما يسمى (Interior Locution) وبعبارة أدق ، تحدث عن (نطق ذهني Intellectual Locution) . لقد استقبل النبي خبراً بدون كلمات ، بصورة داخلية خالصة ، روحية ، وبالفهم . والمقولة هنا محاطة بالكتمان المبهم الغامض الذي تكتنفه الأسرار ، ولاذ محمد إزاءه بالصمت . إن القاريء الكريم مطالب بأن يفكر معي ، فكلانا معنيان بهذا الأمر . إنه بقوله هذا لم يخالف القرآن الكريم ولا السُّنَّة من حيث الظاهر ، وهو يريد الوصول إلى شيء فهل عرفت ذلك الشيء ؟ !

ـ وطالما أن الأمر يتعلق (بالوحي) (Inspiration) ، فقد رجع المستشرق لوهمان إلى أصل الكلمات ودلالاتها وتطبيقاتها في القرآن الكريم ، وتوصل في النهاية إلى أنها الإلهام والوسوسة ، وبها لا يخاطب الإنس وحدهم ولا هذا العالم بمفرده ، و إنما العالم الأكبر والأصغر والجن والإنس معاً والملائكة والشياطين وأصدقاءهم الكفار (الآية 121 سورة 6)[1] .

ـ وانتقل لوهمان إلى سيرة الرسول السابقة إلى التحنث . لم يجد فيه سلوكاً متفرِّداً خاصّاً ، لأنه بنى على رأي ابن هشام من أن التحنث عادة قرشية ، وأن (حابل) بطريرك إيبلا كان يتحنث في غار ويترك مواشيه ليفكر في زوال العالم ، كما أن يوحنا المعمدان وبوذا وبولس الرسول وكثيرين غيرهم كانوا يعتكفون زهداً . وفي هذه أيضاً أدعوك إلى

---

(1) ميز اللغويون تمييزاً جيداً بين المراد من لفظ الوحي هنا، ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن فعل (أوحى) استعمل في أكثر من مناسبة لتأدية معنى مختلف عن الآخر في كلٍّ مرة سواء في وسائله أو قصده، بين حيوان أو إنسان، وبين شاعر أو نبي، كما أن الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * ﴾ «سورة الشورى : الآية 51» ، عيَّنَتْ بما لا يقبل التأويل طبيعة التلقي المحمدي، وحددت وجوه الوحي المحتملة.

التفكير معي فيما يريد قوله والوصول إليه ونحن نتحدث عن ظاهرة النبوءات بتطبيقات تاريخية مجربة مدروسة حسب رأيهم . إن التحنث الذي دافعنا عنه ورأينا فيه ميزة تتحدث إلى جانب النبوة رأى فيه نوعاً من الإعداد النفسي والذهني ظل ينخر في نفسه (ﷺ) حتى ظهر ذلك الوحي ، ولكن ليس فجأة الذي عودنا أن ينزل على الرسل والأنبياء الآخرين دون سابق إعداد فهل ترى ؟ ! !

ـ « وبكلمة جامعة يمكننا القول : إن محمداً ﷺ في هذا الوقت من حياته التي تميزت بالميل إلى الوحدة ، كان شخصية طلائعية حساسة . وهنا حدث بعدئذ ، وبعد تمارين روحية طويلة وشاقة ، أن جاءه الوميض المتقد ، فاكتشف أنه رسول وبذلك قطف أولى ثمار تدريباته الرهبانية » .

وبعد هذا الشرح ، لا أعتقد أن الفكرة في حاجة إلى مزيد من الإيضاح .

ـ وثَمَّةَ فكرة أخرى هامة لا أريد أن أبرح هذا الموضوع قبل أن أشير إليها . إن رد رسول الله ﷺ على نداء جبريل عليه السلام (اقرأ) ، كان واحداً من ثلاث حسب اختلاف الروايات : ماذا أقرأ ؟ ما أنا بقارىء ! واحتمال ثالث هو (لن أقرأ) وهو الذي تبناه المستشرقون وأيدوه ورأوا فيه صيغة رفض صحيحة لها مثيلاتها ومرادفاتها في النبوات السابقة : أليس ذلك عجيباً ؟ ! والأعجب من هذا العجب ، تعجُّبهم من السيرة التي لم تشر إلى الوسط ولا إلى طبيعة المناسبة التي سيقرأ محمد فيها ! !

ـ وماذا أيضاً عن الفترة أو انقطاع الوحي التي دامت زهاء ثلاث سنين ، ونزلت بعدها سورة (الضحى) بعد انتظار طويل[1] ؟ في هذه المناسبة يقول منتجمري واط : « لقد تخلى محمد ثلاث سنوات بطولها عن دعوته إلى أصحابه سرّاً . وبعد انقضائها عاد إلى دعوته العلنية . ومن حقنا أن نفترض بأنه كسب خلال هذه الفترة بعض الأنصار، الذين اقتنعوا بصحة وأصالة دعوته . إذاً يجب علينا أن نفرق بين مرحلتين من مراحل الرسالة ونشاطها ، مرحلة خاصة ومرحلة معلنة . إن الفترة لا تزيد عن كونها تكريساً للزمن ،

---

(1) من الناس من يظن أن سورة الضحى هي التي نزلت بعد فترة الوحي وهو خطأ ظاهر، فالصحيحان ذكرا أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً لتهجده، فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت الضحى.

للاستعداد في سباق محمد كرسول . فمحمد لم يصبح عالمياً رسولاً بضربة واحدة كما هو الشأن في المسيح ، بل بدأ بعشيرته الأقربين ؟ ؟ ! ! سخرية في قالب الجدّ .

إن الدراسة السابقة كما رأينا من الأمثلة المضروبة تقوم على المقابلة لاستخلاص الفوارق . وهي امتداد لأول محاولة في هذا الاتجاه ظهرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، للمستشرق الألماني اليهودي إبراهام جايجر كما قدمنا . ولقد تحدث جايجر في مقدمة كتابه عن الشروط والضوابط التي يجب اتباعها للجزم بعملية الأخذ والاقتباس .

وفي عام 1843 م ظهر كتاب جوستاف ڤايل « محمد الرسول ، حياته وتعاليمه » . وخلال الأعوام 1858 وحتى 60 ، قدم فرديناند فوستنفلد سيرة ابن هشام في نصها الأصلي . وقبل قرن وربع القرن من الآن ظهر كتاب تيودور نولدكه « تاريخ القرآن » وبعد عام من ذلك التاريخ ظهرت الترجمة الألمانية لسيرة ابن هشام . ولم يقف من تلا هؤلاء متفرجاً ، بل ساهم بنصيبه ولكن في نفس المنحى والاتجاه . وكان من أبرز هؤلاء الفرنسي ليون كاتان(*) ، والهولندي سنوك هورجرونيه ، والمجري جوزيف هوروفتز ، والألمانيان فرانتس بوهل(**) وتور آندريه(***) ، والانكليزيان ريتشارد بل(****) وزميله مونتجمري واط . وسائر هؤلاء الأعلام كان لهم نصيب في رسم صورة النبي العربي وما أنزل عليه والبيئة التي عاش فيها . ولعل أهم هذه الكتب وأكثرها استرعاءً للنظر كتاب هيرمان شتيجلر(*****) (عقائد الإسلام) الذي حاول تصدير القضية على النحو التالي : « كيف ينظر المسلم بعين اليقين ، وكيف يجري تصنيف سائر الأسئلة التي يوجهها غير المسلمين من هذا المنطلق حول تطور البنية التاريخية الإسلامية » .

قلنا إذاً، إنه المنهج التاريخي إلى جانب منهج الدراسات المقارنة ، معاً وجنباً إلى جنب ، تحركا سويّةً كمنهجين « علميين » يحظيان بقدر وافٍ من الاهتمام ، في رسم ملامح الصورة . ومن التاريخ وقع الاختيار على مصطلح جديد هو (الإسقاط) . (Projizieren)[1] . والإسقاط هو تصور الذات في الحدث أو الواقعة التاريخية . قالوا : إن

(*) Catoun, Leone, Ammali dell blam I.Mailand 1905.
(**) Buehl, Franz, das Leben Muhamedś Berlin. 1955.
(***) Androe, Tor, die Legenden von Berufung Muhammedś in le monde orientala VI uppsula.
(****) Bell, Richand, The origins of Islam, London 1926.
(*****) Stiegler, Hermann, die Glaubens Muhammedś Wien 1962.
(1) Das Geschichtsbild Muhammedś 215 — 218.

الرسول ﷺ ، وهو الخبير ، الملم ، المثقف ، العارف بأحوال وثقافات الأمم السابقة ، كان يعلم أن في حوزة الجاليتين اليهودية والمسيحية كتباً مقدسة ، وأن هذه الكتب من أصل سماوي ، وأنها في جوهرها متطابقة فيما بينها من جهة ، ولما كان الأمر كذلك ، وجب إذاً أن تتطابق رسالته إلى أمته مع هاتين من جهة أخرى ، وفي تصور آخر ، أنه عاش تلك الحقيقة في حالة أشبه ما تكون بالانفصام ، وانطلاقاً من هذا التصور ، فإن كثيراً من المضامين التي جاء بها الإسلام ، وخاصة قصص الأنبياء ، والخلافات العقائدية المتعلقة بنبوة عيسى وحادثة (صلبه) ، والتثليث (Trilität) ، بل وحتى الأفكار المركزية في العقيدة الإسلامية كوحدانية الله ، واليوم الآخر ، جميعها ، كانت نوعاً من الإسقاط ، أو وليدة حادثة معينة طبعت حياة الرسول وأثّرت في مجرياتها . وقد نشط خيالهم ، فذهبوا إلى القول بأن الرسول ﷺ ، استفاد من قصص الأنبياء والأمم المندثرة وأخبارها في تقديم العبرة والعظة لأمته لتعرف ما ينتظرها إن هي عصت رسولها . والشيء الآخر أنه ، رسول الله ، رأى في ذكر الأنبياء وتخليدهم نبوّة متجددة ، سواء كان ذلك بالنسبة لنوح ، أو إبراهيم ، أو لصالح ولغيره من الأنبياء . « . . . وقد اعتبر محمد قصص الأنبياء الأولين أو الحوادث التي يستقيها من التاريخ في منزلة الوحي ، وألبسها ثوب العربية وجعلها ذات بنية واحدة . . »[1] .

ولكن نظرية التطابق الجوهري بين سائر الأديان السماوية والتي دافع عنها بعض المفكرين المسلمين مثل البيروني الذي ذهب في اختياراته حدّاً أبعد مما يجب ، إذ استعار عبارات ماني الشهيرة : « . . . إن الحكمة والأعمال هي التي لم تزل رسل الله تأتي بها في زمن دون زمن . فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البدء في بلاد الهند ، وفي بعضها على يد زرادشت إلى أرض فارس ، وفي بعضها على يدي عيسى إلى بلاد المغرب ، ثم نزل هذا الوحي وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يديَّ أنا ، ماني رسول إلّه الحق إلى أرض بابل »[1] . نقول : إن نظرية التطابق التي دعا إليها الرسول لم تعد قائمة بعد المعارضة التي وُوجه بها من قِبَلِ (أهل

---

(1) أفردنا فصلاً مستقلاً في الحديث عن موضوع (قصص القرآن).

(2) Horovitz, Koran untersuchungen. Berlin und Leipzig 1926. S.67.

الكتاب) بُعَيْدَ هجرته إلى المدينة . وكان من آثار ذلك أن أعاد تقويم موقفه :« إن الديانتين اليهودية والمسيحية في الصورة التي ظهرتا بها في عصره تمثلان التشويه وتزوير الحقيقة الواحدة . .) .

تلك هي الصورة التقريبية التي حصلنا عليها ونقلناها دون تزيين أو تحسين . ومع ذلك ، فلا نعتقد أن المسألة سُوِّيت على هذا الشكل . فثم عامل ثالث كان له أثر غير هيِّن في رسم صورة النبوة ، لا كما يُمليها الواقع التاريخي والحقيقة الأزلية عن نبي هو سيد المرسلين وخاتمهم ، بل كما أرادتها خلافات المسلمين وتعددات نقولهم . أريد أن أسجل بمرارة وحرارة ، حقيقةً أتمنى أن يضعها نصب عينيه كلُّ مسلم ، كلُّ داعية ، وكلُّ من في قلبه غيرةٌ على الإسلام ونبيه : « إذا دافع عن محمد أحدٌ في هذه الحرب الفكرية الطاحنة التي نخوض ، فإنما دافع عنه كتابه الذي أُنزل عليه فقط . أجل ! إن السلاح الوحيد الذي أشعر أن الرسول قد شهره في وجوه أعدائه وأعداء دينه في حياته وبعد مماته هو قرآنه لا غير . وعظمة هذا القرآن لم تتأتَّ كما قد تتوقع من إشادة به ، بل ذمٌّ له فيه كلُّ المديح . إن أعظم مأثرة ــ وليس في القرآن الكريم وكماله ما نفاضل بينه ــ أنه أوجز في العبارة ، واقتصد فيما يزيد على حاجة العقيدة السليمة ، وقطع على العقل والحواس كلَّ محاولة فاسدة للتجسيم والتجسيد والتصور ، وللكيف والكم ، وفصل ووصل في الحال والتوِّ بين الله والعبد دون أن يمَسَّ ذلك بجلال الخالق أو أن يحط من قيمة المخلوق » . ذلك هو الدرس الكبير الذي تعلمته من جولاتي مع هؤلاء المستشرقين . . ! !

لن أبدأ ببسط مسألة السيرة وما اعتورها من هنات وثغرات ، ولا بالرد على ما جاء من افتراءات المستشرقين وتصوراتهم العقيمة ، وإنما ببعض ما أراه ضرورياً لشرح أقوالي السابقة وإظهار خطإ التناول المسيحي لحقيقة الإسلام . والآن لا أغالي لو قلت: إنهم وجهوا إلى الإسلام لائحة اتهام من موسوعة تشريع غربية . ولعل أكبر ما ارتكب من خطإ هو القول في تفسير سورة النجم : « . . شريطة أن يكون الرب قد هبط من السماء ووصل إلى الأفق . ما إذا كان الرسول قد رأى الظاهرة (التجلي) هناك واقفاً أو قاعداً على العرش ، فإن ذلك يقف على المعنى الغامض للمصطلح (استوى) 35/6 » . . ثم . . «.. لا بد من أن الله تجلى للنبي في هيئة ضخمة في وضح النهار ، بحيث إن الله انسلَّ بوضوح من سماء الليل الحالك . وتعقيباً على ذلك نقول : إن (شديد القوى) الذي رآه

الرسول بالفؤاد (رؤية قلبية) ليس المولى بل سيدنا جبريل عليه السلام . والأهم أنَّ العقلية اللاهوتية تصر على معاملة كلٍّ الأديان من نفس منطلقاتها العقائدية ومفاهيمها المنحرفة عن الخلق والخالق . فإذا اشتكوا من أن القرآن اقتضب واختصر وأوجز ، واكتفى بإشارات ضئيلة إلى الرؤى ثم صمت النبي فلم يقدم لأصحابه عن الكيفيات شرحاً ضافياً ، ثم أقدم كتَّابُ السيرة بعد قرنين على تقديم تصورات لم تَرُقْ لهم ، لأنهم وجدوا فيها اختلافاً كبيراً حول قضايا حساسة تمس جوهر العقيدة وأهمَّ مرتكزاتها وهي صحة النبوة ، ثم تطوعوا فبادروا علماءَ المسلمين بالنصح للعودة إلى كتابهم والبحث فيه عما يمكن أن يلقيَ المزيد من الضوء ، نقول : إنهم بذلك إنما فعلوا خيراً ، وأسدوا للمسلمين نصحاً صادقاً ، وشهدوا للقرآن بسلامة موقفه ، لأن القرآن ليس (إصحاحات) للتكوين والتجسيد والتجسيم بل هو كتاب يقدم للعقيدة حاجتها ثم لا يزيد على ذلك حرفاً واحداً . . ! ! ولقد كتبت مرة أقول :

إن أبرز ما في قضية الإيمان والإسلام ، أن الله سبحانه رفع الإيمان على الإسلام درجة ، وفصل بينهما فصلاً عظيمًا في محكم آياته ، وعلّم الأعراب ألَّا يخلطوا في اللفظ بين أبجديات الإيمان وأبجديات الإسلام : ﴿ **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ** . . . ﴾ .

إن الإيمان عملية شاقة ، يقتضي منا ، كأول شرط ، التنازل عن كثير من قناعاتنا السابقة ، ويقتضي باديء ذي بدء ، الكفَّ المؤقت عن استعمال العقل وتحكيم المنطق . إن الإيمان عطاءٌ غير مقيد بشرط ، وهو تسليم لا محدود . وعلى هذا الإيمان بما لا نسمع ولا نرى ، رُكِّب صرح الحياة ، بكلٍّ ما فيها من زينة فاخرة وزخرف جميل ، حضارة باهرة تشدها خيوط شفافة ، أولها في دنيانا وآخرها في عالم الغيب . . !

ولقد أدرك الأولون هذه الحقيقة : « **اللهمَّ إيماناً كإيمان العجائز** ؟ ؟ » . هي الدعوة التي أطلقها عمر الفاروق ، لأنه عرف عمق الفارق بين إيمان العقل و إيمان الفطرة . وحين قال أحد العارفين لعجوز مؤمنة : عندي ألف دليل على وجود الله ، أجابت : لو لم يكن عندك ألف شك ، ما كان عندك ألف دليل . . !

* أي إيمان إذًا نبني عليه ، ونحن بصدد الحديث عن المعجزة ؟

وأي إيمان نعلق عليه ، والمعجزة دليل الأنبياء لإثبات صحة الادعاء ؟ !

إن العقبة الوحيدة التي حالت في الظاهر دون إيمان فئة من كفار قريش ، هي عدم توفر القناعة العينية . وقصة نبينا إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، تعكس هي الأخرى شاهدًا حيًّا على نزوع الإنسان إلى عدم التسليم إلا بما يرى . فماذا كان منه وقد رأى سلسلة من البراهين الساطعة الدامغة على قوة السماء ؟ قال وقد خرج إبراهيم من النار سليمًا معافَى : « أقول لك . . أشهد أن ربك هذا ذو قوة وبأس . . وإنني أدعوك أن تتركني وشأني وأتركك وشأنك . . أو أن تعبد ربي وأعبد ربك . . . ! » .

لكن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، من بين كلِّ النبوات ، ورسالته من بين الرسالات ، هي الوحيدة التي لم تعتمد المعاينة وسيلة إلى إيمان الناس وتصديقهم . ولقد عرفنا دليل إبراهيم ، وكان الرد على السحرة بعصا موسى وفلق البحر بها وهلاك فرعون ومن معه . وبلغت المعجزات في إحياء الموتى بإذن الله ذروتها في رسالة المسيح عليه السلام . أما المعجزة السرمدية التي حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الإشارة إليها والإشادة بها على لسان ربه في أكثر من موضع في كتاب الله فلا شيء غير القرآن ! .

ومهما قيل في شأن الأثر الإيجابي الذي خلفته بلاغة القرآن الكريم على حِسِّ العرب الأدبي وذوقهم اللغوي الرفيع ، فلا سبيل إلى الإنكار بأن غرائز القوم كانت تجنح دومًا إلى التعلق بالمعجزة المنظورة . وتجريدُ الدعوة الإسلامية من هذه الخصوصية ـ لحكمة سابقة في علم الله ـ مسألةٌ يجب أن تستنهض فينا عاليَ الهمم ، وتحثنا على التفكير أكثر وأكثر في خاصية فريدة من خصائص الدعوة الإسلامية .

فحين نهى الإسلام عن التصوير والتمثيل لكلِّ كائن حي ذي نفس وروح . والحظرُ المفروض ـ إلا لأغراض تتعلق بالمعرفة ـ لم يمنع الأخيلة المبدعة من التحليق في آفاقها على أية حال ، فإن الغاية المثلى ، أو الهدف الأعلى الذي سعى الإسلام إليه من وراء تقليص هذه الرغبة وتحجيمها ، ترجع بالدرجة الأولى إلى أسباب تاريخية تتصل بماضي العرب وجاهليتهم ونعني بذلك الأصنام .

لقد حارب الإسلام في الأرض أي شكل من أشكال المشاركة في صنعة هي من صميم القدرة الإلَٰهية ، حتى لو كانت تلك المشاركة من قَبيلِ المحاكاة ليس إلا . ولقد أسيء فهم هذه المبادرة الإسلامية على نحو مؤسف ، ولم يكتف النقاد برواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

إن تحريم الأخيلة والرسوم يجسد منعطفًا هامًّا في تاريخ الدعوة الإسلامية ، كما يتمشى تمشيًا صحيحًا مع المباديء العامة للإيمان . إنه تحرير لعين المخلوق من سائر الحواجز والموانع التي يمكن أن تعوق النظر إلى أعلى ، أو التي توحي بوجود وساطة بين الخالق والمخلوق ، أو التي تجسم الأفكار المجردة في هيئات أو أشكال تحتل من حياتنا اليومية مساحات وفراغات .

أجل . لقد حارب الإسلام هذه الميول لئلا يأتيَ وقت تتحول فيه الرموز العظيمة والمعاني والقيم التي جاء بها إلى مُتْحَفٍ وثنيٍّ كبير ، ويصبح الله والملائكة والتعاليم والرسل معرضًا للشموع أو تحفًا فنية يتسابق إلى اقتنائها الحكومات والأفراد والدول ، كما حدث لديانات بابل وآشور والفراعنة ودين عيسى عليه السلام .

وبالرغم من وضوح الرؤية الإسلامية ، فلا يلوح في الأفق ما يبشر بأن المسلمين وَعَوْا هذه الحقيقة في إسلامهم وأدركوها . فما لبثت الرغبات النائمة في نفس الإنسان البدائي الأول أن عبّرت عن نفسها بشكل آخر ، وطغت على سطح عقيدة الإنسان الحديث عبر قنوات تعبيرية أخرى غير الرسم والنحت والتصوير . ولقد قدمنا بأن رسالة الإسلام لم تعتمد المشاهدة شاهدًا ودليلاً على صحة وأصالة سفيرها إلى الناس . إلا أن اللغة العربية ، لغةَ البلاغة والبيان ، والإنشاء والتشبيه والتمثيل والمجاز ، سدّتْ هذه الثغرة وعوضتْ حاجة الإنسان ، وصعَّدت من رغباته المادية المحسوسة بنقل الصورة المجردة إلى حيز الوجدان ، بلوحات معنوية أخرى مرئية قلبيًّا ، ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * ﴾ ، تقوم مقامها ولا تفسد الحكمة منها ، ولا تقلل من طهرها ونقائها ، وذلك بالكلمة ، التي قامت مقام الرؤية ، والفكرة ، والنظرة ، الرمز والصورة ، الزمان والمكان ، والغيب والواقع سواء بسواء . هنا كمنت عظمة اللغة العربية وتمثلت إبداعاتها التي تساءل الناس بدهشة عنها . بل وقدرتُها على أداء دور لم يكن غيرها مؤهلاً للقيام به بنفس مستوى الأداء . .

* لكن اللغة دلالة . أسماءٌ لمسميات أشياءٍ وأفعال . فإذا لم تستعمل بحذر في طريقة عرضها للحدث ، تحوَّلت هي الأخرى إلى إسفاف ، و إلى ضَرْبٍ قريبِ الشبه من الصور واللوحات المحسوسة . . .

* * *

إنني لا أريد الدخول في إشكاليات الصحيح والضعيف ، الأحادي والمتواتر . بل أريد المعنى قُدُمًا ، في هدي القرآن الكريم ، وبوحي واستنارة من العقل ، وبإحساس المسلم الواعي لحقيقة دينه . . الغيور عليه ، وفي ضوء المعلومة السابقة المستلهمة من روح العقيدة الإسلامية ، بعيدًا عن الاختلافات والتهيؤات والأوهام . .

ـ إن سيرته صلى الله عليه وسلم ، لا ينبغي أن تخلوَ فقط من أية هنة أو ثغرة ، مهما تكن ضعيفة وهينة ، قد تسمح لمتحيز أن يتسلل من خلالها فيحدث تصدعًا في واحد من أصولها ، لا ، بل يجب أن تظل تلك السيرة ، الأقوال والأفعال ، المقدمةَ الطبيعيةَ لكلِّ رأي سديد ، ولكلِّ دفاع مجيد عن حدود هذا الدين . .

ولقد كانت سيرته صلى الله عليه وسلم ـ قبل وبعد الوحي ـ متفقة قولاً وفعلاً مع ما جاء به من الذكر الحكيم . فإذا امتنع القرآن الكريم عن الإيغال في التفاصيل ، أو أحجم عن الغوص فيما لا يفيد العقيدة في شيء ، معجزة كان ذلك أو غير معجزة ، فمن باب أولى ألَّا يغاير الحديث نهج القرآن على النحو الذي نسمع ونعرف من وصف الرحلة النبوية الكريمة إلى السماوات العلى في قصة الإسراء والمعراج ، اللهم إلا في الحدود الضيقة التي تزيل لبس اللغة ، أو دلالة اللفظ أو المعنى ظاهرًا وباطنًا .

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ** * (جبريل عليه السلام) **ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ** * ﴾ .

إن جبريل عليه السلام استوى ، والاستواء كما يقولون معروف والكيف مجهول . أما أن يقال : إن جبريل عليه السلام ، ظهر على صورته الحقيقية بأجنحته التي تملأ الأفق ، وبستمئة جناح في رواية أخرى ، فإن ذلك إمَّا أن يكون أو لا يكون . فإذا لم يكن فإن ذلك مما لا يضر العقيدة في شيء ، أما إذا كان ، فإنه يهبط بالمعجزة آنئذ من عالم الغيب إلى عالم النظر . الحس . . المشاهدة التي تتعارض تعارضًا أصوليًّا ومبدئيًّا مع العقيدة ، وتسمح لأخيلة المؤمنين بأن تنفلت من عقالها في عمليات تفخيم وتجسيم وتحبب من المتصورات وتقرب إليها ، وتلك ـ لَعَمْرِي ـ نكسة عقائدية . . !

* * *

بسم الله الرحمٰن الرحيم : ﴿ **مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ** (تجادلونه)

عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * (شجرة السدر) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * (غير سوية) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا * ﴾ .

إن السورة القرآنية مترابطة المعاني في الآيات والجمل حول موضوع كليٍّ واحد . ووحدة موضوع النص الرفيع لا تعني حصر الكلام في جزئية فكرية . ومتابعة البحث في هذه الجزئية من كلِّ الجوانب المتعلقة بها ، فهذه ليست من وظائف النصوص الرفيعة ، وإنما هي من وظائف فصول العلوم الاختصاصية التي قلما ترافقها بلاغة عالية وتوجيه تربوي وأمر ونهي ، وترغيب وترهيب ، وموعظة وتذكير . بل ويكفي في وحدة الموضوع للنص التربوي البليغ أن يهدف إلى كلية من الكليات الفكرية الكبرى ، وأن تكون فقراته وأفكاره العامة بهذه الكلية ، مشتقةً منها ، أو موصولة بها بوجه من الوجوه ، والغرضُ التعليمي أو التربوي ، أو البياني البليغ هو الذي استدعى إيراد الفكرة ضمن الموضوع الكلي الذي يدور حول النص ، وإن النصوص القرآنية متكاملة في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن ، وكلُّ نص من النصوص الواردة حول موضوع واحد ، يشتمل على ما يملأ فراغ حبة في عقد الموضوع ، ويمتاز ببيان فكرة إذا انضمتْ إلى سائر الأفكار التي أبانتها سائر النصوص ، تكامل بيان الموضوع بكلِّ عناصره ومن كلِّ جوانبه .

فإلى أي مدى تنطبق هذه الاستنتاجات على آيات المعجزة ؟ وإلى أي حد تتفق مع التصور الذي رسمناه لقضية الإيمان والحس ؟ وأي نصيب ، أي تغليب للأول على الآخر ؟

من الواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذي نقل بنفسه خبر المعجزة ولم يسع أحد إليه ، ولم يكن ثَـمَّةَ سبب ظاهر للنزول على غرار الأسباب الأخرى التي رأيناها

في الـمعجزات . ومع ذلك فإن السبب إذا خفيَ على النـاظرين فإنه لـم يخف على اللـه .

فلقد نزلت الآيات الكريـمة « بعضهـا » مؤيِّـدًا للرسول ، مـنـاصرًا لـه فيـمـا نقل إلى رأس مـن رؤوس الكفر في قريش مـن خبر الرؤيـا . وبعضهـا الآخر تـنديد واستهزاء بـمـا زعم الـمشركون مـن أن اللات والعزى ومنـاة الثالثة الأخرى تمثل بعض الـملائكة وأنهن بنـات الله . ومع ذلك فإن أغراض الآيـات لا تستوفى بهذا القدر مـن البيـان . إنها أكثر شمولاً وأبعد غورًا . وهي مترابطة ترابطًا كليًّا وتسعى إلى إبراز قضيـة أو أكثر مـن قضايـا العقيدة ، لكنهـا لا تسعى حتمًا إلى إبراز (ورش التعذيـب) السمـاويـة التي تصوِّر الحق جلَّ وعلا وكأنه حاكم مستبد ، ساديٌّ يتلذذ بـمرأى التـنكيل والتعذيـب : هذه امرأة تعلق مـن شعرهـا ! وتلك مـن أثدائهـا ! وثالث . . ورابع يُصَبُّ الرصاص الـمذاب في حلقه . . ورائـحة الشواء تعبق في الـمكان . . ومحمدٌ شفيـع هذه الأمـة يسأل والـوحي جبريل يجيـب . . عن هذا وذاك وتلك . . . لِـمَ ؟ وكيف ؟ ! وهكذا ينقلب الحب إلى اللـه اللطيف بخلقه وعبـاده إلى رعب قاهر وخوف ظاهر ، ويتحول الدين كلُّه عن غايته الأساسيـة الراميـة إلى خير وسعادة الإنسان إلى سؤال نـاقد لاذع لا سبيل إلى الإجابة عنـه : هل يُعقل ؟ ! أمـن أجل هذا خُلِقْنَا ؟ اللـه ، واسع الـمغفرة ، خالق الإنسان بخيره وشرِّه وعملـه يـؤاخذنـه على هذا النحو ؟ بهذا الأسلـوب ؟ وهكذا أيضًا تصبح الدنـيـا ، مزرعةُ الآخرة ، حقلاً للشوك والدموع والألـم ، والإحساس الدائـم العارم بـالخوف والقصاص والذنب . وطبقًا لـهذا التصوُّر الغريـب الذي صنعه الإنسان بيده ونسجه بـأوهـامه ، وفي مثل هذا الجو النفسي الـمشبع بـاليـأس ، الـمشحون بـالتوتر ، يندر أن يُستـمـال الإنسان الحديث وفي الأرض فسحة وبحبوحة لاختـيـارات أخرى تَعِـدُ في الآخرة بشيء كثير مقابل جهد في هذه الدنـيـا قليل ، وتقدم اللـه في صورة مشرقة متسامحة قريـبة . . مقرَّبة مـن القلب والخاطر وبدون دموع ومعانـاة وآلام . . . !

وقد يعترضني سائل : لكن القرآن الكريـم نفسه ذهب إلى أبعد مـن ذلك في تصوير العذاب وغِلَظ الـمعذَّبين ! ؟ وأجيـب : اللـه جلّ جلالـه شيء ، ونحن شيء آخر ! واللـه حُـرٌّ ونحن مقيدون ! ووسائل اللـه لا يـمكن أن تكون مـن وسائل العبد !

إنه العذاب ! بلى ! ولكن أي عذاب ؟ ! وأي أدوات ؟ ومـا تلك الإشارات القرآنـيـة التي تعنيـهـا إلَّا صورٌ منتزعة مـن البيئة ، قُصد بهـا تقريـب الفكرة مـن أذهـان النـاس بـمـا

أَلِفُوا من أسماء ومسمَّيات في حياتهم الدنيا لترغيبهم وترهيبهم ، و إلا فهل يستحيل على الله شيء جلَّت قدرته ؟ !

لقد سُمِّيَ الايمان إيمانًا لأنه لا يستند إلى دليل حسي . فإذا تطوعنا وصنعنا ذلك الدليل بما تجود به قرائحنا ومخيلاتنا وأوهامنا وغرائزنا الميالة إلى الشكل والمشاهدة والتجسيد ، فإنما نخرج في ذلك بالمعجزة عن مقاصدها الحقيقية وأهدافها الفعلية ، ونلتقي بالفعل والقول مع ما فعل الجاهليون : (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) . وحينئذ يحق فيها قول الله تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ** . . . ﴾ صدق الله العظيم .

ليس في عقيدتنا ربٌّ يتحرك ، يهبط ويصعد ، يشغل حيزاً وفراغاً ، له مستقر ومأوى يبرحهما إلى جهة دون أخرى وفي زمن دون آخر .

﴿ **مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ** * ﴾ « سورة النجم: الآية 11 » ، ذلك هو القول وكفى بالله شهيداً . . ! ! أم أرادوا إلَٰهًا آخر تبصره العين ، وتسمعه الأذن ، وتلمسه اليد ، إلَٰهاً إبناً ، وآخر أباً ، وروحاً قدُساً ؟ ؟! في إطار كهذا لن تُفهم نبوة الرسول ، لا ، ولا العقيدة ككلٌ أبداً ! ! وتُفهم بقدر أقل ، حين تُقَابَلُ نبوة محمد بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، فما بالك بمقابلة بين إمام المرسلين ببطرس اليهودي المندس الأفاق ، أو بماني والمانوية وزرادشت والزرادشتية . عن هذه المفارقة العجيبة والمقابلة غير العادلة تقول المستشرقة شيمل على لسان الانكليزي هاري ڤولڤسون : (. . مهما بلغت فصاحة العرب ، ومهما تكاملتْ أشعارهم الرائعة ، فلم يكن في وسعهم الإتيان بشبيه القرآن . إن هذه المنزلة المركزية التي يحتلها القرآن الكريم في تاريخ الإسلام توازي ظاهرة منزلة المسيح في المسيحية . إن تحول الكلمة إلى جسد في العقيدة المسيحية تقابل تحول كلمة الله إلى الكتاب في الإسلام . لذا فمن غير الجائز ، باللاهوت وبالظاهرة معاً ، مقابلة محمد بعيسى . ولقد عرف محمد بن عبد الله ﷺ منزلته جيداً ، ولطالما نبَّه من خلال الوحي إلى أنه بشر يوحَى إليه : ﴿ **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ** . . . ﴾ (18 / 110) .

ولا سبيل إلى مقابلة لغة القرآن وفي أي فن كان ، لأن اللغة ــ أية لغة ــ ليست الاسم والفعل والحرف ، ولا المفردات والجمل ، ولا الخبر والإنشاء ، والنفي والإثبات ، والحقيقة

والمجاز ، والإطناب والإيجاز ، والذكر والحذف ، والابتداء والعطف ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير .

والحديث عن اللغة لا يبدأ إلا بعد الشروع في ضم الألفاظ إلى بعضها في تراكيب ، وإحكامها فيما بينها في معانٍ ، والصعود بتلك الألفاظ والتراكيب والمعاني لتأدية غرض بياني معين .

إن اللغة منتظمة كطوق منضَّد بديع ، حبَّاتُه مجتمعة تسرُّ الناظرين ومفترقة لا تعني شيئاً . هذه الحقيقة نقولها أيضاً لهواة المقابَلة ورواد الألسنيات . فإذا كان في أسرة اللغات السامية من المفردات والألفاظ ما يمُتّ إلينا أو نمُتُّ إليه بآصرة قربى أو أكثر ، فإن ذلك لا يضير لغتنا فكيف بقرآننا الذي قال تعالى فيه : ﴿ . . . **لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ** * ﴾ « سورة النحل : من الآية 103 » وما بعدها .

إن فرية القرآن والغريب ، وتسرب بعض المفردات والآرامية ليست جديدة . فلقد وعى الإسلام هذه الحقيقة وتعامل معها في الزمان والمكان المناسبين ولم يترك الحبل على الغارب : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** * ﴾ « سورة البقرة : الآية 104 » . وبناءً على ما تقدم فإن القول بوجود أصل لكلمة (اقرأ) لا يقلل من قيمتها ، ولا يغضُّ من شأن احتواء سورة العلق وتضمنها لها ، وارتباطها بمدلول ديني كبير .

والحديث في الأمر الإلَهي (اقرأ) ، يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن أمية الرسول . فخلافاً لما ذهب إليه أغلب الباحثين الغربيين ، نرى أن محمد بن عبد الله أُعِدَّ إعداداً خاصّاً شأنه في ذلك شأن بقية الأنبياء مع فارق جوهري في طبيعة هذا الإعداد ، فمشيئة الله اقتضت أن يختلف الأمر لدى هذا الرسول عما جرتْ به السنن لدى الأنبياء الآخرين . فإذا كانت المعرفة هي السبيل الذي يسلكه كلُّ طالب حقيقة ، فإن رأس الحكمة وينبوع المعرفة ، القرآن الكريم ، المعجزة الأزلية ، استلزمت أن تكون أمية الرسول هي الشرط المتقدم الذي يخلع على المعجزة رداء الإعجاز وعلى حاملها صفة التنزيه ، ويجعل منها ـ أي الأمية ـ ترساً منيعاً لحماية المعجزة ومثاراً للافتخار والإعجاب . . ! !
وهذا الموقف يستدعي منا التنويه إلى أمر خطير وهذا الأمر يتعلق بمساهمة المفسرين

والمؤرخين السلبي في رسم صورة النبوة ، والخلاف حول مسألة الأمية أحد هذه المظاهر السلبية . فمنهم من اعتبرها علامة فارقة مميزة للنبوة وللمعجزة معاً ، ومنهم من رأى خلاف ذلك وهم الشيعة ، إذ رأوا أن الرسول لا بد من أن يمتلك المقدرة على القراءة والكتابة . واستندوا في تأييدهم ذاك إلى أن فقدان الأسس الأولية للعلم في نبي مختار هو شيء مُشين . إننا نضم صوتنا إلى القائلين بالرأي الأول لقناعتنا بأن القول بعدم الأمية يعني حرمان معجزة القرآن من أحد مرتكزاتها الهامة ، وهي خلو ذهن الرسول من أي تصور ديني ناجح ، ويضعنا من حيث لا ندري ولا نريد في صف المؤيدين لاقتباسات سابقة تؤلِّف محور الاتهامات الموجهة ضد نبي الإسلام ورسول العالمين . .

إن القول الذي تبناه المستشرق الانكليزي واط ،والقائل: إن الرسول لما جاءه الأمر « اقرأ » تمرد عليه ، ولهذا المستشرق الحق إن هو ذهب في تفسيره هذا المذهب ، طالما أن هناك ثلاث روايات إسلامية حول هذه النقطة الجوهرية الحساسة : إنها الرسالة . . !

ولعل العلامة مالك بن نبي أحسن صنعاً حين قدم لنا تصوره حوله هذه الكلمة العظيمة : « . . اقرأ ، هي الكلمة الأولى التي تفتَّح لها أول ضمير إسلامي وهو ضمير محمد ، وتفتَّح لها بعده كلُّ ضمير مسلم . إن الحروف حقّاً هي أداة النقل للروح ، لكلِّ رسالة ولكلِّ بلاغ ،وهي الحامل والرمز لكلِّ معلومة . .

وهكذا نرى كلَّ ملامح هذا المجتمع النفسية تتغير منذ نزول (اقرأ) تغيراً يتولد عنه الجوُّ العقلي الجديد . وحسبنا أن نقرر بأن مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الإنسانية العلمي لا تقدر فحسب بإنجازات يقررها أو ينفيها المستشرق حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخات البناءات العقلية منذ كلمة (اقرأ)[1] .

وفيما رأوا أن هذه الكلمة لا تجسد المنطلق النفسي الصحيح للنبوة ، سدد مالك بن نبي هذا الرأي وصححه بعبارته الآتية : « . . بينما ينفتح العهد القديم منذ السطر الأول في سفر التكوين على عالم الظواهر المادية ، وينفتح العهد الجديد في إنجيل يوحنا

---

(1) مالك بن نبي «الظاهرة القرآنية».

على عمليـة التجسيد ، يـنفتح القرآن الكريم عل الجانب العقلي : (اقرأ)[1] أي عيب في هذا الحديث ؟!

قال : « فجاءني وأنـا نـائم بنـمط مـن ديباج فـيه كتـاب فقال : اقرأ . فنهضتُ مـن نومي وكأنـمـا كتب في قلبي كتـاباً . . » . قال : (فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعتُ صوتـاً مـن السمـاء يقول : يـا محمد . أنت رسول الله وأنـا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السمـاء فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السمـاء يقول : يـا محمد . أنت رسول الله وأنـا جبريل . قال : فوقفتُ أنظر إليه وشغلني ذلك عمـا أردت فما أتقدم ومـا أتـأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السمـاء فلا أنظر في نـاحية منهـا إلا رأيته كذلك ، فمـازلت واقفاً مـا أتقدم أمـامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي . . »[2] .

لقد اختلط الأمر على الجاهليين في بيئة تلعب فـيها الأخيلة والأرواح والأشباح دوراً رئيساً في حيـاة الإنسان . كيف لاوعقائد أهل الجاهليـة ترى أن للأرواح تـأثيراً عليها أكثر مـن تـأثير الآلـهة ؟ .

لقد كان الرسول منشغلاً في أمر نفسه انشغالاً يفوق كلَّ مـا يفكر فيه قومه وعشيرته . لقد خشي أن يلتبس الأمر عليه وهو الخبير ببيئته الـملـمُّ بأحوال وطنه . فانظر إلى قولـه وقد غلب عليه الحرص والتحفظ : « قال : ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** ﴾ . . ثم انصرف عني ، وهببتُ مـن نومي وكأنـمـا كتب في قلبي كتـاباً ، قال : ولـم يكن مـن خلْقِ الله أحدٌ أبغضَ إليَّ مـن شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهـمـا . . »[3] .

ولـم تتخلَّ الـمرأة العظيمـة عن زوجهـا في ساعة شدته وضيقه ، فأرادت أن تَسْتَجْلِيَ حقيقة الأمر وأن تتعرف إلى طبيعة الظاهرة : « يـا ابن عم . أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يـأتي ؟ إذا جاءك فأخبرني به . فجاء جبريل عليه السلام فقال رسول الله لخديجة : هذا جبريل قد جاء فقالت : نعم فقم يـا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى ،

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) السير، الطبقات، تاريخ الطبري، المغازي.
(3) المصدر السابق.

فقام رسول الله فجلس عليها . فقالت له تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوَّلْ فاقعد على فخذي اليمني ، فتحوَّلَ رسول الله فجلس عليها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوَّلْ فاجلس في حجري فتحوَّلَ فجلس في حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا . فقالت : يا ابن عمٍّ اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هو بشيطان »[1] . أعظم وأكرم به من امتحان واختبار : نفسيٌّ . . عقليٌّ . . خلقيٌّ . . !

أجل . لقد فعلت ما فعلت بعد أن سمعت منه حديثاً مفعماً بالشكوى والأنين : (إن الأَبْعدَ لشاعرٌ أو مجنون فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خُلُقِك وصلة رحمك . .) .

وقالوا : إن محمداً أسقط نفسه في التاريخ . اطلع على قصص الأنبياء السابقين ، وعرف أن الكتب السماوية لا ينبغي لرواياتها أن تختلف ، أورد قصصهم لاستخلاص العبرة والدرس ، والتذكير بسوء العاقبة لكلِّ أمة لا تطيع نبيها . كلُّ ذلك كي يضمن ولاء العرب باعتباره نبي الأمة في ذلك العصر .

إن هذا التصور مجرد استنتاج ، اجتهادٍ لا يستند إلى أي حقيقة تاريخية . إنه تصور يقوم على التأويل والتخمين والربط . وخير من يجيبنا عنه هو الدكتور دراز في كتابه القيم (النبأ العظيم) : « . . ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع ؟ أيقولون : إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بأعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون : إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية . . أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها » . . ويستطرد الدكتور دراز:« محمد ﷺ لم يكن من أولئك أو هؤلاء » . . ﴿ ... **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ... ﴾ « سورة آل عمران : من الآية 44 » . ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ** ... ﴾ « سورة القصص : من 44 » . ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا**

(1) المصدر السابق نفسه.

﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ « سورة العنكبوت : الآية 48 » .

ومن لطائف وظرائف الصدف أن المستشرق باريت تعجب في مقالته من التفاصيل الدقيقة التي يلم بها الرسول[1] ، ثم عاد ليؤكد « يجب أن نعترف لمحمد بصراحة موضوعية أنه رسول »[2] .

والإسقاط التاريخي مرفوض : « يخيل إليَّ أنه من العبث فهم محمد بعيداً عن زمنه وبيئته » هذا هو الحكم الذي أطلقه المستشرق لوهمان بعد محاورة من مئات الصفحات . 464 _ الجزء الرابع .

وبرغم هذا المنطق الحاسم ، فإن قناعاتهم تأبى أن تلين ، ويصرون على القول : إن للبيئة الفضل في إفراز روح وفكر الرسالة الإسلامية ، متجاهلين أن الإسلام كان ثورة حقيقية على القيم الجاهلية .

فإذا كان الأمر كذلك فلنا ملء الحق في أن نتساءل : إذا كان لأصحاب الديانات أولئك مثل ما يدَّعون من نفوذ وتأثير على جماهير الأعراب ، فلماذا لم يقدروا أن يغيروا شيئاً من وثنية العرب على مدى ألفيْ سنة ؟! ولو كان لتلك الديانات مثل ذلك التأثير الذي تحدثوا عنه ، فلِمَ لْم ينصِّروهم أو يهوِّدوهم وقد خلت لهم الساحة قبل ظهور محمد على مسرح الأحداث ؟ أجل . إذا كان للدينين مثلُ تلك السطوة والحظوة فَلِمَ لم يحدثوا فيهم مثل ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام ، وقد استطاع أن يحولهم بين عشية وضحاها من أمة كانت نسياً منسيّاً إلى أمة يُحسب لها ألف حساب . لقد رسم المستشرق النمساوي د . فودك الصورة المفزعة الآتية لمجتمع ما قبل الإسلام ، فأين كانت الحكمة التوراتية والمحبة المسيحية ، وما الذي منعهما من أن تسديا خدمة للجاهليين العرب وهما تعيشان بين ظهرانيهم : « . . بعض الأخبار تحدثت عن الخشونة والقسوة ، وعن أكلةٍ للحوم البشر . أما عن الثأر والقتل فحدِّث ما شئت . وقبيلة بني حمدان كانت تقدم نذراً سنويّاً ، عروساً لأحد كبار الجوارح . وأشعارُ النابغة الذبياني تحدثت عن أن الدم كان يُسفح عند الكعبة) .

---

(1) Paret, Rudi, Mohammad und der Koran.

(2) Lohmann, Th. wann Wurde... S.466.

والعجيب في الأمر أنه كلما صحت المقابَلة وتطابقت الملامح بين النصوص ، ردُّوا ذلك إلى ثقافة الرسول التاريخية ، وإلى اطلاعه على ما جاء في الكتب السماوية . أما حين يقع الاختلاف ، فلا يقولون : إن كتُبَهم هي التي زُوِّرتْ وغُيِّرتْ وحُرِّفت ، بل يسعون إلى تبرئة أنفسهم من تلك التهمة وإلصاقها بالإسلام . وما كان لنبي أن تغيب عنه تلك الحقيقة : « **إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم** » . تلك هي النصيحة التي أسداها الرسول إنصافاً لأهل الكتاب . وقد عبَّر المتأخرون عن نفس المعنى معاصراً : « . . لا أنكر أن الكتب المسيحية واليهودية من أصل سماوي ولكن (ONLY) ، في صيغتها التي كتبت بها من قِبَلِ المؤلف الأول . . »[1] . ولم يستطع بطرس المبجل الصبر على هذا التصريح فعقب بقوله الشهير وهو يتميز حقداً وغيظاً : « . .لقد زعم المسلمون أن اليهود فقدوا شريعتهم في طريق العودة من بابل حين ضل الحمار الذي كان يُقلُّ أسفارهم طريقه من شدة الازدحام . ولعل الشيء الأكثر احتمالاً أن اليهود كانوا مهملين ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف كان سيتسنى لهم أن يخبئوا شريعتهم ويحفظوا سرَّهم ألف سنة في صيغة لا يعرفها أحد ثم يعاد نشرها في صيغة مزيَّفة ؟)[2] .

فإذا أعدنا الكرَّة واستأنفنا الحديث ، لا من حيث انتهينا ، بل من حيث بدأنا في تفسير ظاهرة الوحي ، وجدنا أن لا مناص من العودة إلى نظر الدين واللغة في الخصوص ، ومقدار التشابه بين ظاهرته عند محمد وعند سائر النبيين ؟

فحين أطلق الإسلام على هذا النوع من الإعلام المستتر (وحياً) ، كان ألصق ما يكون بالمادة اللغوية لهذه الكلمة . وبينما لم يقدم قاموس اللاتينية سوى مفردة واحدة للإيحاء بمعنييه الديني (والفني) ، أي التنزيل والإلهام ، (Inspiration) ، مختصراً بذلك كلَّ المسافات اللغوية وتشعباتها ، ذهب القرآن ـ جامع العربية وأمينها ـ إلى إعطاء دلالات شتى للكلمة الواحدة : فمنه الإلهام الفطري للإنسان كقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ** . . . ﴾ «سورة القصص : من الآية 7» . ومنه الإلهام الغرزي : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا**

Normann, Daniell, Islam and the west. P. 48. (1)

(2) المصدر السابق نفسه.

يَعْرِشُونَ * ﴾ «سورة النحل : الآية 68» ، ومنه الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء كقول زكريا : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا** * ﴾ «سورة مريم : الآية 11» . ومنه الإيماء بالجوارح كقول الشاعر :

فأوحى إليها الطرفُ أني أحبها ... فأثر ذاك الوحي في وجناتها

ويمكن أن يكون الوحي وسواس الشيطان للإنسان بالشر : ﴿ . . . **وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ** . . . ﴾ «سورة الأنعام : من الآية 121» ، أو أن يكون إيحاء من الله للملائكة : ﴿ **إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** . . . ﴾ «سورة الأنفال : من الآية 12» .

أما دلالة الوحي في الرسالة : ﴿ **فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ** * ﴾ «سورة النجم : الآية 10» ، فهو كمدلول التنزيل الصريح في الآية الأخرى : ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ** * ﴾ «سورة الشعراء : الآيات من 192 إلى 194» .

ولقد خلص المستشرق Graef ، وآخرون من خلال دراسة ظاهرة الوحي كما جاءت في كتب السيرة ، إلى أن تلقّي الرسول تَمَّ عبر قناتي السمع والبصر (Vision) و(Audition) ، واستشف من ذلك برهاناً على (شذوذ) ظاهرة الوحي في الإسلام ، عن غيرها من الرسالات[1] . ولكن القرآن ، لدى تقديمه مادة الوحي ، لم يقصر ظاهرة هذا الاتصال الغيبي الخفي بين الله وأصفيائه على تنزيل الكتب السماوية بوساطة ملك الوحي ، بل أشار في آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحي : أولاها إلقاء المعنى في قلب النبي ، وثانيها تكليم النبي من وراء حجاب كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه ، وثالثها هي (الوحي) بمعنى إلقاء المَلَكِ المرسل ما كلِّف به على النبي ، وفي أي صورة بُعث بها الوحي . وبذلك تحدثتْ الآية الكريمة : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ** * ﴾ «سورة الشورى : الآية 51» .

والآية الكريمة ـ كما نرى ـ تقطع الطريق على أي احتمال آخر مما قيل في شأن

(1) Graef, Erwin, Mohammads Berufung, Bustan 8i 1967 — S.S 20 — 28.

كيفيـة الوحي ، ومـنهـا أهل الكشف ووحي الشعراء والمتصوفة أو أصحاب القوى الروحيـة الخارقة كما تطالعنا بها الدراسات العلـميـة الحديثة .

وأما ما ذهب إليه د . جورج بوست ، مـن أن الوحي : «هو حلول روح الله في روح الكتّاب الـملـهـمين لإطلاعهـم على الحقائق الروحيـة والأخبار الغيبيـة . .»[1] ، فبعد هذا الرأي ، لـم يعد (قاموس الكتاب الـمقدس) الذي ألّفه مقدساً ، ولا جديراً بالخوض في خصوصيـات الأنبيـاء .

والقاريء ينـتظر مـنا تفسيراً مقنعاً لـما زعمه الـمستشرق لوهـمـان ، والقائل : إنه ما كان لصاحب رسالة جديدة ــ أي الرسول ــ أن يلجأ إلى مسيحي ، يعني (ورقة بن نوفل) يستفتيه في شأن رسالته . وأنسب ما يقال في رأيـنا ، أن الرسول بوغت وكان في غفلة مـن كلِّ ما جرى ، وهذا السلوك الذي يعكس عنصر الـمفاجأة ، هو دليل قوي آخر يقف إلى جانب صحة النبوة لا ضدهـا . إن النبوة أمر خارج عن الذات ، ليس للـمصطفيـن فيـه اختيـار ، وليسوا مـنه في خيـار . ولـم يؤثر عن النبي أيُّ مسلك غير طبيعي يوحي (بتطور)[2] ظاهرة النبوة قبل نزول الوحي ، والتحنث ليس مقدمة للنبوة . .

ولـم يكن ورقة إلا كتابيّاً ملـمّاً بأحوال الأنبيـاء ، وكان فوق ذلك كلـه رحمـاً لخديجة زوج النبي ﷺ ، فأيُّ ضير في هذا إن هو أقبل صحبة زوجه ، تسأل ابن عم مؤمـن عمـا نـابَ محمد ؟! ولن أتحدث عن جهلـهـم فيـما يتعلق بصدق أو كذب محمد ، ولو رجعوا إلى السيرة جيداً وقرؤوا مـا كان مـن شأن وفد محمد إلى قيصر الروم برئاسة أبي سفيـان لعرفوا آنئذ أن الصدق كان رأس الصفات التي كان يتحلّى بها محمد . ولا بأس أن نعيد إلى أذهـانهـم مـا كان مـن شأنه مع قومه الذيـن عارضوه وسخروا مـن دعوته ، فلـم يجرؤوا أن يـنكروا عليه يومـاً صفة الصدق :

ــ صعد محمد الصفا ونـادى :

ــ يا معشر قريش!

---

(1) طبع المطبعة الأمريكية ببيروت 1894.

(2) نعيد إلى الأذهان ما ذكره المستشرق الإنجليزي (واط)، والذي سبق الحديث عنه على صفحة من صفحات هذا الكتاب حيث قال: فمحمد لم يصبح عالميّاً رسولاً بضربة واحدة كما في رسالتيْ موسى وعيسى بل بدأ بعشيرته الأقربين..!؟

ـ قالت قريش : محمد على الصفا يهتف وآقبلوا عليه يسألونه ما به .

ـ قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدِّقوني ؟

ـ قالوا : نعم أنت عندنا غير متَّهمٍ وما جربنا عليك كذباً قط .

ـ قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد . . إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين . . وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إلَه إلَّا الله) .

ولقد جربوا عليه القول بالمرض ، فما برحوا يشخصون ويقلِّبون ، فمرة يتحدثون عن صرع وتارة عن هوس ، حتى إن المستشرق فوك صرح في لهجة المتعجب المستغرب : (إننا لا ندري بما كان يجيش في صدر محمد وما كان يعاني منه»[1] . . هكذا وبهذا القدر من الجرأة على المأثور والوقائع والتاريخ ، يمضون في نبوءاتهم وتكهناتهم ، أما كيف تسنى لفصامي أو مجنون أن يضع أسساً لأرحم وأرقى حضارة عرفها التاريخ ، فتلك مسألة لم يفكروا فيها ، لا ولا خطرتْ لهم في أثنائها على بال ! ! .

ومهما كان شأن هؤلاء ، فإن نبواتِ الأنبياء لا تُعرف ولا تُكشف بمعايير ونظريات العصر الذي نحن فيه ، فشآبيب الرحمة وقطرات الغيث وقف هتونها وتلاشت سحبها .

إن معاينة النبوة لا تتم في ورش الحضارات المادية الحديثة ، ولا في عيادات الطب العقلي والنفسي . ولكي تُقوَّمَ ، ليستْ في حاجة إلى منظِّر امبريالي الروح ، عصبي النزعة ، طبقي التوجه ، بقدر ما هي في حاجة إلى دارس مخلص منصف .

كلُّ ما آفتُرِيَ على الرسول يظل في حدود التخمين والظن . أما الحقيقة المقابلة الثابتة ، فتظل سيرة الرسول نفسه . ولقد أصاب الباحث الدكتور مصطفى محمود حين قال : « . . وإذا كانت هناك معجزة في الموضوع . . فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت ، أو شفاء أبرص ، أو إخراج حية من عصا . وإنما كانت المعجزة هي ذات محمد نفسه التي جمعت الكمالات وبلغت في كلِّ كمال ذروته .

كان محمد ذاته ، كسلوك وخُلُقٍ وسيرة ، هو المعجزة التي تسعى على الأرض . وإن

---

(1) Fueck, Johann, Originalitaet des propheten.

تبلغ ذاتك الكمال في صفة واحدة ، فتبز فيها أقرانك وتتفوق عليهم فتلك هي العبقرية .
إن تبلغ الذروة في الخطابة فأنت ديموستين . . وإن تبلغ الذروة في الشعر فأنت بيرون ، وإن تبلغ الذروة في الزعامة فأنت بركليس ، وإن تبلغ الذروة في الحكمة فأنت لقمان ، وإن تبلغ القمة في فنون الحرب فأنت نابليون ، وإن تبلغ الذروة في التشريع فأنت سولون ، أما أن تكون كلّ هؤلاء . وأن تمتحنك الأيام في كلّ صفة فتبلغ فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلّم فهو الإعجاز بعينه . . وإذا حدث فإنه لا يفسَّر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده»[1] .

ولقد أصاب توفيق الحكيم ولم يصب حين كتب : «إن المعجزة ، أي الإتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شيء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها ، فإن من الكهان أو بسطاء الناس من يملك تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة كي يكون نبياً . إنما النبي من حُمِّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديَها ، ومن فضل محمد أنه لم (يشأ) أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلّغهم رسالته واعتمد فيها على العقل المجرد»[2] .

وفي استدلاله على المنحى العقلاني لرسالة محمد ، وهو يردُّ بذلك على حادثة (ڤولتير والبابا) ، استشهد بعبارة من كتاب هيكل جاء فيها : «لما جهد المسلمون عطشاً في أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ، ذهب بعضهم إلى النبي يقول إنها معجزة فكان جوابه ﷺ : إنما هي (سحابة مارة) ، ولما كسفت الشمس يوم اختار الله إبنه إبراهيم إلى جواره قال الناس : «إن هذا الكسوف معجزة فكان جوابه : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته» .

وقد عقب الحكيم بقوله : «إن محمداً هو أعظم مَنْ (فهم) حقيقة النبوة ، (ووعى) معنى الحقيقة العليا ، (وأدرك) أن أكبر معجزة في هذا الكون هي أنه لا يوجد في الكون معجزات ، وأن كلّ شيء يسير طبقاً لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ، وإذا قيل قانون

---

(1) محمود، مصطفى، مُحمَّد، ص: 15.
(2) الحكيم، توفيق، مجلة الرسالة، العدد 93، السنة الثالثة ص: 579.

فيل عقل مدبر»[3] .

وبالرغم من أن الحديث سابق الذكر لا يخلو من إشارات مهمة عن حقيقة الإسلام ، فإننا نستقبل عدداً من ألفاظه استقبالاً حذراً لأنها قد تؤدي في النهاية إلى نفس التفسير الذي يطلقه بعض المفكرين الغربيين حول ظاهرة النبوة ألَا وهو إدراك الحقيقة بالاستنتاج الحر بعيداً عن صلات السماء كما نعرف ، وبخاصة الفقرة التي يقول فيها : « . . إن محمداً كما يبدو من وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً ، وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره . .» ، « . . ولا ريب عندي أن إحساس آينشتاين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي» . وكان الحكيم قد قرأ كتاباً لآينشتاين فيه رأي حول (الديانة الكونية التي يعتنق)[1] .

ولم يصدر عن محمد ، برغم كلِّ محاولات الدس ، لم يصدر عنه ما يُشعر أنه طالب سلطة أو نزَّاع إلى زعامة ، وحين عُرِضَ عليه الجاه والمال والرياسة ، وكانت الدعوة لا تزال في بداياتها الضعيفة (إن شئت مالاً أعطيناك أو جاهاً وليناك) أبى وأعرض . ويوم عاد إلى مكة بعشرة آلاف من المسلمين فاتحاً ، لم تستبدَّ به نشوة القوة وروح الانتقام : «ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟) وعفا وصفح فلم ينتقم ولم يثأر بعد كلِّ ما شهد هو وصحابته من تنكيل وتجويع ومطاردة ومصادرة .

وبين هذا وذاك يعفُّ ويعفو ويسامح : «إني لم أُبعث لعاناً ولكني بُعثتُ داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» .

فأين هذا العزوف من دعاوى المتشدقين بالحرية والفضيلة والمثالية البشرية ؟!

أعرض عن الدنيا ومتاعها وزهد فيها وقد أقبلت عليه فاتحةً أذْرُعَها وهو في أمس الحاجة إليها . . ثم أعرض عنها ثانية وهو في أوج القوة والمنعة والبأس . لعمري ذلك شأن الأنبياء . . !

وكان التجريد عن الذات ، هو الصفة المميزة للنبوة في كلِّ الأمور التوقيفية ، سواء في الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة . معاً وجنباً إلى جنب ، الآية الكريمة والحديث

---

(3) المصدر السابق نفسه.

(1) المصدر السابق ص: 580.

الشريف ، يرسمان الحقيقة الكبرى عن هذا النبي : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ... ﴾ .

وفي كلِّ ما أُلقيَ عليه من قول ثقيل ، لم تكن مهمة النبي أكثر من سفير أمين يدري طبيعة دوره : ﴿ . . . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ «سورة الإسراء : من الآية 93» .

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ . . . ﴾ «سورة الأنعام : من الآية 50» .

ويُقبضُ محمد بن عبد الله رسول العالمين فينزل قبل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ «سورة آل عمران : الآية 144» .

فإذا تحدث النبي فإنه لا ينطق عن الهوى ولا يأتي باللغو وإنما ينطق بالحكمة الخالصة . انظر وصف الجاحظ لكلامه صلى الله عليه وسلم : «هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . . لا يحتاج إلا بالصدق ولا يستعين بالخلاب ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطيء ولا يعجل . . لم يقم له خصم ولم يفحمه خطيب ، ولم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم» .

الفصل الثالث

قـصـص القـرآن
محاكاة دينـيـة أم حقيقة تـاريخيـة ؟

قبل تسع وخمسين سنة صدر في مدينة (برسلاو) كتاب تحت عنوان : (القصص التوراتي في القرآن) لمؤلفه المستشرق الألماني هاينز شبييار »[1] .

وفي مقدمة الكتاب الذي يقع في أقل من 500 صفحة بقليل ، نوّه الكاتب بما سمّاه أعمالاً أصولية ومرتكزات علمية على مدار السنوات المئة الأخيرة . وعلّل الكاتب حكمه بأنهم ـ أي أصحابها[2] ـ خصصوا النصيب الأوفر من تلك الدراسات للحديث عن شخصية الرسول ،وفي ذلك قال : (إن هذه الدراسات دلّتْ صراحة على التصورات غير العربية التي (اقتبسها) الرسول من غيره ، سواء في مواجهاته التشريعية أو السياسية ، وذلك في ضوء الدراسات النقدية التي وضع أسسها المستشرق المعروف إجناس غولدزيهر من خلال دراسته للسير)[3] .

هذه القاعدة تنطبق كذلك ، والحديث للمؤلِّف ، على معالجة القصص التوراتي في القرآن . وعلى إثر ظهور كتاب المستشرق إبراهام جايجر (ماذا اقتبس محمد عن اليهودية ؟) الذي سبقت إليه الإشارة في فصل سابق ، بات مقدار تأثير اليهودية على الرسول، حسب زعمه، واضحاً. وجاء في تصريح اليهودي جايجر : (إن دراسته افترضتْ اقتباس الرسول لكثير من التعاليم والمفاهيم والآراء منذ زمن بعيد ، وقد ضمّنها قرآنه بما يناسب التصورات التي كانت سائدة في عصره ، وأن قصص العهد القديم يحتل الجانب الأكبر من القرآن) .

ولقد أثنى المستشرق نولدكه في كتابه : (تاريخ القرآن) على ما وصفه بملاحظات جايجر الذكية في هذا الخصوص .

لكن مؤلِّف القصص التوراتي يستدرك حين ينبه إلى أن (. . . جايجر قد سها في ثمانية مواضع لم يأت على ذكرها في سياق القصص) ، الشيء الذي حدا به إلى تأليف كتابه الجامع الذي سبقت الإشارة إليه .

والحق ، إن سيل الدراسات حول هذا الموضوع ، لم ينقطع خلال النصفين الثاني والأول من القرنين الثامن والتاسع عشر ، وهي مرحلة الزخم الفعلي لحركة الاستشراق بكلٍّ

---

(1) Speyer, Heinz, die biblischen erzaehlungen in Quran, Breslau 1391.

(2) هي مؤلّفات المستشرقين ، شبرنجر ، موير ، جريم ، نولدكه ، بوهل ، شفاللي .

(3) Einleitung S.1.

اللغات الأوروبية وفي سائر أقطارها تقريباً .

وكانت الدراسات مسحاً شاملاً لكلٍّ ما يتعلق بقصص القرآن الكريم ، لغة واصطلاحاً ومقابلةً بالأديان السماوية والأساطير الشعبية ولاسيما النظائر (Paralell) الموجودة في الأسرة السامية ، ابتداء من خلق آدم عليه السلام وانتهاء بيونس وأيوب و إلياس . وقد بنى المستشرقون آراءهم على وقائع تاريخية ورد ذكرها في القرآن الكريم .

ولكي نظل على صلة بما أورده القرآن الكريم وما ردَّ به المستشرقون في هذا الخصوص ، نعتمد المسرد الذي أورده المستشرق داڤيد كونسلتر في دراسة له تحت عنوان : (أساطير الأولين)[3] ، ففيها تَتَبُّعٌ أمين لمختلف الآراء التي وردت في هذا الشأن وهي :

ا ـ الآية الردُّ على الوليد بن المغيرة الذي ورد ذكره في وصفه تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * ﴾ « سورة القلم : الآيات من 10 إلى 15 » .

ب ـ وفي سورة المطففين : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * ﴾ ، قد وردتْ الآية الكريمة هنا في سياق التشكيك في البعث ويوم الدين . فكلما ذُكِّر الكفار بذلك ردّوا بأنهم سمعوا مثله وأنه أساطير الأولين (المؤمنون : 83) ، (النمل : 68) ، (النحل : 24) .

جـ ـ ووردت في سياق الرد على المشركين الذين لا يريدون أن يعترفوا بقدرة الواحد الأحد فكان الرد الإلـهي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * ﴾ « سورة الفرقان : الآيتان 4 و 5 » .

د ـ أما نولدكه وشفاللي فقد أورداها مقابلةً بالكلمة الآرامية بمعنى (Fable) أي

---

(1) Kuenztlinger, David, Uzair ist der Sohn Allahs? O.L.Z. 382, 1932 Nr.6.
وانظر:
Kuenztlinger, Asatiru— l— awwalina, O.L.Z. Nr 8/9. S. 482.

خرافة ، كذلك فعل المستشرق المجري هوروفتز . وكان هدف المشركين الهزء والسخرية بشخص الرسول . فإذا قصد ، والحديث له ، بها معنى (كتب) ، فلا يتضمن اللفظ آنئذٍ معنى الإهانة ، لأنّ ما سُطِّر في كتب الأولين (الصحف الأولى) ليس من دواعي الاستخفاف على ألسنة الخصوم . واستدل نولدكه ـ شفالي بلفظ خُلُق . فإذا انطلقنا من (خُلُق الأولين) كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ * ﴾ « سورة الشعراء : الآيتان 136 و 137 » ، وهو الرّد الذي أجاب به قوم عاد على نذر أنبيائهم ، وفيه أيضاً ينعكس موقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن لفظ (خُلُق) بهذا المدلول يماثل أساطير ، « وهي الأحاديث والأخبار التي لا صحة لها ولا حقيقة » كما حدّث الطبري .

والمتتبع الراغب في معرفة المنزلة الحقيقية التي يتمتع بها قصص القرآن الكريم ، سواء في ذاته وبين آياته أو في مقابلته مع نظائره وأشباهه في الكتب السماوية الأخرى ، لا بد من أن يقف عند ثلاث محطات تؤلِّف خلاصة الرأي وتلخص الموقف من هذه المسألة ، ولا يضيرنا هنا أن نسمع الرأي المخالف ، وليكن شعارنا دوماً :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طُوِيتْ أتاح لها لسان حسود

أولاً : رأي سلبي ناقد يتبناه المستشرقون . ويستند في مجموعه إلى الزعم القائل : إن قصص القرآن فنٌّ غير عربي وغير أصيل . وأنه قصص أكثره مقتبس من الكتب اليهودية والنصرانية ، عدّله الرسول فأدخل عليه أو نقص منه تبعاً لاحتياجات العقيدة وضرورات الدعوة التي دعا إليها.

ثانياً : رأي مناهض للرأي الأول مخالف له ، يرى أن قصص القرآن قصص مطابق لما جاءت به الكتب السماوية بجوهره وتفصيلاته ، وأن هذه المطابقة ترجع بطبيعة الحال إلى وحدة المنشأ .

ثالثاً : ورأي بين ـ بين ، وهو رأينا الخاص الذي يتوسط الرأيين ، لا نرى فيه ما رأى المستشرقون ، إذ لا حديث عن أخذ أو سرقة أو حتى اقتباس ، بل حديث عن تشابه لا غلوَّ فيه ولا مبالغة ، وبهذا نخالف أيضاً ما جاء في الرأي الثاني ، فوحدةُ المنشإ توجب التطابق ، لكن اختلاف المنهج ـ والهدف يستدعيان ، إلى جانب التحريف ، وجود الاختلاف . تلك هي حصيلة الآراء مجتمعة ومختصرة ، وإن كان يحسن بنا قبل مناقشتها أن

نضع المسألة برمتها في إطارها العام الصحيح ، وألّا نتناولها مجتزأة مبتورة كي لا نقع في خطإ تجزئة الفهم والرؤية الجانبية المضلّلة .

إن النية الطيبة وحدها ليست كافية لتسوية المشكلة ولا لدرء الشبهة . فإذا علمنا أنهم ـ الباحثين الغربيين ـ اتهمونا بالارتجال واللامنهجية في طرائق بحثنا ، وحتى بالتحيز وعدم الموضوعية كما صرح بذلك المستشرق نولدكه[1] ، وأن النقد السليم يفترض خلو الذهن من أي تصورات أو أفكار سابقة وهذا ليس حالنا كما يقول المستشرق باريت[2] ، وجب آنئذٍ أن نحسب لدراساتهم ألف حساب ، وأن نقوِّم أعمالهم النقدية خير تقويم ، وألّا ننظر إلى المسألة بعين واحدة ، بينما نغمض العين الأخرى عما يفعله الآخرون ويكتبونه .

إن شبييار ، إذ قرر أن يطلق اسم (أعمدة هذا العلم) على مؤلّفات الستة الكبار الذين أشرنا إلى أسمائهم في حاشية البحث ، لا يكون قد جافى الحقيقة ، لأن هؤلاء في نظر كلِّ مطّلع خبير ، هم الذين هندسوا للفكر الاستشراقي ، ووضعوا أسس ومرتكزات هذا الصرح المتشامخ . فقبل أن يطلع جايجر بكتابه الشهير في سنة 1831 م ، كان كل ما كتب عن الإسلام ونسب إليه ، غير معترف به على الصعيد الرسمي أعني الأكاديمي . بعد ذلك فقط فُتح الباب وبدأ الحديث عن (علمنة) حركة الاستشراق وإخراجها من دهاليز الإكليروس وسلطة اللاهوت ، وما على المكذب المتشكك سوى العودة إلى مصادر تاريخ الاستشراق كما كتبه أصحابه[3] .

جايجر[4] بدأ ، فعرف بحقٍّ كيف ومن أين يبدأ ، لقد وضع الأساس الذي يصلح لأن تُشاد على (خرسانته) ناطحة سحاب ، وليس في هذا القول أي إطراء له ، إذ ليس ثمت ما يمنع أن تكون للباطل صولة وجولة . فقبل أن يبدأ الحديث عن أي شيء ، دخل

---

(1) Noeldeke ,Th, O.L.Z. Nr 8‌19. S. 484—5, und Beitraege S.2.

(2) Paret, Rudi, Der Quran als geschitsquellel ISLAM S.37.

(3) انظر بالخصوص ما ذكره المستشرق بروكلمان في :

Morgenlaendisch Studien in Deutschland
Z.D.M.G. 76—77. S.11,... وما بعدها

(4) لنا عودة إليه .

عالم المعرفة من بابه المشروع ، حين صدّر ، بلهجة الواثق بعلمه المطمئن إلى اتجاهات عصره ، كتابه بالشروط والضوابط التي تجب مراعاتها لدى الجزم بعمليات الأخذ والاقتباس فقال عنها :

ا ـ وجود عنصر أو أكثر من العناصر المشتركة بين الدينين .

ب ـ لا تصح المقابلة بين المقولات القرآنية واليهودية إلاَّ إذا ثبت لنا أن تدوين الثانية تَمَّ قبل الأولى وأنها كانت موجودة في حوزة الكنيس .

جـ ـ أن يكد الباحث ويجتهد في معرفة ، ما إذا كان مجرد التشابه بين فريقين عقائديين مختلفين يعني بالضرورة أخذ الواحد عن الآخر . ومن هذه المقدمة الأولى نفذ إلى التفاصيل في مقابلات مسهبة ، إحداها مقابلة القصص التوراتي بالقصص القرآني .

ومع توفر كتاب متخصص يجمع بين دفتيه سائر القصص ، يصبح في وسعنا صرف النظر عن بقية الدراسات المشابهة التي في حوزتنا والتي تؤدِّي نفس الغرض ، وهي من الكثرة والتعدد والشمول ، بحيث لا يستوعبها بحث مختزل كهذا ، وإليك نبذة من هذه السفسطة المملّة التي أرادوا أن يرفعوها إلى مرتبة العلم :

* ما سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم عن اليوم الآخر ، مضافاً إليه إيمانه العميق بقدرة الله تعالى ،جسَّد دليله للخروج بقومه من حالة التيه الديني التي كانوا يعانون منها .

* ومحمد سمع أن لشعوب ذلك العصر أنبياءها ورسلها الذين نوهوا باليوم الآخر .

* وأنه كان لليهود وللنصارى ، لكلٍّ منهما كتاب مقدس يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فأحبّ أن يكون لقومه كتاب مثلهم بلغتهم ، وهُمِس إليه بعبارات مثل (أم الكتاب) ، (واللوح المحفوظ) منشأ كل الرسالات ، فرأى أن يكون (القرآن) كتابه ، وأن يكون هو الرسول المنذر لقومه .

* وهكذا فإن الكتاب الجديد جاء مصدقاً للكتب السماوية الأخرى ولنفس ما بشرتْ به تلك الكتب .

* ولكن الرسول ـ في اعتماده على التوراة والإنجيل ورغبته في معرفة محتوياتهما ـ أخطأ في فهم كثير من الأخبار والأسماء فاستبدلها أو تجاهلها أو أنكرها .

* ولقد وظف الرسول أغلب هذه المعلومات في تقوية مركزه ولاسيما في المرحلة الأولى من دعوته ، وبخاصة منها القصص المتعلق بأنبياء الله السابقين الذي سخروا

منهم وهزؤوا بهم لأنهم جاؤوا مثله بالحقيقة .

* لكن سخط الله حلَّ بالمنكرين والضالين وأنجى المهتدين الذين أتبعوه .

* وحيث إن الرسول لم يستطع الاستشهاد بمعرفته الخاصة على الأخبار المبكرة ، بل كان اعتماده على الرواية الشفوية في معرفة أخبار الأولين ، فإن التنميقات الخرافية المتأخرة من (كتابه المقدس) يقدِّمها على أنها من مضمون التوراة . فكان كلٌّ شيء لديه بالنسبة لليهود توراة وللمسيحيين إنجيلاً . فالمسيح نفسه كموسى رسول ، والعناصر التي يتركب منها القصص التوراتي في القرآن تظهر (اختلاطاً) مفاجئاً عن قصص من وما بعد التوراة .

* والمسيحية التي كان الرسول يُلمُّ بها كانت دين الدولة الرسمي الأقل مكانة في بيزنطة . وكانت تتكوَّن من بعض المذاهب التي تتخلَّلها الملامح اليهودية ـ المسيحية . ولقد لاحظ الرسول أنها كانت مختلفة في مسائلها الدينية . واطلع الرسول على الرهبنة بما لها وما عليها ، ورأى أديرتها وكنائسها وشعائرها . ومن غير المعروف ما إذا كان يهود ومسيحيو شبه الجزيرة العربية يفرِّقون ما بين التعاليم التوراتية وما بعد التوراتية . وثمت مؤشرات على وجود أنماط من عناصر دينية يهودية ومسيحية وتعبدية مشابهة في أسلوبها لأناشيد وابتهالات في القرآن .

وينتقل المؤلِّف إلى استعراض حياة الرسول منذ يُتْمِهِ وطفولته وكفالة عمه له ، وردود فعله على أذى المشركين له في المرحلة المكية من الدعوة ، مرة في شكل شكوك تخامر الرسول نفسه في سلامة (قواه العقلية) صلى الله عليه وسلم ، وتارة في الغيظ الذي استبد به من جرّاء نعوت الكفار له ، وذلك في محاولة للتوصل إلى تفسير مقنع لترديد ذكر ما أصاب الأمم من ويلات وكوارث كما وردتْ في القصص .

فهاهو ـ أي الرسول ـ يستنجد بشاهد يونس ذي النون لتبرير موقفه لما في ذلك من وجه شبه جامع بين (صاحب الحوت) والرسول ، فيونس عليه السلام عجز عن حمل قومه على اتباع أمر الله فاضطر للجوء إليه . تلك حالة شبيهة بما جاء في سورة القلم : ﴿ **نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** * ﴾ « سورة القلم : الآيتان 1 و 2 » ، ويمكن أن نعمم هذه القاعدة ونوسع قاعدتها لتشمل سائر الحالات المشابهة مع المنكرين وأنبياء الله المرسلين . لكن موقف الرسول من موسى وفرعون يسير في منعطف

آخر ، إذ يتخذ من قصة التكوين قاعدة لشن هجومه على اليهود ، في سياق تذكيره لمشركي مكة بقدرة الله على رفع السماوات وبسط الأرض ، وإحياء الموتى ومحاسبتهم ، دون حاجة إلى استراحة الرب من الإعياء الذي يصاب به كما يزعم اليهود .

ويُلحق بالتصور سائر المعتقدات والأفكار التي نعرفها عن الفترة المكية الأولى من خلق الإنسان من طين ، وحتمية النظام الشمسي وهي أفكار مقتبسة من التكوين .

* أما الفترة المكية الثانية فتعكس - في رأيه - فهماً واسعاً بقصص العهد القديم ، حيث يبدأ أنبياء التوراة بلعب دور الرسول بشكل أكبر فأكبر ، وبخاصة دور إبراهيم . حيث إن تهمة الجنون كانت أول ما رماه بها قومه ، فمن الطبيعي أن يستهل قصصه بنوح عليه السلام لأن قوم نوح وسموه أيضاً بالجنون ونبذوه . هنا تظهر قصص نوح ولوط وعاد وثمود وفرعون التي تتميز بالعقاب . ولعل استبدال آلهة مكة التي يوقرها قومه بعصر نوح ، وجعله هذا عابداً ، والدعوة بالمغفرة لوالديه و إهلاك كل مشرك عليها ، (هي دليل على النقل الساذج للعلاقات الخاصة في زمنه إلى عصور سابقة بعيدة) . ولا يبدو من سياق الرد الذي يمضي على هذه الوتيرة أننا سنحصل على أي قيمة علمية تذكر ، إذ ليس لهذا الحديث من سند تاريخي يؤيده ، ويبدو أن هذا المستشرق آثر الاستغناء كلية عن كتب السيرة فيما قرر إعادة كتابة تاريخ الإسلام من مخيلته وبنات أفكاره ، بنفس الواقعة ولكن بتفسير آخر لها لا يتصف بالعفوية والتلقائية المألوفتين في أسباب النزول ، بل بتصور آخر وتشكيل مختلف ينفي عن الحادثة مصدرها السماوي ، ويُعزيها إلى أسباب لا علاقة لها بالوحي ، بل لعمليات المد والجزر والأخذ والرّد والاعتراضات التي عادة ما ترافق مسيرة الايديولوجيات .

* وتبرز هذه الفكرة في الفترة المكية الثالثة أكثر من ذي قبل على حدِّ قول المؤلِّف ، أي كلما احتدمتْ المواجهات وازدادتْ شدةً في نضال الرسول مع قريش من أجل حملهم على الاعترف بنبوته . وفي محاولاته التوفيقية بل التلفيقية بعبارة أصح ، نقرأ كيف حاول الكاتب إقحام التنويه القرآني باسترعاء نظر المشركين إلى مسألة قدرة الخالق ، من خلال الربط التعسفي بالفكرة المزعومة التي استقاها الرسول من التوراة للرد على مزاعم المشركين بنظم الرسول للقرآن ، ذلك ما يفسر حديث الرسول في بداية الفترة المكية الثالثة حول خلق السموات والأرض في ستة أيام واستوائه على العرش . فإذا

صرفنا النظر عن كلمة (جلس) على العرش ، وهي الكلمة التي أُريد لها أن تكون الترجمة المقابلة لفعل (استوى) وشتان ما بين المعنيين ، يوغل المؤلِّف في جهله حيث يتهم الرسول بأنه يلوي عنق المنطق .

وحيث يدرك الرسول أن مواعظه الخاصة بيوم الحساب لم تعدْ تثير في قومه المخاوف ، يلجأ إلى فنٍّ جديد وهو الضرب على وتيرة الكوارث التي نزلتْ بالشعوب الكافرة . فكما أصابت عاداً وثمود ، فهي قادرة بما لها من قدرة على الاستمرار أن تصيب كفار مكة بوابلها أيضاً .

وفي معرض التذكير بالحكمة من وراء نزول القرآن بلسان عربي مبين ، ودعوة العرب الذين كانوا يتهكمون عليه عند تلاوته إلى تدبر معانيه وتحذيرهم مما ينتظرهم من عذاب ، ينتقل للتذكير بأن هذا الكتاب ، أي القرآن ، هو الكتاب المهيمن ، بالقياس إلى اليهود الذين انقسمت آراؤهم . ولم تأت تسمية إبراهيم إماماً حنيفاً من فراغ لوجود وجه شبه تاريخي .

وقصة نوح في هذه الفترة تحاكي شقاق الرسول مع قومه : بناء السفينة التي سَخِرَ منها قومه ، وولده العاصي ، وهي قصة لا يمكن أن تكون من مصدر يهودي حسب رأي المؤلِّف ولم يقدم لذلك سبباً . ومن ملحقاتها قصص عاد والثموديين و إبراهيم ولوط وأصحاب مدين وموسى .

وباستثناء وصف القرآن للأنبياء هود وصالح وشعيب بأنهم إخوة قومهم ، وأن نوحاً و إبراهيم وموسى لا يحظون بنفس الوصف ، بل بأنهم من الفئة التي كرّم الله بوحي متميز ، لا يقدِّم المؤلِّف إجابة بقدر ما يقدِّم عرضاً مشوَّهاً لموضع الآيات من الكتاب . والملاحظ في تكراره للفظ أخ (كأخ مدين) أنه لا يفرِّق بين معنى الأُخوَّة بمغزاها العرقي أو بما جرى به لسان العرب من نداء .

ومن أعجب العجائب أن ينظر إلى هؤلاء على أنهم عمالقة الفكر وأن يشار إليهم بالبنان ، فانظر إلى هذا التحليل الغريب العجيب الذي يخالف كلَّ منطق علمي .

انظر كيف أن مفهوم الإيمان المبني على الإرادة الحرة والهدْي السماوي الذي يتفرَّد به الحق سبحانه دون سواه حتى لو كان نبيّاً مرسلاً ، انظر إلى هذا المفهوم الذي ينزه الدين ويرفعه فوق مقامات البشر كيف يتحول إلى عمل رخيص في نظر المؤلِّف اليهودي إذ

يقول : (. . . ويواسي محمد نفسه في الختام حين يدبُّ اليأس في نفسه فيصرح بعد رفضهم له : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** * ﴾ « سورة القصص : الآية 56 » .

وقد استحضر هذه الفكرة في معرض الحديث عن الحوار مع أهل الكتاب الذين (يُظن) أن بعضهم دخل الإسلام والذين نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ * قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ** * ﴾ « سورة القصص : الآيات من 47 إلى 55 » .

والأعجب أن يفسر الآية التي أرادها الله أن تكون شاهداً على صدق حديث نبيه عن أخبارالغيب : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ** * ﴾ « سورة القصص : الآية 44 » ، يفسرها بقوله : (وربما سمع محمد أن بعض الروايات التي سمعها لا تتفق مع أخبار التوراة) بدليل تصريحه كما جاء في الآية الكريمة 44 من سورة القصص . ولو أن المؤلِّف اطلع على متن الحديث الشريف الذي يشرح واقعة الحوار : (**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي . . الحديث**) (رواه مسلم) ، لأدرك عقم رأيه .

إن المحصلات المبدئية التي يخلص إليها القاريء من خلال العرض السابق ، تتلخص في عزم المؤلِّف على المضي قدماً لإقناعنا بأن العودة إلى الديانات السماوية الأولى في صورة القصص الذي يتخلل السياق القرآني ، إنما يهدف إلى استحضار المشابهات

والنظائر التي يعزز بها الرسول مركزه الديني مرة مع عشيرته وأهله الأقربين وتارة مع أهل الكتاب ، ومن ثم مع العالمين أجمعين .

والرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المحاولات ، يفلح تارة ويخفق تارات ، وهو يبدِّل (تكتيك) الدعوة وأساليبها وينتقي الفكرة الدينية القديمة بحسب مقتضى الحال وطبيعة الموقف الذي يعترضه .

إننا نعرف أن القرآن نزل منجماً (أي متفرِّقاً) ، وأن الوحي وَقَفَ مراراً ، بعد حادثة الإفك وغيرها ، ولهذا الانقطاع مدلوله العقائدي في نظرنا ، و إن كان الأمر يختلف عند هؤلاء بالطبع . وأيّاً كانت وجهة نظرهم ، فهل من عاقل يرضى أن تكون هذه المزاوجة بين الموقف التاريخي للرسول من جهة ، والقصة الدينية الكتابية من جهة أخرى ، هي من قبيل المحاكاة والتطويع الديني بين القديم والأقدم ؟ وهل يجد المتنوِّرون الدينيون وكتَّاب التاريخ أي وجه يجمع بين الموقف القرآني الذي يترجم لسلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤيده السيرة الشارحة وبين الأسانيد التوراتية والمسيحية التي يتذرع بها هؤلاء ؟ إن استئناف المقابلة الموضوعية فقط ، هو الذي سيتكشف لنا عن وجوه الشبه الحقيقية والمزعومة ، وعن التفسير الخلّبي للحادثة التاريخية .

* أين ما زُعِمَ من أن الرسول صلى الله عليه وسلم حرص على تقديم نفسه إلى قومه في صفة بشرية على الدوام لمجرد القول فيما بعد إنه رسول من أنفسهم ، أين هذا الجمع من صورة عقيدة الإسلام المشرقة التي يكون فيها الموحى إليه على بيِّنةٍ من حقيقة نفسه وجوهر مهمته ، فلا يزيد ولا يُنقص ولا يلتبس الأمر عليه ، ولا تتداخل الحقيقة البشرية مع الحقيقة الإلٰهية كما تداخلتْ في غيرها من الأديان ؟ !

* ولقد كانت حاجة أهل ذلك الزمن شديدة لدين سماوي ، وكان قومه مستعدين للاستماع إليه لو أنه أتاهم بكتاب سماوي آخر غير القرآن : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** * ﴾ « سورة يونس : الآية 15 » . وقولهم ذاك نابع من شكهم في مصداقية مصدر القرآن الكريم . ولم يجشم المؤلِّف نفسه مشقة متابعة القراءة ، ولو أنه فعل لجاءه الرّدُ المفحم : ﴿ **قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ**

لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ « سورة يونس : الآية 16 » .

ولو أنه المجيب لم يكن نبيّاً مرسلاً ـ وهذا شيء لا يفهمه المستشرقون ـ لما جاءت في الجملة الواحدة وعلى التوالي أربعة أدلة قاطعة :

ـ أن الرسول لبث فيهم عمراً .

ـ وأن نفسه لم تنازعه على استمالة قومه بكتاب آخر لأنه صادق .

ـ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم .

ـ وأنه ـ الرسول ـ بوحي من ربه قال ﴿ . . . مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ ، ولم يستعمل أي فعل آخر مما ينوب عن هذا الفعل من قاموس العربية الحافل بالمفردات ، وأين هو البشر الذي لا يغفل أو يسهو ولو لمرة ، ولو باستعمال فعل عوضاً عن فعل آخر لا بديل عنه لتأدية الدلالة العقائدية المطلوبة في كتاب صفحاته بالمئات وآياته بالألوف وكلماته بعشرات الألوف ؟ !

* وفي رأيه أن آية الأمية الواقعة بعد قصة اختيار موسى لسبعين رجلاً من قومه كما وردتْ في سورة الأعراف ، تتمشى مع الفكرة التالية القائلة بكتابة نبوَّته في التوراة والإنجيل . وبدورنا نتساءل : لو سلّمنا جدلاً بأن لفظ الأمية جاء متفقاً مع هذا الاتجاه ، فكيف به في المواضع الكثيرة الأخرى من كتاب الله ؟ وموافقة الكاتب على صحة قصة أصحاب السبت وتحويلهم إلى قردة ، ومثل اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، ووصفها بأنها قصص يهودية المنشأ يبطل زعمهم بأنهم قوم موسى وشعب الله المختار .

وبانتهاء الفترة المكية الثالثة ودخولنا في الفترة المدنية ، نجد أنفسنا أمام علاقات اجتماعية وسياسية جديدة تقضي ببلورة موقف جديد . فالمعروف أن نفوذ اليهود في (يثرب) كان نفوذاً قويّاً . وكان الرسول ميَّالاً إلى تعايش سلمي بين الإسلام واليهودية ، الشيء الذي جعل الرسول يقبل على اليهود بروح متودِّد باديء الأمر . لكن اليهود أعرضوا عنه فأثاروا بالتدريج غضبه . وبلغ الغضب أشده حين علم بأن اليهود أنكروا نبوَّته وتعاليمه . ولعل ذلك هو السبب الذي حمل الرسول على التفريق بين قدامى اليهود ويهود عصره . فبينما كان يصف أولئك بأنهم (بنو إسرائيل) أطلق على المتأخرين اسم (اليهود) فقط .

ولتصحيح هذا التصور المشين للتاريخ ، لا بد لنا من وقفة ـ ولو قصيرة ـ على حقيقة العلاقة بين الرسول واليهود بُعَيْدَ الهجرة . والذي حدث[8] هو أن يهود المدينة خشوا الإسلام لما اشتدتْ شوكته ، وكانوا يطمعون في كسبه إلى صفهم ليزدادوا به ضد النصارى قوة . وكانوا سيقنعون بالأمن لولا أن دعوته تفشَّتْ بينهم . لكن حبراً عالماً من كبار أحبارهم وعلمائهم هو عبد الله بن سلام أسلم وأسلم معه أهل بيته . وطلب إلى النبي أن يسأل اليهود عنه قبل أن يشيع خبر إسلامه فقالوا : سيدنا وابنُ سيدنا وحبرُنا وعالمُنا ، فلما خرج عبد الله إليهم ودعاهم إلى الإسلام ، خافوا عاقبة أمره وأذاعوا عنه قالة السوء .

وكانت أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين إحدى أمضى الأسلحة التي سعى اليهود إلى تسخيرها ضد محمد ، فدسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ثم راح يوزع الشكوك والرِّيَبِ ويلقي على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم .

* وفي المدينة يصبح الجهاد فريضة . ويجد النبي الشاهد لدى اليهود أيضاً ممثلاً في مضمون الآية : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ « سورة البقرة : الآية 246 » .

و إذا سلمنا بتشابه الحالتين جدلاً فالشاهد مُخزٍ محزنٌ كسيف . فالدعوة إلى الجهاد سبقتها دعوة مجازيَة كُنِّيَ بها عن الشهادة في سبيل الله : ﴿ **مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** . . . ﴾ « سورة البقرة : من الآية 245 » . ولا يُعقل أن يكون تفسير القرض في السياق مالاً كما ورد . لكنّ هذا المعني كان كبيراً جدّاً على المرابين اليهود الذين يريد المتأخون منهم أن ينسبوا إلى أنفسهم شرف الصدام بمحمد . فانظر إلى ما ردّ به اليهودي فنحاص بعدما سمع الآية الكريمة : (والله يا أبا بكر ما بنا حاجة إلى الله من فقر و إنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا و إنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ، ولو كان غنيّاً عنا ما أعطانا) .

---

(1) هيكل ، حياة النبي ، ص 247 وما بعدها .

فشكا أبو بكر إلى النبي فنزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ﴾ « سورة آل عمران : الآية 181 » .

* ومن بين هاتيك المزاعم أيضاً قولهم : وإذا كانتْ العلاقة بإبراهيم قد ارتبطتْ بالبيت العتيق في المرحلة المكية ، فمن البديهي أن يحتل إبراهيم نقطة الوسط في قصة إبراهيم ، فمما لا يثير العجب أن يكون إبراهيم أول المسلمين في (دعوى) الرسول إلى جانب ولده إسماعيل اللذين رفعا قواعد البيت .

وأغلب الظن أنني جلوتُ هذه الفكرة في حديث سابق ، إذ بينتُ أن المستشرق الألماني رودي باريت أجاب على هذه النقطة بنفسه حين أشار إلى أن المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون أيّد وجهة نظر القرآن بأولوية إسلام إبراهيم حيث قال : (يحتفي المسلمون بإبراهيم بصفته أول المسلمين وهذا صحيح . صحيح لاهوتيّاً . . !)[9] .

* ولقد رأوا في الآيات الوارد ذكرها تحوّلاً في لهجة الرسول نشأ عن تحوّل في موقفه السياسي من اليهود . فذكْرُ إبراهيم هنا على أنه حنيَفٌ مسلم يمثل التصلب تجاه اليهود وتصديه لهم ولمعتقداتهم ومزاعمهم بنسبتهم إلى إبراهيم ونسبة إبراهيم إليهم ، ونفي شبهة اليهودية والنصرانية عنهم أي عن أنبياء الله الآخرين : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * ﴾ « سورة البقرة : الآيتان 135 و 136 » .

وفي نفس المرام السابق تصبُّ ـ حسب رأيه ـ الآية الكريمة : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * ﴾ « سورة البقرة : الآية 140 » .

P.R. Der Quran als Geschichtsquelle Islam 24—42. S. 24—25. (1)

* وزعم أن الشقاق مع اليهود بلغ ذروته في الفترة المدنية حيث يجردهم (الرسول) صلى الله عليه وسلم من صفة الاختيار ويخلع عليهم وصفاً جديداً : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . . . ﴾ . ويعود (الرسول) صلى الله عليه وسلم ثانية إلى إبراهيم بقصد تفنيد دعوى اليهود بحجة جديدة طمعاً في جعل إبراهيم مسلماً ودينه إسلاماً أما وقد شعر بضراوة معارضتهم وشدة إلحاحهم في نسبتهم إلى إبراهيم : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * ﴾ « سورة آل عمران : الآية 65 » . ولا يفوت الرسول بين الحين والآخر ـ والحديث لهم ـ أن (يعزز) الرسول رواياته بآية كي تقوى على منافسة روايات أهل الكتاب حول تاريخ الديانات : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ﴾ « سورة آل عمران : الآية 62 » .

* وفي سياق القصص المدني ، وقد وجد الرسول نفسه في مواجهة (فضيحة) عائلية ، ويعني بها المؤلِّف قصة الإفك ، لا يجد الرسول قصة يدعم بها موقفه أنسب من الشاهد المخيف : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ * ﴾ « سورة التحريم : الآية 10 » .

وخلاصة الخلاصة ، من وجهة نظرهم لا من وجهة نظرنا بالطبع ، أن العناصر الدينية ، اليهودية والمسيحية ، المستوحاة من العهد القديم والمبثوثة في قصص القرآن ، والتي دخلته متفرقة هنا وهنالك في تاريخه المبكر ، ثم ازدادت فيه باطِّراد ، هذه العناصر ، تُظهر كيف تراوح موقف الرسول من التعاليم المسيحية واليهودية بين الرفض أو القبول .

ففي مكة أحس نحو أهل الكتاب برابطة ما في بعض المجالات . أما في المدينة فقد رسم الحدود بين اليهودية والنصرانية والإسلام ، وانقلب إلى عدوٍّ للقبائل اليهودية واليهود الذين لم يتمكن من دفع سخريتهم من تعاليمه (المتضاربة) . ولم يكن يدري ـ أي الرسول ـ أن الغموض الحقيقي الذي يكتنف هذا القرآن سيجبر مفسري هذا الكتاب الخالد (يهزأ) على التماس الفهم لدى المسيحيين واليهود .

* إن العرض السابق يؤلِّف الملامح العامة لإحدى أهم القضايا التي كانت ومازالت مثار بحث وجدل على مدى قرنين تقريباً من قِبَلِ النقاد الغربيين . أما ردود الفعل الإسلامية فلم تخرج في واقع الأمر عن إطارها التقليدي الذي تتناقله كتب التراث[1] .

ولعل القاسم المشترك بينها هو التشديد على (الإعجاز) الذي يوافينا به قصص القرآن في صوره وأشكاله المتعددة . من ذلك مثلاً الدقة المتناهية في رواية أخبار الأولين التي يعقِّب عليها المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله : (لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة . .) (. . . إنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرَّراً في القرآن ، حتى الأرقام طبق الأرقام ، فنوحٌ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عَاماً ، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمئة وخمسين سنة ، وكذلك الحال في قصة أهل الكهف أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنة شمسية ، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم (ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً) ، وهذه السنوات التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية)[2] .

ومن ذلك أيضاً التنبيه إلى أن قصص القرآن (يتفق) جملة وتفصيلاً مع ما أثبتته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص ، كما ذهب د . البوطي إلى القول[3] .

ولكن الشيخ محمد عبده لا يرى الرأي السابق ولا يُقرُّه ، لأن القصة لم تكن هدفاً أصيلاً من أهداف القرآن ، فلم يكن القرآن كتاباً تاريخيّاً حتى يؤخذ عليه التقصير في ذلك ، بل يكتفي بما فيه العبرة والموعظة ولا يلتفت إلى بقية التفاصيل : (يظن كثير من الناس الآن ، كما ظن كثير من قبلهم ، أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، بل هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان

---

(1) انظر ما ذكره الزجاج والباقلاني وأبو هلال العسكري بالخصوص .

(2) د . دراز ، عبد الله ، النبأ العظيم ، ص 30 .

(3) د . البوطي ، محمد سعيد رمضان ، من روائع القرآن ، ص 191 .

تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكّه بها أو الإحاطة بتفاصيلها إنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة) .

وفيما كتبه عنه تلميذه محمد رشيد رضا ، يعود الشيخ محمد عبده ليؤكد في موضع آخر : (إن ما جاء به القرآن فهو الحق وما عداه فهو كذب وتلبيس وزور ، و إنه لو سلك القرآن مسلك كتب التاريخ في سرد التفاصيل والعناية بالجزئيات لذهبتْ ثمرته ولضاعت قيمته في الهداية والإرشاد . والخلاصة ؛ إن ما صنعه القرآن هو الحق و إن طريقته هي الطريقة المثلى في تقرير الحقائق بصورة كلية ليست مجالاً للاختلاف ، وأما ما عداه من الكتب السماوية الأخرى فقد تغيرت أسانيدها ودخلها التحريف والتغيير . فعلينا وقد ظهرت الآية ووضحتْ السبيل ألّا نلتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ، ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهة نبالي بكشفها . فإن قيل : إن قصص العهدين العتيق والجديد التي يسمى مجموعها (الكتاب المقدس) هي من وحي الله شهد لها القرآن وهي تعارض بعض قصصه قلنا : إن تلك القصص ليس لها أسانيد متواترة متصلة ، وثانياً : إن القرآن إنما أثبت أن الله أعطى موسى عليه السلام التوراة وهي الشريعة وأن أتباعه قد حفظوا منها نصيباً ونسوا نصيباً ، وأنهم حرفوا النصيب الذي أوتوه ، وأنه أعطى عيسى عليه السلام الإنجيل وهو مواعظ وبشارة ، وقال في أتباعه مثل ما قال في اليهود : ﴿ . . . فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ . . . ﴾[1] .

أما الدكتور م . خلف الله فيرى : إن حدَّ هذه الأخبار الواردة في القرآن عن أحوال الأمم الماضية من أوجه إعجازه إنما يسيء إلى القرآن ويفتح لأفراد السوء والطاعنين على الإسلام والحاقدين عليه منافذ للطعن ومجالاً للافتراء والكذب . فمعظم هذه الأخبار كانت معروفة ، وأن القرآن نفسه لم يجعلها موطن التحدي ومناط الإعجاز : (. . . أحصى العقل الإسلامي كلَّ هذه الأشياء فتبيَّن له أن ما يقدمه المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني من خير أقلُّ بكثير مما يقدم من شر ونكر وبلاء . .

فكَّر العقل الإسلامي فرأى أولاً أن الكثير منها كان معروفاً بالجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية . وفكَّر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى ثانياً أن تلك الأقاصيص التي

---

(1) تفسير سورة يوسف والمقدمة د؟

يعتمد عليها القرآن في الإيحاء بنبوة النبي وصدق رسالته لا تشتمل على أخبار تستحيل وهي على العكس من ذلك ، أخبار معروفة لدى أهل الكتاب ، و إذا كان من استحالة فهي ـ كما ذكر الدكتور دراز ـ تقوم على التفصيلات الدقيقة لهذه الأخبار . وفكَّر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى ثالثاً أن القول بأنها إحدى المعجزات لا يدحض أقوال المشركين أولئك الذين قالوا : إن محمداً عليه السلام يكتب هذه الأخبار ، و إن بشراً يعلمه إياها ، و إنهم لو شاؤوا لقالوا مثلها ، و إنهم قصوا بالفعل أخبار رستم وأحاديث اسفنديار . و إن قريشاً كانت تستملح هذه الأقاصيص وتنصرف عن محمد عليه السلام إلى المعارضين للنبي والقرآن . فكَّر العقل الإسلامي في كلِّ هذه الأشياء وانتهى به التفكير إلى أن القرآن نفسه لم يجعل هذه الأخبار موضع التحدِّي ومناط الإعجاز و إنما جعل الإعجاز كلَّ الإعجاز في قوة التأثير وسحر البيان)[14] .

لكن العلَّامة ، مالك بن نبي ينحو منحًى مختلفاً لاستكشاف الحقيقة التي يراها مناسبة لهذا الموضوع مقاسةً بآراء علمائنا الذين نوهنا بحصيف رأيهم فيما جرى ذكره . وأول ما نحب أن نؤكده في هذا الصدد ، هو أن منهج الباحث منهج لا يترك لمرجفٍ فرصة لتسجيل أي مأخذ مهما يكن طفيفاً . فالمقابلة بين نصَّيْن كتابيَّيْن من موضوع مشترك واحد وهو قصة يوسف عليه السلام ، ووضع النتائج المتحَصَّلة في توافق ، أو توافق نسبي ، أو اختلاف ، كما هو مبيَّن في الجدول المرفق ، يعكس ، في حدِّ ذاته ، درايةً واسعة و إدراكاً شموليّاً لآفاق البحث في بعديه ؛ الإسلامي والإنساني ، الشيء الذي يندر أن نصادفه لدى كثير من الباحثين .

إن سلامة منهجه ، مكّنه بالتالي من الخروج بنتائج علمية أقل ما يقال فيها : إنها علمية المسلك ، محايدة ، بعيدة عن الهوى والمزاج . ومؤدَّى هذه النتيجة أو البحث النقدي للمسألة كما عبَّر عنه ابن نبي يتلخص في الفرضيتين الآتيتين :

أولاهما : وجود تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي وطريقة بروز هذا التأثير في الظاهرة القرآنية .

وثانيهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى تعليماً شخصياً مباشراً عن الكتب

---

(1) خلف الله ، محمد أحمد ، الفن القصصي في القرآن. ص 38 ـ 41 ، ط 2 .

السابقة على القرآن ، بطريقة منهجية أو استردادية وهي كما عبَّر عنها (استعادة المعلومات من ساحة اللاشعور) .

ـ فنّد مالك الفرضية الأولى بتأكيد ظهور أثر البيئة في أدب لغتها المشتركة وأدبها الشعبي الذي يفصح عن أمية عامة أي في بيئة أميين ، وتأكيد الآيات (3) و (101) من قصة يوسف على خلو البيئة العربية من أي تاريخ توحيدي (ما يتصل بالأديان المنزلة لا ما يتصل بفكرة الألوهية التي كانت منبثة في ثنايا الشرك في الجاهلية) .

ـ وفندها بالاستدلال بآثار المحاولة الفاشلة التي قام بها آباء يسوعيون في مستهل هذا القرن لتعيين مساهمة (شعراء النصرانية) في الجاهلية .

ـ وفندها بعدم وجود أي مركز ثقافي ديني في مكة يتولى نشر فكرة الكتاب المقدس التي عبَّر عنها القرآن .

ـ وأن عدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس ينفي بالتالي تغلغل الفكرتين اليهودية والمسيحية في ثقافة البيئة الجاهلية . والغزالي من جانبه أكد أنه لم توضع ترجمة عربية للإنجيل حتى القرن الرابع الهجري ، وأنه ـ الغزالي نفسه ـ اضطر إلى الرجوع إلى مخطوط قبطي . وأن الأب شدياق ذكر أن أول نص مسيحي تُرْجِمَ إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرس ، كُتب نحو عام 1060 م بيد رجل يدعى ابن العسال .

ويتساءل ابن نبي : إذا كانت الحال كذلك بالنسبة للإنجيل ، فكيف يمكن أن تكون وُجدتْ ترجمة للعهد القديم (التوراة) ؟ ! والنتيجة التي يخرج بها هي استحالة القول بإمكان حدوث (امتصاص لا شعوري) للذات المحمدية في الوسط الجاهلي .

وأما عن الفرضية الثانية ، وهي مسألة التعليم الشخصي والتلقي فيفندها بالردود الآتية :

ـ إن الاسترداد يتطلب الذاكرة الضعيفة أي النسيان . ولم يسجل ولا نُقِلَ عن النبي شيء كهذا ، بل إن العكس هو الذي سُجِّلَ . فذاكرته صلى الله عليه وسلم كانت خارقة لكلِّ اعتبار حتى في حالات التلقِّي التي كان يعاني منها خلال لحظات الوحي . وكان الرسول هو الحافظ الأول للسور التي كان يرتلها عن ظهر قلب حتى لحظاته الأخيرة .

ـ وعنصر التفنيد الثاني يقوم على أن هذا الموضوع لا يأتي في صورة نسخة مكررة

من التوراة ، وأخيراً فإن المصادر العربية للتعليم لم تكن موجودة إطلاقاً . و إذاً فلقد كان من الواجب على النبي أن يُكيِّف موضوع تعلمه المُستقى من مصدر أجنبي بالضرورة ، ويعدِّله ليوافق التعبير القرآني ، وذلك باختيار سابق للألفاظ العربية .

ـ وأما احتمال وجود مصدر أجنبي من الناحية التاريخية ، فلا بد من أن يكون ـ إن وجد ـ مصدراً شفهيّاً غير مكتوب ، وهذا افتراض مرفوض أيضاً يقف دونه قيمة القرآن وقيمة الذات المحمدية[1] .

وما تقدم ذكره يبطل آراء عدد من المستشرقين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الخصوص ، منهم على سبيل المثال ، الفرنسي بلاشير الذي تحدث في كتابه : (معضلة محمد) عن مصدر القصص القرآني فذكر : (إن ما يسترعي نظر المستشرقين ، هو التشابه الحاصل بين هذا القصص وبين القصص اليهودي ـ المسيحي . وأن التأثير المسيحي كان واضحاً في السور المكية الأولى . فالمقابلة بالنصوص غير الرسمية التي كانت سائدة في ذلك الوقت كإنجيل الطفولة تكشف عن شَبَهٍ قوي) . وفي كتاب تاريخ الأديان جاء ما نصه : (كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف ، قصير العبارات ، فخم الصورة ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة . وكثيراً ما يكرر الآيات تكراراً مملاً حتى تنقلب معانيها إلى الضد . فلما تقدم به الزمن فقد الأسلوب منهجه الأول ، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء ، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته (بوتيغار) [2] .

وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك . وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كلَّ حرارة وكلَّ فن ، وأُغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى »[3] .

وقبل أن نشخص إلى فكرة أخرى ، نؤثر أن نختم برأي المستشرق الانجليزي مونتجمري واط حول التأثيرات اليهودية والمسيحية المزعومة على الرسول .

فقد ذكر في هذا الخصوص ، أول ما ذكر ، « أن الكتاب ما انفكُّوا يتساءلون منذ

---

(1) ابن نبي، مالك ، الظاهرة القرآنية ، ص 244 .

(2) بلاشير ، القرآن ، تر ، رضا سعادة ، ص 45 ـ 46 .

(3) صبيح ، محمد ، عن القرآن ، ص 144 ـ 147 .

جيلين عن إمكانية وجود تأثيرات توحيدية على الذات المحمدية . وكان الإجماع ـ باستثناءات طفيفة ـ ينفي وجود هذا النوع من التأثير في الأوساط العربية التي كانت معنية بالدعوة . لكنه تبين فيما بعد أن هذا التأثير كان خفيفاً غير مسموع » .

ويستطرد المؤلِّف : « وفي مقالته حول أصول (الشعر العربي) ، قدم المستشرق الانجليزي د . س مارجليوث عدداً من الشواهد على وقائع بأفكار موحِّدة في الشعر الجاهلي ما لبثت أن ظهرتْ في الإسلام بعد البعثة . وكان يسعى إلى إنكار أصالة الشعر من وراء ذلك القول » .

ويعزِّز واط رأيه ببعض ما جاء في مؤلَّف المستشرق السويدي توري (الأصول اليهودية للإسلام) حيث ذكر هذا الأخير : (قرآنه العربي ، الإنجاز العبقري والإبداع العظيم لرجل عظيم ، بُني في الواقع من عناصر عربية . إن كلَّ محتويات القرآن الأسلوبية ، بما فيها الألفاظ الغريبة والأسماء الخاصة ، كانت شائعة في المجتمع المكي قبل البعثة) .

والمستشرق توري ـ بقوله هذا ـ إنما كان يهدف إلى تأكيد وجود (الفكرة) تبعاً لوجود الكلمة . ويخلص واط أخيراً إلى تحديد نوع التأثير حين يزعم : (إنه كان تأثيراً طائراً ، أي مسموعاً لا مكتوباً)[1] .

ولعل دائرة البحث هذه يمكن أن تُوسَّع كثيراً ، من حيث عدد القائلين المشاركين ، لا من حيثُ تنوُّعُ الفكرة واختلافُها . أما القاسم الأعظم بينها كما سبق أن شرحتُ ، فتلك الأفكار التي أعيد ترتيبها على النحو المبيَّن :

أولاً : رأي بالأخذ والاقتباس صدَّرتُ به هذا البحث ، تجاهل فيه صاحبه مناهج المسلمين في التفسير والبحث ، فسعى إلى إلغاء شخصية الرسول الروحية ، وعمل على تقديمه كذات زعيم أو قائد سياسي ، يضع مشروعاً حضارياً لبني قومه وللآخرين .

ثانياً : وقول بالأخذ مجرَّدٍ من أية فلسفة أو تفسير تاريخي لعملية الأخذ .

ثالثاً : وغيْرةٌ على الإسلام يأباها القرآن ، تقضي بعدِّ « قصص القرآن » معجزة ، بمثابة إساءة للإسلام ومطعنٍ يُقدَّم لأعدائه بحجة أن هذا القصص كان شائعاً بين العرب

---

(1) Watt, MontogomrY, Mohammad at Mecca, P.156

وفي قريش بالذات .

رابعاً : ومذهبٌ يقضي بالتطابق والتوافق بين كلٍّ ما جاء في التوراة والإنجيل وبين ما جاء في القرآن جملة وتفصيلاً .

خامساً : وقول بعدم التشابه الكلي ، بل بتشابه جزئي .

سادساً : ورأينا الخاص الذي ندفع به بعد الوقوف هنيهة على كلٍّ رأي من الآراء المذكورة .

فالزعمُ بأن الرسول إنما كان يخوض معركة سياسية ـ ايديولوجية ، عُدَّتُها هذا الكتاب المُستقى قصصه من أصول عربية وكتابية ، وحوادثه المرتبة ترتيباً زمنيّاً ، هذا القول مرفوض لسببين :

ا ـ قول الواحدي : (لا يمكن معرفة الآية بدون الوقوف على قصتها) ، وهذا القول لا يتعارض مع حقيقة « أن الآيات التي نزلت ابتداءً ، كأكثر الآيات المشتملة على قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها ، أو وصف بعض المواقع الماضية أو الأخبار الغيبية المستقبلية ، أو تصوير قيام الساعة ، أو مشاهد القيامة ، أو أحوال النعيم والعذاب وجعلها مرتبطة بالسياق القرآني سابقِه ولاحقِه من غير أن تكون إجابةً عن سؤال أو بياناً لحكم شيءٍ واقع »[1] ، هذا القول لا يصلح ذريعة يتحجج بها صاحب الرأي لأنه لم يقف عند الشاهد القصصي فحسب و إنما تعداه إلى ما يستوجب التنويه بأسباب النزول .

ب ـ وأما السبب الثاني الموجب للرفض ، فهو تفضيل علماء التفسير للتقسيم الزمني ، للمكي والمدني ، طالما أننا نواجه موضوعاً وثيق الصلة بالتاريخ : « . . . ومن الغريب حقّاً أن يظن المستشرقون بأن في وسعهم ترتيب القرآن زمنيّاً وهم يجحدون كلَّ أثر للرواية الصحيحة في هذا الترتيب »[2] .

ـ وأما القول بالأخذ والاقتباس والذي تتبناه طائفة لا حصر لها من المستشرقين ،

---

(1) ذكر السيوطي في الإتقان: (والذي يتحرر في سبب النزول أنه مانزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الأخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت .

(2) د . الصالح، صبحي ، مباحث في علوم القرآن ، ص 175 .

استناداً لما بين هذه النصوص في القرآن والكتابيْن من تشابه ، فقد اتضح فساد هذا الرأي في ضوء الدفوع التي قدمها مالك بن نبي .

ـ وأما (المفكر) الإسلامي الذي زعم أن معظم هذه الأخبار كانت معروفة ، وأن القرآن نفسه لم يجعلها موطن التحدي ومناط الإعجاز ، فهو قول مردود يكشف عن جهل أو تجاهل أو سهوٍ مذموم عن آية صريحة هي قول الله تعالى في قصة نوح : ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** * ﴾ « سورة هود : الآية 49 » .

ولا أظن إلا أن المفكر المسلم سوف يذعن لو كان مفكراً بحق وحقيقة ، فيكفَّ عن الاستدلال بأدلة تاريخية ظنية بعدما انجلى الشك بنور اليقين .

فإذا قفلنا راجعين ، ووقفنا عند الرأي القائل بتشابه إجمالي وتفصيلي بين قصص القرآن وقصص العهدَيْن ، والذي نسبتُه إلى الأستاذ الدكتور البوطي ، فإن هذا القول أيضاً ينطوي على خطإٍ جسيم برغم (التهميش) بالرجوع إلى ما ذكره ابن نبي بالخصوص ، وما أورده المؤلِّف في صفحات الكتاب التالية من تشديد على غرض القصة المتميز في القرآن .

إن القاريء سيجد على الصفحة المقابلة التي نقلتُها بحذافيرها للمرحوم ابن نبي مواضع كثيرة تظهر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف في قصة مختارة من قصص القرآن الكريم وهي قصة يوسف . و إن القاريء ليلمس في رأي الإمام الشيخ إشارة كافية بوجود مثل هذا الاختلاف : (يظن كثير من الناس الآن ، كما ظن غيرهم من قبل ، أن القصص التي جاءتْ في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني « إسرائيل » المعروفة عند النصارى بالعهدين العتيق والجديد أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، و إنما هو هداية وموعظة ، فلا تُذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكُّه بها أو الإحاطة بتفصيلها و إنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة) .

وكيف لمثل هذا الاختلاف أن لا يكون ، والكتابيون أنفسهم يشهدون على ذلك ، بل ويتندَّرون به ، وهذا شاهد عدل منهم يقول بملء فيه : (وفي الوقت الذي ظهر فيه القرآن ، ولم يكن للكتاب المقدس مدخله العام بعد ، قسم القرآن عند تدوينه إلى 114 سورة من أطوالٍ مختلفة . وحيث إن الكتاب كلّه ينتمي إلى مصدر واحد ، فليس هناك

أسفار . وفي الوقت الذي تكوَّن فيه الكتاب المقدس مكتبة بحالها ، لا يؤلِّف القرآن سوى كتاب واحد) .

فإذا قصد المؤلِّف د . البوطي (بالتطابق المجمل والمفصل) عصر نزول الوحي ـ وحديثنا السابق متأخر حديث ـ فلا أظن القرآن الكريم ، باستثناء الآيات موضع الاختبار والتحدِّي وبخاصة من أهل الكتاب ـ إلَّا كتاباً مصدقاً مؤكداً ، ولكنْ وفي نفس الوقت مصححاً ومقوِّماً لاعوجاجات العقائد وانحرافاتها ، وإلا فهل من معنى غير هذا المعنى ، ودلالة غير هذه الدلالة لقوله تعالى ساعة التنزيل أو بعدها : ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** . . . ﴾ « سورة المائدة : من الآية 48 » .

أفلا يكون بعد هذا اتفاق واختلاف ؟!

ـ وكيف لا يكون اتفاق واختلاف ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب المؤمنين في مكة : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله : (**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا**) « رواه البخاري » .

وبالرغم من كلٍّ ما تقدم ذكره ، ومن الشروح المفيدة التي تعلمناها على يد عالمَيْنا الجليلين في سياق الحديث عن أهداف القصص ، تظل الحاجة ملحة وقوية للتعريف بهذا الاختلاف ، بل قلْ بخصوصية واستقلالية وأصالة الفن القرآني في القصص من حيث الوظائف والمكوِّنات . فلقد درج المستشرقون ـ كلما خطر على بالهم أن (يعرفونا) بتراثنا ـ درجوا على مقاضاتنا أمام محاكم أجنبية خاصة ، تطبقُ قوانين وتشريعات سنها التلموديون والحاخامات .

ولعل أبرز هذه القواعد والقوانين وأشدها زوراً وافتئاتاً ، هو منهج البحث المقارَن الذي طُبِّق خطأً على موضوعات القرآن الكريم ، بصفته كتاباً مسطوراً ، ناسين أو متناسين أنهم ليسوا أمام عمل أدبي بمعنى الأدب ، ولا تاريخي بمعنى التاريخ ، ولا لغوي بمعنى اللغة .

ليسوا أمام فن قصصي مستكمِلٍ لكلِّ شروط القصة أو الرواية الأدبية ، بحيث يجوز

إخضاعها لنفس القواعد والضوابط التي تخضع لها بقية الأعمال الإبداعية .

ووجود عنصر أو أكثر من العناصر المشتركة بين (عملين) لا يوجب بالضرورة مبدأ الاقتباس ، كما أن دفع مقدِّمات من هذه المتشابهات لا يفرض الحصول على نتائج صحيحة مئة بالمئة .

فإذا أصروا على (علمنة) القرآن وأخذه بنفس المظان ، وقياسه بنفس المعايير ، و إخضاعه هو وغيره من التعاليم الراقية السامية لروح هذا العصر وأنفاسه العفنة ، جاز لنا أن نستوقفهم بشيء من نفس قوانينهم : إن المقابَلَةَ لا تصح إلا بين موضوعين من هويتين ثقافيتين مختلفتين ، والأديان السماوية واحدة لأن الأنبياء والرسل أخذوا من مشكاة واحدة ! !

إن مسألة النظر في خصوصية أو عدم خصوصية قصص القرآن الكريم تضعنا أمام اعتبارين :

الأول : المنشأ التاريخي لهذا القصص ومدى ذيوعه وانتشاره وتأثر الجزيرة العربية به .

الثاني : المعنى المستخلص من وجود كل أو بعض هذا القصص في القرآن الكريم .

أما ما يخص الاعتبار الأول فإن خير مَنْ نلتمس لديه الجواب على هذه المسألة هو المرحوم الدكتور جواد علي : (. . . كان لدخول اليهودية والنصرانية في اليمن وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب دخلٌ من غير شك في إعراض القوم عن دياناتهم الوثنية وعن ثقافتهم وآدابهم . أما اليهود فقد سعوا بعد دخولهم في اليمن إلى تهويد ملوك اليمن وأقيالها ونشر اليهودية فيها للهيمنة على هذه الأرضين ، وأخذوا ينشرون قواعد دينهم وأمور شريعتهم بينهم ، **ويذيعون قصص التوراة** ، **وأعاجيب سليمان** ، **وجن** سليمان ، وأقنعوا بعض حكام اليمن بالتهود . ووجدتْ النصرانية سبيلها إلى اليمن كذلك من البحر والبر ، وسَعَتْ كاليهودية إلى تثبيت أقدامها هناك وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، ووجدتْ من سمع دعوتها . . »[21] .

ولكن الدكتور جواد علي يعود فيستدرك : (ولا أستبعد أن يكون من بين رجال الدين

---

(1) د . علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب ، ج ، ص 121 .

من الديانتين أناس كانوا على قدر من العلم والفهم بأمور التوراة والإنجيل **وبالقصص الإسرائيلي والنصراني** وعلى شيء من الإلمام بالتاريخ . فقد كان من بينهم أناس هم من أصل رومي أو سرياني أو عبراني ، فليس من المستبعد أن يكون لهم حظ من العلم بالأمور المذكورة أخذوه من كتبهم المكتوبة بلغاتهم ومن دراساتهم لأمور الدين . ومثل هؤلاء لا بد من أن يستشهدوا في مواعظهم في (مدارسهم وكنائسهم) في الأماكن التي نزلوا بها من جزيرة العرب ، بشيء من قصص التوراة والكتب اليهودية والأناجيل . .

ودليل ذلك أن معظم القصص الواردة عن الرسل والأنبياء وعن انتشار اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، مصدرُه أناسٌ من أهل الكتاب ، هم من أهل يثرب ، أي من يهود المدينة ، ومن أهل اليمن ، **وهو قصص على دلالته على جهل فاضح بأمور اليهودية والنصرانية** ، ويدل على أنه أُخذ من أصل يرجع إلى أهل الكتاب ، **وقد غُطِّيَ بقصص وأساطير ساذجة** . وهو على بساطته وسذاجته يصلح ، إن صحّتْ نسبته إلى من نسب إليهم ، أن يكون موضوعاً لدراسة مهمة ، وهي دراسة مقدار علم يهود جزيرة العرب ونصاراها في الجاهلية بأمور دينهم ومقدار جهلهم بأحكام اليهودية أو النصرانية في تلك الأرضين)[1] .

بعد كلِّ ما سمعت ، فهل ترى أن قوماً هذه ثقافتهم خليقون بأن يؤخذ عنهم ؟ ويمضي د . جواد في حديثه المترع بالحسِّ الصادق عن التاريخ ، وتبيان أفق الإنسان الجاهلي وإلماماته الثقافية ، وبخاصة الخلفيةِ الدينية التوحيدية التي كان يحملها قبل ظهور الإسلام ، والتي زعم بعض المستشرقين أن العربي ورثها من الحنيفية : (ولم يكن العربي ليحفل بما بعد الموت لأن هذا العالم الثاني عالم غير محسوس بالقياس إليه ، ولهذا لم يتصوره كتصور غيره من الأمم الأخرى ، بل هو لم يتُعبْ نفسه بالتفكير فيه . ولهذا كان عجبهم شديداً إذا سمعوا بالبعث وبالقيامة والحشر والنشر : ﴿ . . . **أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ** ۝ ﴾ . وأما ما يخصُّ الافتراض الثاني ، أي المغزى من قصص القرآن وأهدافه ، فمسألةٌ لم تعد موضع اجتهاد ومحل

---

(1) المصدر السابق ، ص 122 .

نقاش ونظر مع وجود الدليل القطعي في القرآن . إنها بغير أدنى شك وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب الخالد . دعّمتْ مواقف الرسول ، وشدَّت أزره ، وثبّتتْ فؤاده في وجه التحديات والافتراءات والأقاويل .

لقد تحدث العلماء الذين تكلموا حول هذا الموضوع ، قدماؤهم ومحدثوهم ، عن عدد من أهداف القصص ، ولعلك لا تخالفني الرأي في الرغبة في سماع المستجد فيه ، وإلَّا لكان حديثنا ضرباً من التكرار المُمِلِّ ، وإضافةً غير مجدية للكتب والمصنفات التي تزخر بها المكتبة العربية ـ الإسلامية .

والرأي الذي أنوي عرضه حول القصة القرآنية ، يتصل اتصالاً مباشراً بدراسات المستشرقين . إنني أريد التحدث عن وجه من وجوه الإعجاز كما رأيته ، وقرأته ، وسمعته . . إن الشعار الذي رفعه الإسلام ، منذ أن أُذِنَ لمحمد بالجهر بدعوته ، أنه دين الأولين والآخرين ، وأن المبعوث رحمة به آخر المرسلين . هذا الإعلان التاريخي الذي لا نعرف لمثله نظيراً في ديانات السماء السابقة واختص الإسلام به وحده وانفرد ، يؤلِّف في حدِّ ذاته ظاهرة تستحق الدرس والعناية .

إن من مستلزمات هذا الطرح العقائدي أن ينسجم النص القرآني مع الفكرة المعلنة وأن يتفق معها في روحه وأسلوبه وغايته . فإذا حدث أن وقع هذا الاتفاق والانسجام ، كان ذلك دليلاً جديداً يقدمه القرآن على إعجازه ، وإلَّا ، أي لو تنافرتْ غاية النص وتعارضت ولو لمرة واحدة دون سبب مقنع ، وهذا أمر محتمل الحدوث في الوسط البشري ، لكان ذلك دليلاً على تهافت الدين وزيف داعيته .

إن الإخبار عن أب الأنبياء ، إبراهيم الخليل عليه السلام ، وصولاً إلى ذريته ، هو بمثابة العمود الفقري في هذه المسألة الحساسة التي سنرى مقدار عناية الإسلام بها ، ومبلغ الإرباك الذي أصاب صفوف المغالطين والمكذِّبين جراءها : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ *** ﴾

« سورة الأنعام : الآيات من 83 إلى 87 » .

وللتعريف بحدود هذه العلاقة التي نرى فيها رمزاً لقدم وزمنية وكونية القرآن ، نذكّر أولاً بأن القرآن اتخذ في إخباره موقف المصحِّح لأخطاء التاريخ من أقصى موقع ممكن في أثناء رسم العلاقات الروحية وتحديد نقاط التقائها ، ولاسيما حين يكون الحديث عن إبراهيم أب الأنبياء بالنظر لدلالته الخاصة : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] « سورة الأنعام : الآية 74 » .

من غير المستغرب ، والحال كذلك ، أن قامت الاحتجاجات . فالمستشرق اليهودي (دافيد كونستلنجر) غاضب محتج على اسم (آزر) الذي أطلقه هذا العربي الأُمي (خطأً) على أب إبراهيم ، لأن المصادر اليهودية لا تعترف بآزر أباً بل خادماً لإبراهيم ، وينوِّه بأن من يطلق (يا أخت هارون) على مريم العذراء برغم ما يفصل بينهما من زمن ، ليس مستغرباً أن يقع في نفس الخطأ .

وبالقدر الذي أنكر فيه كونستلنجر وهوروفتير ونولدكه[2] هذه النسبة وعدُّوها (شطحة) من ذاكرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذهبوا إلى الاعتقاد بأن هذه الآية المدنية إنما تعود إلى الفترة المكية الأولى ، وذلك لانعدام المبرر لنزولها في الفترة المدنية .

واحتجوا على لفظه (عزير) المساوية لكلمة EZRA أو (עזא) بالعبرية ، وعلى تلفيق تهمة لم يقولوها ، مفادها أن العُزير ابنُ الله كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ** . . . ﴾ .

وتصحيحاً لما جاء نقول على لسان الزرقاني : (. . . إن اسم عُزير لم يكن معروفًا لدى بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها . واسم عُزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين . وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس ، كانوا يعتقدون في عوزر أو أوزيرس أنه

---

(1) يرى بعض المستشرقين في نسبة إبراهيم لأبيه آزر كما جاء في الآية الكريمة مغالطة تاريخية . فمصادرهم تقول : إن آزر (IZRA) أو (ASAR) هو اسم خادم له وليس اسم أبيه .

(2) Kuenztlinger, David; Uzair ist der Sohn Allahs O.L.Z. 382, 1932 Nr.6.

ابن الله . وكذلك بنو إسرائيل في دور من أدوار حلولهم في مصر القديمة ، استحسنوا هذه العقيدة وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عُزير) من الأسماء المقدسة ، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفراً وضلالاً ، فعاب الله عليهم ذلك في القرآن الحكيم ، ودلّهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً) .

ورسمُ العلاقات الدينية لا يقف عند التصحيح التاريخي بل يمضي حثيثاً في كلِّ ما يتصل بشؤون العقيدة والتشريع من أجل تأكيد الجامعة الدينية الوحيدة التي تربط بين كلِّ الأنبياء والمرسلين عبر المسيرة التاريخية الطويلة للأديان السماوية . ومنهجُ القرآن فيها يقوم في كلِّ مرة على تقديم لوحة لكلِّ فكرة يعرضها على الناس في صورة نبإٍ إعلامي متماسك يُساهم في أدائه المثل القرآني مرة والعلوم تارة ، علوم النفس والتربية والاجتماع طوراً وفنون القول والبلاغة أطواراً أخرى ، وتلعب القصة فيه دوراً مكملاً ـ ولكنْ مُهمّاً ـ خدمةً لغرض أساسي ، غير جزئي ولا هامشي ، ألا وهو العقيدة .

والشواهد على ذلك كثيرة ، موزعة ، منوعة تنوع القضايا المطروحة من أجل إحداث أكبر قدر من القناعة في نفس السامع وتحصيل أكبر استجابة ممكنة . انظر إلى الآية المثل : ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا *** ﴾ «سورة مريم : الآيات من 41 إلى 47» .

حوارٌ قديم يعيد إلى الأذهان أصنام مكة وما لقيته دعوة محمد من عنتٍ بيد بعض أرحامه ، ويذكِّرُ بما يكون من موقف الأنبياء وسلوكهم تجاه هذا النمط من الشرك والإعراض .

وانظر إلى نقطة الالتقاء الأخرى بين نوح ومحمد في عاقبة الشرك وعبادة الأصنام : ﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُواْ مَكْرًا**

﴿ كُبَّارًا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * ﴾ «سورة نوح : الآيات من 21 إلى 23» .

وانظر إلى هذا الجمع الفريد بين القصص والمثل والعلم الكوني والتاريخ والماضي والحاضر . فبعد مَدْين وشعيب وقارون وفرعون وهامان ومانابهم وأصابهم بكفرهم وذنبهم يقول تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * ﴾ «سورة العنكبوت : الآية 41» .

وتأمَّلْ كيف يأتي الرَّدُّ على المكذبين والبعث ، مرّة بالعلم والعقل ، وتارة بالعودة إلى أخبار الأمم الماضية : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * ﴾ «سورة قٓ : الآية 3 ».

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * ﴾ «سورة قٓ : الآيات من 9 إلى 14» .

وإذا كان هذا شأن القصص في القرآن ، فما بال نظائره التي تحدثوا عنها وقاسوه بها ، ترى هل تؤدِّي نفس الدور وتخدم نفس القصد المبين الذي رأيناه في القرآن ؟

بين يديَّ ترجمة ألمانية عن أصل سرياني لقصة أهل الكهف . إن المقابلة بين النصين ، القرآني والسرياني الذي قمتُ بترجمته عن الألمانية واختزلته ، ستكشف لنا عن جوانب الاختلاف موضعِ الاستدلال . وقد قُدِّم للنص بأسماء شخصيات القصة : (ماكسيميليانوس ، ياMليشوس ، مارتيللوس ، ديونيسيوس ، يوحنا ، سيرابيون ، اكسكوستوديانوس ، وأنطونيوس)[1] : بعد أن تسلم القيصر الشرير ديسيوس مقاليد السلطة ، وانتقل من مدينة قرطاج إلى القسطنطينية ثم إلى إيفيسوس ، أُغلِقتْ (الكنائس) وهُدِّمت أديرة المؤمنين ، وخاف الرهبان والإخوان فانسحبوا لاتقاء سطوته .

---

(1) Untersuchngen Zur syrischen Ueberlieferung der Siebenschlaeferlegend 1,2,3 Teil, Von Arthur Allgeier, Published in, Oriens, Christianu, Neue Serie 1915 S.11 وما بعدها

وحين دخل ديسيوس الشرير المدينة ، طغى واستكبر ، وراح يشيد الهياكل وسط المدينة ، وطلب من أعيانها أن ينحروا القرابين أمام الأصنام ، ولطخها بدماء الأضاحي .

وفي اليوم التالي من الحفل الذي زكمت فيه رائحة الشواء الأنوف ، أمر القيصر بمهاجمة المسيحيين ، ورافق الوثنيون واليهود جند القيصر ، واقتادوا المؤمنين إلى الفداء .

في هذا المقطع يقدِّم صوراً من معاناة عذاب المسيحيين من أجل (يسوع) وحين رأى الثمانية ـ الذين آمنوا بابن الرب ، وحملوا صليب السيد كل يوم على أجسامهم ـ ذلك ، أصابهم حزن شديد .

وفي تلك الأثناء توجه هؤلاء إلى اليسوع يدعونه و يبتهلون إليه . ورصد الأعداء دعاءهم ولجوءهم ، فاتهموهم في حضرة القيصر بازدراء أوامره واتباع دين المسيح ، فأمر القيصر بإحضارهم .

ودافع المؤمنون عن موقفهم ، فمنحهم القيصر مهلة للتفكير والنجاة بأرواحهم ، وأمر بفك وثاقهم و إخلاء سبيلهم .

وخطر على بال ماكسيميليانوس وأصحابه أن يحسنوا فتصدقوا بالذهب والفضة سرّاً وعلانية . ثم تشاوروا فقرروا الخلوة والاعتكاف في كهف جبل المدينة بعيداً عن أعين الناس ، إلى أن يأتيَ حاكم عدل ينظر في أمرهم . وفي تلك الأثناء كان الفتيُّ فيهم يتردد على المدينة من حين لآخر يتسقط أخبارها ، حتى علم بعودة القيصر ديسيوس مرةً أخرى إليها . وقرر تقديم الأضاحي إلى المذبح ، فهُرع الفتى بما يحمل من زاد قليل راجعاً إلى أصحابه . وأخبرهم بما كان من شأن القيصر وعزمه على البحث عنهم . وخافوا خوفاً شديداً ، وصلّوا وتبتّلوا ، ومرغوا وجوههم في التراب تضرعاً إلى الله فأماتهم الله موتاً حسناً .

هذا جزء يسير من ملابسات قصة أهل الكهف كما وردتْ في المصادر السريانية . وهي تمثل الإطار التاريخي العام الذي دارت فيه أحداثها . والقصة طويلة تستدعي تكملتها عشرين صفحة أخرى . وقبل أن نعقب عليها بشيء ، سنورد آيات القصص كما جاء ذكرها في القرآن الكريم :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَـٰتِنَا
عَجَبًا * إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ
ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا * نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ
بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ
ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ
لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا * وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا
غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ
وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ
فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ
مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ
فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا * وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ
كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا
تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا * وَلَبِثُواْ
فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى
حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا * ﴾ «سورة الكهف : الآيات من 9 إلى 26» .

وملاحظاتنا التي نسجلها ، في مقابلة غير متكافئة بين النصين ، القرآني والسرياني ، ستكشف كيف أن القرآن الكريم يدافع عن ذاته بذاته ، وأن قصص القرآن غير سائر القصص ، وأنه لم يستعر من القضية إلا اسمها ، وأنه بريء من نعوت المذمين و إسفاف المُسفِّين :

1 ـ يوضح النص القرآني أن الفتية كانوا مؤمنين فزادهم ربهم هدى . وطبيعةُ هذا الايمان خاليَةٌ من اللبس والإبهام ، فهو إيمان لا شرك فيه ، بينما النصُّ السرياني يُصرُّ على إقحام التعاليم المسيحية ولو كان شركها بالله واضحاً بأكثر من دليل ، وهذه مسألة هامة يجب أن تستوقف الدارسين عند مقابلة النصوص كي يتبين لها مدى تأثر النص الديني بالضغوط الشعبية والخرافية ، بينما النص القرآني في مخالفته للنص الأسبق حافظ على وحدة العقيدة والنظرية الإسلامية بهذا الخصوص ، وكان دقيقاً حتى في المفردات والتسميات . . . ﴿ . . . **لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ .

2 ـ وباستثناء الكهف ، ضرب القرآن صفحاً على سائر التفاصيل ، فقصته تخلو من أي دور متميز لزمان أو مكان ، ورجال أو أبطال ، أو ملوك أو نبلاء ، أو كهنوت ودُور عبادة كما في النص السرياني .

3 ـ وقصص القرآن ـ إلا لغرض الربط التركيبي بين الأحداث ـ يستغني عن أي لفظ أو معلومة أو جزئية لا يخل الاستغناء عنها بالبناء العام الذي يقتضيه الفهم وتتطلبه حاجة العقيدة . وبينما نُهيَ الرسول صلى الله عليه وسلم عن الدخول في الجدل والتفاصيل حول عددهم وشأنهم بدليل الآية : ﴿ . . . **فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا** . . . ﴾ ، يتحول النص في الأدب السرياني إلى ملحمة أدبية كما أسلفنا .

4 ـ والخارقة هنا تمَّتْ بالضرب على آذانهم ، فللأذن هنا دلالَةُ خاصة في عملية التنويم بهذا اللفظ المستعار ،والله وحده أعلم بأسرارها وخفاياها وما استجد داخل أجهزتهم من تغيير ، فلم يكن موتاً بمعنى الموت ، ولا كان نوماً بمعنى النوم ، و إنما كان وضعاً وسطاً بين هذا وذاك ، حالَة فيزيو ـ بولوجية ، ينسلخ فيها الإنسان عن الوسط دون أن يقف بوقوف وعيه شيءُ من الوظائف والعمليات الضرورية للحياة . يعينني على هذا الفهم ، تلك اللفتات الربانية المذهلة التي قدمها القرآن عن محيط وأحوال هؤلاء ، فجعل الشمس تَزْوَرُّ عنهم ذات اليمين وذات الشمال كلما أشرقتْ

وغربتْ ، ويقلِّبهم كذلك ذات اليمين وذات الشمال ، وفي ذلك لعمري إشارة كافية إلى استكمال شروط المعجزة ، فلا الشمس تُصلِي جلودهم بنارها وسعيرها ، ولا الاستلقاءُ على جنب واحد يدمي جلودهم ويُميتُ جنوبهم وأعطافهم ، وهم ـ فوق ذلك ـ أقرب ما يكونون في شكلهم الظاهر ، إلى حالة اليقظة منهم أمواتاً أو حتى نياماً .

5 ـ ولعل ما يستوقف القارىء المتمعن ويشد انتباهه ، حتى ليظنه الجاهل اختلافاً ، هو ورود معلومتين مختلفتين في الإفادة ظاهراً ، في كلٍّ من قوله تعالى : ﴿ **وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِم ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعًا** ﴾ « سورة الكهف : الآية 25 » ، وقوله جلَّ وعلا : ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا** ﴾ « سورة الكهف : الآية 26 » .

أما الثلاثمئة السنة والتسعُ الفروق بين السنتين الشمسية والقمرية ، فقد عدّها أغلب علمائنا ممّن توفروا على دراسة إعجاز القصة ، عدوها علامة إعجاز لما فيها من دقة في الحساب تستعصي معرفتها على أهل ذلك العصر ، فإذا عرفنا أن هذا العدد مطابق لما جاء في قصص الأولين ، بُهِتَ هذا الرأي وأصبح لا معنى له .

إنه الإعجاز ـ كما نرى ـ يكمن في تحدِّي هذه المعلومة الحسابية الصحيحة لما قضى الفتية في كهفهم ، وفي تنبيهنا إلى رقم حسابي آخر غير حساباتنا الزمنية المألوفة ، رقم غيبي خلاف الذي نحصي ونعد ، هو في علم الغيب وتنفرد به الذات الإلٰهية وينسجم مع طبيعة المعجزة ، ويتمشى مع ظروفها الخافية علينا ، هي قوله تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ** . . . ﴾ « سورة الكهف : من الآية 26 » .

6 ـ والنصُّ كلُّه يخدم في نهاية المطاف قضية واحدة ، ويوظَّف لإبراز غرض واحد ألا وهو قدرة الله سبحانه وتعالى ، وتفرّده بعلم الغيب ، وتعليم رسوله إلى العالمين كيفية الانصراف والتمسك بالعروة الوثقى .

أما النتيجة التي نستفيدها ، سواء من هذا النص أو غيره من النصوص التي تقابلنا في كتاب الله ، فليس الوقوفَ عند الناحية الشكلية لدى مقابلة نص بنص ، وأعني بذلك التوافق أو الاختلاف في كلمة أو فعل أو حدث أو أشخاص أو أماكن ، وإنما النظر

إلى الاختلاف الجوهري في ثلاثة أشياء أساسية :

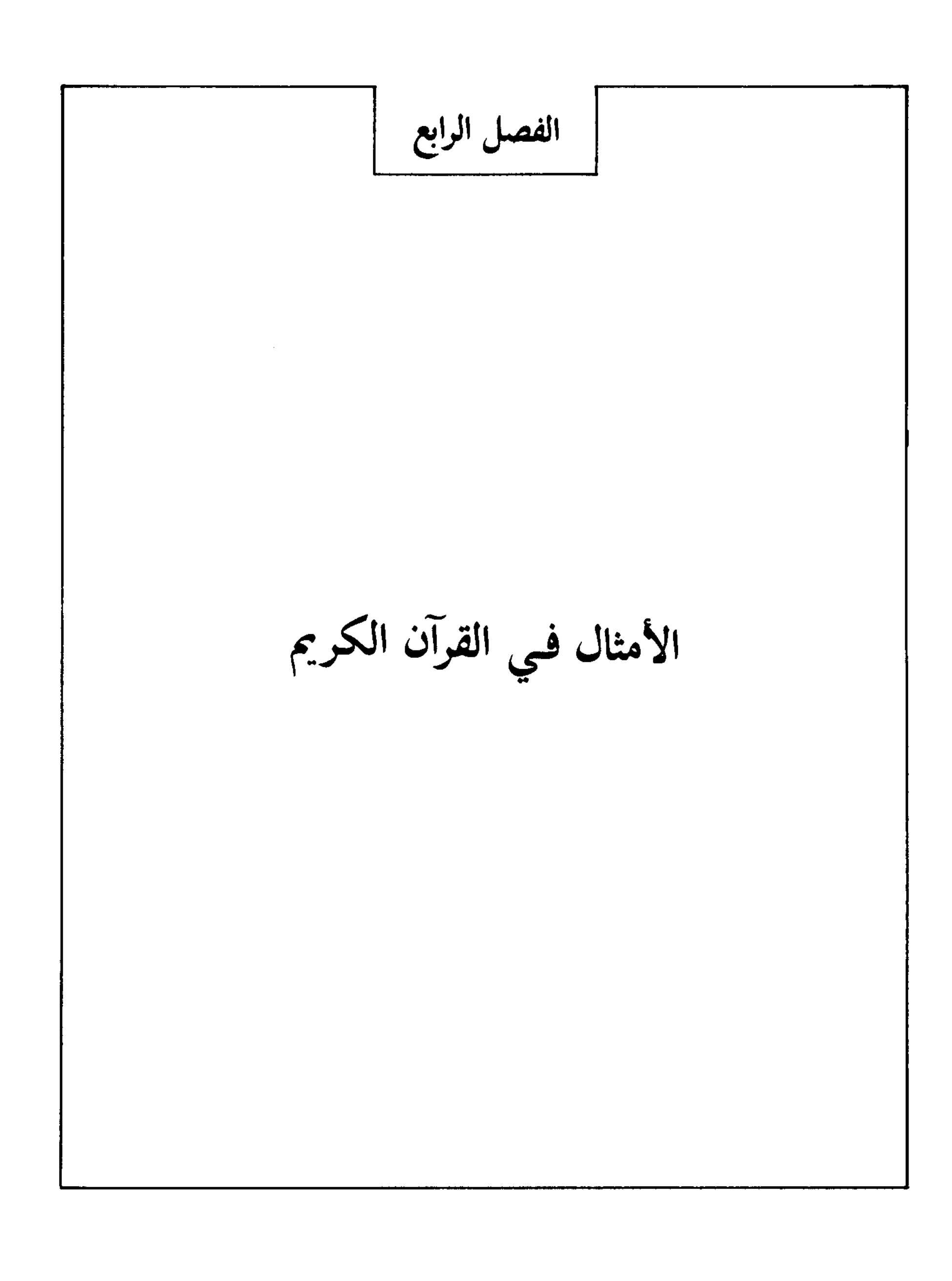
الأول : هو البناء الداخلي للنص ككل .

والثاني : الالتفات إلى الظواهر الخاصة والمتميزة في النص القرآني كما رأينا .

والثالث : الالتفات إلى استقراء الدلالات اللفظية والأسلوبية التي يستقل بها القرآن دون غيره من النصوص التي يمكن تتبُّعها لدى كل مَنْ كَتَبَ في إعجاز القرآن اللغوي .

وأما حرص المستشرقين الدائب على (تصيُّد) النظائر والمتشابهات ، واتخاذها ذريعة للتشهير بتبعية مزعومة للقرآن لغيره من الديانات ، فأمر مردود ولو تطابق ، ومرفوض ولو توافق ، لأن التشابه حدث في أشياء مشتركة بين كلِّ الناس ، وفي سائر العصور والأزمان ، فتلك الأخبار جرتْ على الأرض لا في أقطار السماوات ، ونُقشتْ أحداثها على الألواح والأدم لا على الأفق والأثير .

وأما تخوفُ بعضهم من مغبة الاختلاف ، واللجوء إلى الردود الضعيفة ، كتوسيع دائرة القول بالتحريف كلما تهلهلت الحجة ، فهو قول مأسوف عليه ، لأن القرآن يكتسب قوته من داخله ، وأصالته من خصوصيته ، وأن التشابه ـ إن وجد ـ لن يزيد في القرآن ولن ينقص منه ، لأنها نقاط لا تزيد على لغة عادية ، وأما اللغة غير العادية فهي مِلْكٌ له وحده استأثر بها دون غيره من الكتب والألواح .



الفصل الرابع

الأمثال في القرآن الكريم

فإذا انتقلنا من القصة إلى غيرها من الموضوعات ، وجدنا أن الأمثال في القرآن ، حظيت باهتمام كبير من قِبَلِ الدارسين الغربيين. فإذا أنعمنا فيها النظر جيداً ، اكتشفنا أنها خضعت لنفس المقاييس النقدية التي أُخذ بها القصص القرآني ، ونعني بذلك إخضاع الأمثال من الناحيتين الموضوعية والأسلوبية لواقع (التطور) التاريخي الذي شهدته الدعوة في موقفها من خصومها عرباً ويهوداً أو مشركين وكتابيين. و إذا كانت طبيعة الفترة التي مرت بها الدعوة هي التي حدَّدت ملامح النص القرآني من جميع جوانبه قبل أو بعد الهجرة ، مكية ومدنية ، توقيفاً ، لا اجتهاد للرسول فيه ، فإن المستشرقين يصرون على أن التغيير الطارىء على أسلوب الأمثال قبل وبعد الهجرة ، إنما يعود إلى العامل الشخصي ، أي استجابةً لمواقف معينة ، بشرية خالصة ، أملتها ظروف العمل (السياسي والاجتماعي) للمسيرة النبوية.

وخدمة لهذا الغرض ، وانطلاقاً من التفسير السابق ، جرى تصنيف الأمثال بحسب الفترة كما سنرى في الجدول المرفق الذي نقدمه مترجماً عن الأصل كما وضعه المستشرق تيودور لوهمان[1].

وقبل أن ندخل في تلك التفاصيل ، نود الإشارة إلى أن الباحثين قرروا منذ البدء مقابلة أمثال القرآن بأمثال الكتاب المقدس (العهد الجديد).

وفيما رأى المستشرق لوهمان تعذر إعطاء تعريف معين دقيق لكلمة مثل ، يقيناً منه بأن هذا الاصطلاح واسع جدّاً في مجالات استخدامه في القرآن الكريم كما سيتضح من الأمثلة التي ضربها ، فلقد اختار المستشرق ف.ي.بوهل[2] مدخلاً آخر يقدم به لموضوع الأمثال ، فحرص على تأكيد وجود تشابه كبير بين المتقابلَيْن ، وأن هذا االتشابه ليس عفويّاً بل هو وليد فعل منتظم ، وبخاصة إذا كان التشابه في صيغة مثلٍ ، على النحو الذي يرمز فيه إليه في السامية بنفس الكلمة (مثل في العربية ، وMāšāl في العبرية ، وMatlâ في الآرامية). ولقد اختار المستشرق لوهمان تسليط الضوء على الأمثال ومفهومها ، وتطورها من خلال التقسيم المكي والمدني ، بينما سلك المستشرق بوهل نهجاً آخر حين قرر توجيه النقد من الإتيان بالمثل وشبيهه في الأديان السابقة: « ولعل أول مظاهرها ، يتجلّى في عبارة

---

(1) Lohmann, Theodor, Die cleichnisreden Muhammeds im Koran I einfuehrung

« مَثَل » التي نجد لهامرادفًا في اللغات السامية الأخرى ، كأوجه الشبه بين مثل العربية ، و Mâtal العبرية ، و Matlâ الآرامية . لأنه بمجرد الجمع بين مثلٍ جارٍ على ألسنة الناس ، واستعمال فردي ، يصبح هذا الأخير صيغة شائعة لواقعة متكررة . وهذه الصيغة مألوفة في القرآن الكريم . وهي عادة ما تُقرن بالكلمة المنوّه إليها ، شخصًا كانت أو شيئًا . وتُصدَّرُ ـ هذه الكلمة ـ في أكثر الأحيان بحرف الجر « الكاف » ، وهو حرف ساميٌّ أي « كمثلِ » . ويستعمل التشبيه بصفة أقل بدون استعمال حرف الكاف ، كما جرت عليه العادة في العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس . « مثلُهُ في ذلك مَثَلُ » ، أو كما لو كان . ولكن الأغلب في القرآن الكريم ، استعمال الفعل « ضرب » .. ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ** ... ﴾ . ويلقي « محمدٌ » ـ هكذا جاء في الترجمة ـ أهمية خاصة على هذه الأمثال كوسيلة فعّالة ، ويشدِّدُ على دور الله فيها : ﴿ **وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** * ﴾ «سورة إبراهيم: الآية 25 » ، ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** * ﴾ « 59 ، 21 » .

* ومحمدٌ « يدري » أن الأمثال تقود إلى الهداية ، ويعلم أنها تؤدي بآخرين إلى الخطأ . وهؤلاء الناس هم الكفار الذين يتساءلون : ماذا يريد الله من هذه الأمثلة 26/2 . ويتولد هنا شعور بأنّ الأمثلة بالنسبة للخصوم هي بمثابة « غطاء » للأفكار الدينية الغريبة عنهم ، والتي أثارت فيهم روح النقد . ولعلهم لم يكتشفوا فيها أية فضيلة ، حين تسلب منهم عاداتهم اليومية . وعلى أية حال ، فإن محمدًا يبيِّن في الآية السابقة : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ... ﴾ ، لاستعمالها كصورة محسوسة ، وهي ملاحظة اقتضاها تذمرُ ونقدُ الخصوم في الجاهلية . ويعود في السورة 29 الآيات من 41 إلى 43 ليؤكد أن العالمين وحدهم ، هم الذين يعقلون مثل هذه الأمثلة :

﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ** * ﴾. والمقابل لذلك في إنجيل لوقا « 13 ، 13 » « فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضًا ، قال لهم ـ أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلِّمًا وسيدًا ، وحسنًا تقولون لأنني أنا كذلك .

فإن كنت وأنا السيد والمعلِّم قد غسلتُ أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضُكم أرجلَ بعض ، لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعتُ أنا بكم أنتم تصنعون أيضًا » .

و إذا تأملنا أمثلة القرآن بعمق أكبر ، خلصنا إلى أنَّ القسم الأكبر منها لا يفتقر إلى الوضوح والإصابة ، و أن محمداً في بعض هذه المواضع ، لا يملك أدنى دليل مادي أو حصانة أو تأثير . فقد اقتُبست هذه الأمثلة ـ التي يقر بها وهي حقائق موجودة ـ من بعض الظواهر الطبيعية ، و يوميات الناس ، وفي بعضها من الانطباعات الشخصية له . بحيث إن العلاقة بين الحين والآخر تعرض ، أن الله قد صاغ الأمور في الطبيعة على هذا النحو ، بحيث تعبر عن التعاليم الأخلاقية ، وبحيث تشير الأمثلة القرآنية إلى المتوافقات التي توجد في الطبيعة حقًّا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ *** ﴾ « سورة إبراهيم : الآيات 24 ، 25 ، 26 ، 27 » .

ومنها التمثيل في الآية 17 من سورة الرعد : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ *** ﴾ . ومن هذه الأمثلة ما نزل بحق الآلهة التي يعبدون والتي لا تفيدهم بشيء إلاَّ : ﴿ **لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ *** ﴾ « سورة الرعد : الآية 14 » .

وكان من الواجب أن تلقى على مسامع الملتفين حول النبي صورة كهذه الصورة : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ *** ﴾ « النور : الآيتان 39 و 40 »

* وأشد هذه الآيات تأثيرًا ، تهجمًا ، هو التشبيه الموجَّه ضد اليهود : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ**

﴿ ... حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... ﴾ « الجمعة : من الآية 5 » . ويتصدَّى أيضًا بنفس الشدة في الهجوم على أحدهم ، الذي يزعم أنه يريد أن يستميله إلى صفِّه ، ويُعتقد أنه من اليهود : ﴿ ... فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... ﴾ « الأعراف : من الآية 176 » ، ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۞ ﴾ « الحديد : الآية 20 » ، ﴿ ... كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾ .

* ومن الواضح أن هذه الأمثلة تذكِّرنا ببعض « الإصحاحات المأخوذة » ، من الزروع التي كانت أقرب إلى عيسى منها إلى محمد الذي ولد في وادٍ غير ذي زرع . والأصح أنه « محمد » قد اقتبس هذه الصور من الإنجيل ، 48 ، 29 . ﴿ ... ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۞ ﴾ .

وهذا يذكِّر بالإصحاح 13 ، 8 ، الذي جاء فيه . في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر . فاجتمع إليه جموع كثيرة حتى إنه دخل السفينة وجلس . والجمع كله وقف على الشاطيء . فكلمهم بكلام كثيرٍ قائلاً : هو ذا الزارع قد خرج ليزرع . وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق فجاءت الطيور وأكلته . وسقط آخر على الأماكن .. ولكن لما أشرقت الشمس احترق ، و إذا لم يكن له أصل جف ، وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه ، وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرًا . بعضٌ مئة وآخر ستون ، وآخر ثلاثون . من له أذنان للسمع فليسمع .

* إلا أن تأملاً أكبر ، يوضح كيف أن محمدًا كان يملك تصورًا غير واضح وغير دقيق من المضمون الفعلي للإنجيل . غير أن ثمة موضعًا يعطينا الأحقية للحديث عن التشابه . ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ

قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا * لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا * وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * ﴾ « الكهف : الآيات من 32 : 44 » .

فإذا أردنا أن نجمل القضايا التي سبقت، جاز تلخيصها في الآتي :

أولاً : محمد صلى الله عليه وسلم يدري » فأي نوع من الدراية تلك؟ دراية بشرية سبقت تلك الأمثال فأعدّ لها إعدادًا ، وهذا هو المراد من قوله على الراجح ، أم أنها دراية بالوحي وهي ما لم يردها الكاتب!؟ .

ثانيًا : الأفكار الدينية كانت غريبة على البيئة العربية . فأي أفكار تلك ، أو لم يقروا هم بأنفسهم أن الجزيرة عرفت الحنيفية والديانتين ما قبل الإسلام؟ .

ثالثًا : القسم الأكبر من أمثلة القرآن لا يفتقر إلى الإصابة والوضوح ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك أي دليل مادي أو حصانة أو تأثير ..

رابعًا : إن الأمثلة مستقاة من حقائق ومسلّمات ، دوره فيها كان « تقريريًا » وبعضها ناجم عن الانطباعات الشخصية .

خامسًا : والأمثلة الهجومية كانت موجهة إلى اليهود بشكل خاص ، لِمَ ؟ وكيف؟! .

ويسخر المؤلّف من استخدام الفن القصصي في الأمثال، فالقصة في الحوار : ﴿ ... فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ... ﴾ ــ تُظهر حسب رأي هذا المفتري ــ بوضوح ، كم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ، كانت تنقصه الموهبة ، بحيث يستدل بِمَثَلٍ كهذا ويمنحه حياة مستقلة . ولكي نستشعر حقيقة الهوّة ــ القول للمستشرق ــ لا نحتاج إلا لقراءة ما جاء في إنجيل لوقا ، الإصحاح 12 ، 16 لمقابَلَتِهِ .

وبينما تدور القصة كلُّها هنالك حول الرفع من إنسان الحياة ، وحول إيمان الإنسان بدوام عَرَض الدنيا الزائل ، تتحول الفكرة الرئيسة لدى محمد هنا للتهجم على الكفر .

وبينما يضع الموت هناك نهاية لأوهام الإنسان ، يستعمل محمد هنا أداة الخوف التقليدية عنده ، حين يترك الله يرسل صاعقة تهلك زرع الأغنياء ، دون أن يلاحظ أن الحقيقة لم تطابق مطلبه تمامًا .

ولعل إقناع الغني الذي تنتظره حياة أخروية أكثر سعادة من الحياة الدنيوية ـ في حالة وجود بعث حقًّا ـ هو النجاح النفسي الذي يرجع الفضل فيه إلى عدد من أعدائه في مكة .

* ولقد فتحنا إنجيل لوقا على الإصحاح 13 ، وقرأنا ما نصه : « كانت لواحد شجرة تين مغروسة في كرمه ، فأتى يطلب فيها ثمرًا ولم يجد . فقال للكرّام ـ هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمرًا في هذه التينة ولم أجد ،اقطعها لماذا تُبَطِّلُ الأرض أيضًا . فأجاب وقال له يا سيد . اتركها هذه السنة أيضًا حتى أنقبَ حولها وأضع زبلاً ، فإن صنعت ثمرًا و إلا ففيم بعد تقطعها .

* وتنتمي هذه الأمثال التي عرضنا لها أيضًا إلى تلك الزمر ، التي وجد فيها النبي فرقًا عميقًا بين المؤمنين والكافرين ، والمنافقين والصادقين ، ومن خلال صور واضحة . وأغلب هؤلاء صم بكمٌ عمي : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ *** ﴾ « سورة فاطر : الآيات من 22:19 » .

* والرسول يهوى انتزاع الصور المتناقضة من العلاقات الاجتماعية في بلده ، وبالذات من حياة الرقيق : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *** ﴾ « سورة الزمر : الآية 30 » ، ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ *** ﴾« سورة النحل : الآية 76 » والتشبيه هنا غير واضح وغير مطابق . هل المقصود الله والأصنام أم المؤمنون والكافرون؟ .

* كما أن الصراع ضد الغباء في عبادة الأصنام يوحي له بصور فعلية : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ**

وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * ﴾ « سورة الحج : الآية 73 » ، ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْكَانُواْ يَعْلَمُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ﴾ « سورة العنكبوت : الآيتان 40 و 41 » .

* وفي هذا السياق يجد المرء مجددًا أمثلة أخرى مستفادة من حياة الرقيق : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * ﴾ « سورة الروم : الآية 28 » والمقابَلَة المثيرة حقًّا 34 ، 35 في سورة النور التي تغص بالأسرار ، والتي تهب علينا منها نسمات غير التي وجدناها في باقي القرآن : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ﴾

والتشابيه المتعددة تجتمع في النهاية في معنى واحد وصفة واحدة . فيها نلمس روحًا من التصوف .

أما القصد من الملامح الفردية ، ما إذا كان لها معانٍ أعمق فذلك ما لا نعرفه ، غير أنه يمكننا أن نجزم بالخلفية التي تركها المنسك المسيحي على محمد . فالمصباح هو المصباح الليلي للمهاجرين ، الذي أشار إليه الشعراء العرب « امرؤ القيس » في أشعارهم ، والبيت هو المكان الذي يعتكف فيه الصالحون .

* وثمة سؤال يفرض نفسه هنا : لِمَ خلت المرحلة المكية الأولى من الأمثال؟والإجابة : إن « محمدًا » صلى الله عليه وسلم ، كان بإجماع الدارسين ، بمثابة مدرس ، كل همه ينحصر في إزالة المبهم من خلال النقاش تربويًّا ومن كل الجوانب ، وذلك بالأسلوب التقليدي المعروف : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ﴾ « سورة الفجر : الآيتان 6 و 7 » .

واللغة الآسرة ، والتمايل البلاغي الإيقاعي للسجع ، اللذان يأخذ فيهما عنصر الإثارة

والموسيقا في التناقص بمرور الزمن ، يظهران الرسول كرجل بأس وشدّة ، وكرجل متحمس موحى إليه ، ما زالت تحركه واقعة الوحي .

أما ما يختص بمضمون السور ، فهو مأخوذ من سجع الكهان الوثنيين . تتميز بصيغ القسم . ويعتمد فيها الطبيعة موضوعًا وشاهدًا على صدق رسالته ، أكثر مما يعتمد فيها على الله . وقد أحصى المستشرق « لوهمان » (72) آية كشاهد على ذلك . فيها ترغيب وترهيب لخصومه الذين أظهروا تشككًا في صحة رسالته وصدقية القرآن ، الأمر الذي حدا بهم إلى وصفه بالشاعر والمجنون ..!؟

ويندد الرسول بالمنافقين وعبّاد الأصنام ، بلهجة حادة منذرًا إياهم بيوم البعث والحساب ، لأنهم لا يريدون أن يعرفوا شيئًا عن حقيقة الإلَه الواحد ، الخالق للكون والإنسان . ويوجه تحذيره إلى الكفار ، في الوقت الذي يقدم لهم فيه نبذًا عن أقوام بادت . وينوه بالعذاب الأخروي ، وما ينتظرهم من عذاب في جهنم ، وإلى المؤمنين بضرورة تعظيم المولى ، ومزاولة الفرائض وعدم إهمالها ، وما ينتظرهم من جنات النعيم جزاء عبادتهم . وبكلمة جامعة يمكن أن نوجز أمثلة وأمثال المرحلة المبكرة المكية ، بأنها ، قسم ، وعيدٌ ، ترغيب وترهيب ، ولعنة ، تمثل في الواقع أنواع النص خلال الفترة المكية الأولى . وتلك المرحلة الإيجابية ـ الفعالة من الدعوة ، تعكس عالمًا آخر مختلفًا ، على العكس تمامًا من أسلوب الأمثال للمراحل المتأخرة التالية . وفي هذه المرحلة يبدو محمد أنموذجًا لواعظ أكثر منه معلِّمًا ، وذلك بالنظر إلى أن هذه الأمثال تسعى إلى هدف تعليمي ، بعبارة أخرى ، لكي يشرح للمستمعين الحقيقة الصعبة .

لذا فإنّ غياب نوع من هذه الأمثال في المرحلة المكية الأولى ، يعتبر منطقيًّا . وفي السور الإحدى والعشرين ، يرى نولدكه وشفالي « وهما مستشرقان ألمانيان » في تلك الأمثال انتقالاً من مرحلة الحماس نحو الاستقرار الكبير في السور الواقعية ، وأنّ ـ القوة المحركة الأصلية والإعجاب ـ في رأيهما ـ مهَّدَا ـ نتيجةً للإخفاق المتكرر ـ طريقًا لأمثلة أكثر هدوءًا وشمولاً . ففي قصص مطولة وجامعة ، وغالبًا مطنبة ، ينبري محمد لشرح دعوته مجددًا . والأمثلة المميزة المنتزعة من الطبيعة والتاريخ ، هي المؤشر على صحة مستقبل المؤمنين ، وعلى سوء عاقبة الكافرين ، لا تلبث أن تحلَّ محلَّ صيغ القسم والتحذير بشكل ظاهر . وهنا يتحول الرسول إلى أستاذ يريد أن يقوم الإقناع على أسس وأساليب تربوية

ويضرب بعض الأمثال المتفرقة . لذا فليس من العجيب كذلك ، إذا ما تصدَّرت المرحلةَ المكيةَ الثانيةَ تشبيهاتٌ ملأى بالرموز والصور والمقابلات والأمثال ، وفي قصص الأنبياء « نوح ، إبراهيم ، لوط ، موسى ، هود ، صالح ، وشعيب » .

* وفي سياق ردِّه على الخصوم : ﴿ **مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ** ... ﴾ « مثلكم » .. ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** * ﴾ ، فقد قدم الثموديون نفس المثال إلى صالح ، وقدمه سكان الغاب لشعيب ، وقوم نوح في الطوفان ، والمصريون لموسى ، وموسى لهارون من قبله . وكذلك في قصة مدينة أنطاكية ، : « يجري تشبيه عيسى من قِبَلِ خصومه بأهل القرية المحبوبين ، الذين لا يفرقونهم عنهم ، فيما يوجه أعداء محمد إليه تهمة الجنون : ﴿ ... **وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا** * ﴾ « سورة الفرقان : الآيتان 8 و 9 » .
* والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : كيف يجب ترجمة هذا المصطلح؟ ويجدر القول من حيث المبدأ ، إنه ربما كان من الخطإ الفادح في الأسلوب ، الإقبال على النص بإدراك مسبق لمعنى هذا المفهوم . فقد أظهرت الدراسات التي أُجريَت حول المصطلح « ماشال » أو (Maschal) بالعبرية في التوراة ، أظهرت بجلاء ، أي تنوع في المعاني يمكن أن يتضمنه هذا المصطلح في اللغات السامية . ونفس القول يقال في تفسير النص القرآني . فقد يكون الغرض منه السخرية والاستهزاء ، وقد يكون شيئًا آخر . وحيث إنه لا يوجد تطابق بين الصورة والتشبيه ، وإنما هناك تطابق تاريخي بين العصر القديم والحديث ، فإنه لا يجوز انطلاقًا من أسس بلاغية خالصة ـ أن يكون المراد « مَثَل » بمعنى « مماثل » : ﴿ **وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** * ﴾ « سورة الفرقان : الآية 39 » .

وبالاكتفاء بهذا القدر ، نعود فنوجز القضايا التي وردت في العرض :

أولاً : هو ، صلى الله عليه وسلم ، كانت تنقصه الموهبة حين استدل بهذا المثال : ﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ** ... ﴾ . ومنحه حياة مستقلة . وأن التهجم على الكفر لديه هو الغرض الأساسي والفكرة الرئيسة ، وأن إنجيل لوقا في عرض الفكرة كان أكثر توفيقًا من القرآن .

ثانياً : والرسول صلى الله عليه وسلم « يهوى » انتزاع الصور المتناقضة من العلاقات الاجتماعية في بلده .

ثالثاً : أشار « امرؤ القيس » في شعره إلى مصباح سورة النور ، وتلك صوفية النسك المسيحي في الإسلام .

رابعاً : ومضمون السّور مأخوذ من سجع الكهان؟!

خامساً : وعقدة العقد : كيف يجب ترجمة النص ، واعتراف صريح بالعجز؟!

* ومن الجدير بالملاحظة هنا ، أن سِيَرَ الأنبياء التي انتقلت من العهد القديم إلى الجديد ، كعيسى الذي أصبح مثالاً لبني إسرائيل ، ما لبثت أن أصبحت قدوة لمحمد وأنصاره ، والتي قال عنها خصومه : ﴿ . . . **إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** * ﴾ « سورة النمل : من الآية 68 » ، وفي ذلك جاء : ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ** * ﴾ « سورة الزخرف : 63 و 64 » . ولم تذكر الآية هنا ما إذا كان عيسى قد أيّد رسالته إلى قومه بضرب الأمثال ، فعيسى هنا ليس ضارب أمثال (يمكن الاقتباس من بعض ما جاء به) ، و إنما هو ذاته مثلٌ وصورة عن صدق رسالته الإلٰهية .

* والأمثال تختلف من رواية للواقعة التاريخية الواحدة ، بين ما جاء في الإنجيل وما جاء في القرآن . على سبيل المثال ما جاء في « سورة يس : الآيتان 13 و 14 » : ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ** * ﴾ الآية . وهذا المثال يذكّر بالمقطع 12 من قصة أصحاب العنب الشريرين . فمن الواضح هنا أن وجهات النظر المحلية مختلفة في القصة ، بالإضافة إلى اختفاء بعض عناصر القصة في القرآن (دافع الإرث وكلمة إكشتاين) ، في حين أن الإنذار بالعقاب بإفناء هؤلاء مشترك التشابه بين القرآن والكتاب المقدس . ولا حديث عن شخص رابع في الإنجيل (العهد الجديد) ، فتوما يتحدث عن ثلاثة ، ولوقا يتحدث عن أربعة .

لكن التشابه الشديد يقع في أول مثالين من سورة الكهف ، في الآيات : 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 : ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا**

بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وفجّرنا خِلَـٰلَهُمَا نهرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نفرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * ﴾ . والمثل يبدأ بالآية 32 ، فيها يحث الله نبيه محمدًا على ضرب ذلك المثل ، ومحمد هنا ، إن هو إلا نذير ناقل ، (مبلِّغ) . والمقصود هنا قصة (أم سلمة) . بينما يرى ابن عباس أنها تخص عيينة بن حصن وقد نزلت هذه الآيات عام 619 ميلادية .

* وتختلف اللهجة في الفترة المدنية ولنفس معاني الآية اختلافًا بيِّنًا : « سورة البقرة : الآية 266 » : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * ﴾ .

ولا يمكن تجاهل أن هذا المثل يشبه في مضمونه المثل الوارد في العهد الجديد حول الفلاحين الأثرياء ، إنجيل لوقا 12 ، 16 ، 21 : « وضرب لهم مثلاً قائلاً : إنسانٌ غني أخصبت كورتُه . ففكر في نفسه قائلاً ماذا أعمل لأنه ليس لي موضع أجمع فيه أثماري . وقال أعمل هذا . أهدم مخازني وأبني أعظم ، وأجمع هناك جميع غلاتي وخيراتي . وأقول لنفسي يا نفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة . استريحي وكلي واشربي وافرحي . فقال له الله : يا غبي هذه الليلة تُطلبُ نفسك منك . فهذه التي أعددتها لمن تكون . هكذا الذي يكنز لنفسه وليس هو غنيًّا للّه » .

في كلا المثالين نجد إشارة إلى تقدير الممتلكات الأرضية والاقتصادية بدوامها الأبدي . أما الاختلاف بين التشبيهين ، فيتجلّى في أن عيسى عليه السلام ، يظهر فقط ما ينبغي للمرء ألّا يفعله . في حين أنه ـ الرسول ـ في القرآن ، يرسم طريق الهداية الصحيح . فضلاً عن أن القصة لدى عيسى متطرفة . فالمحْقُ لا يمثل الممتلكات فقط كما هو الحال في القرآن ، وإنما يشمل الشخص نفسه . في القصة يُقتلُ الغني فجأة ، بينما تقع ممتلكاته في يد شخص آخر . وأصبح بالمستطاع التعجيل بالاستدلال بقول متّى حول هذين المثلين : 19 ، 23 . « قال له الشاب هذه كلُّها حفظتها منذ حداثتي . فماذا يعوزني بعد . قال له يسوعُ : إن أردتَ أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء

فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينًا . لأنه كان ذا أموالٍ كثيرة فقال يسوع لتلاميذه . الحقَّ أقول لكم إنّه يَعسُرُ أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات » .

ولا بد في النهاية من الإشارة إلى المصادر الآشورية المقدسة في هذا الصدد ، التي ورد فيها موضوع الأغنياء الأَغبياء في صِيَغٍ متنوعة ، والتي تساق بغرض استخلاص العبرة ، ونكتفي بهذا القدر : « ويشاهد آخيلدس جثة رجل ، دفعتها الأمواج نحو الشاطيء . وتبيَّن أنّ الرجل هذا كان في يوم تاجرًا ثريًّا . وتحدثه نفسه هنا : إن الإنسان يقول في هذا الرجل إنه كان غنيًّا وذكيًّا في الشؤون التجارية . فأيُّ فائدة أو مصلحة جرَّها عليه فعله وثروته ؟ وخاتمة ذلك كله أنّ الموت الزؤام قد أدركه . وما الذي يمنع أن يكون مصيري مثل مصيره ـ وفي رواية أخرى أكثر قربًا من مثالنا ، إن توماس الأرميني ، كان ابنًا لأحد الأثرياء الوجهاء . وقد كان دافعه إلى الهداية ما يلي : إنه كان كثير التأمل في مصير والده . كيف كان في يوم ما قويًّا وغنيًّا ، ولم يتبق له من ذلك شيء في النهاية أبدًا . لا من ولده ، ولا من ممتلكاته ، ولا من ثروته ونفوذه . لم يتبق له غير ذنوبه . وقد تكون الرواية على الصورة الآتية : وبالقرب من المكان الذي حلّ فيه إبراهيم عليه السلام ، عاش رجل قوي ، إنسانٌ منكر لله غير صادق . تسبّب في استعباد الأرامل والأيتام . وحين اشتكى منه المستعبَدون إلى القديس ، حذره الأخير من يوم الحساب . إلاّ أن الفتى لم يأبه لحديثه . ولما جنَّ الليل ، احترق منزله وتحول ما كان فيه إلى رماد . أما الرجل الغنيُّ فقد مرض ومات بعده بعشرة أيام . ومن ثَمَّ تشتت ماله . أما النخيل والأعناب ، فقد أمحلت هي الأخرى ، وما تبقى منها تقاسمته أسرته . ومات بعض عبيده والآخرون تمكنوا من الفرار .

ومن هذا كلِّه يتبيَّن أن القرآن بأمثاله ، لم ينهل متن مصدر محدَّد ، بل صاغ أمثلته من أجواء كانت فيها القصص عن عقاب الله لأولئك الأغنياء المنكرين لله محببة إلى قلوب الناس .

* لكننا في الفترة المكية الثالثة ، أي في إحدى وعشرين سورة . نصادف عددًا كبيرًا من الأمثال . والذي سار في المرحلة المكية الثانية سيرًا خفيفًا ، يبدو هنا في

المرحلة الثالثة جاهزًا .

فردًّا على خصومه من الكفار ، يضطر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرَّد مستعينًا بالأمثلة المستمَدَّة من الطبيعة والتاريخ لإقامة الحجة على صدق وأصالة دعوته .

وهنا يختفي العنف الذي لوحظ في المرحلتين المكيتين السابقتين . وبدلاً من السجع القصير ، حلَّت السور الطويلة بالتكرار المستمر . ونلاحظ ذلك في سورة يوسف الآية 2 ، ذات الجاذبية الخاصة سواء بالنسبة إلى اليهود ، أو بالنسبة إلى مسيحيي الشرق، وخاصة الآشوريين . وكثيرًا ما نقابل فيها نهايات لفظية متشابهة مثل : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ** * ﴾ .

وخلاصة القول : « إن المرحلة الثالثة من رسالة محمد ، ملأى بالأمثلة والأمثال المستمدة من ظواهر وأحوال الطبيعة . وليس من قبيل الصدفة وحدها أن نجد كثيرًا من الأمثال » .

وفي المرحلة الثالثة لا يوجد سوى مثال واحد يتناول سلوك البشر الخاص بممتلكاته الدنيوية التي أذهبها الله : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** * ﴾ « سورة يونس : الآية 24 » . والأمر هنا أيضًا ، لا يتعلق بمسألة النمو ، و إنما يخرج المعنى إلى معنى آخر . والجدير بالذكر ، ربما رأى محمد صلى الله عليه وسلم ـ « الحديث للمستشرق » ـ على الراجح بأم عينه نمو العشب المضطرد الذي يغطِّي سطح الأرض ابتداء من شهر النوار « فبراير » ، وذلك بعد مواته عقب شهر التمور « اكتوبر » والحرث « نوفبر » فاستلهم تلك الصورة .

وفي المثل الآتي صورة واقعية لأحد الأمثال التي (انتزعها) (محمد) من البيئة الأرضية : فقد رأى كيف أن الموسرين في فصل الشتاء ، يغيثون الأرامل والأيتام ، ويهبُّون لمساعدتهم ومواساتهم في ضائقتهم ، ويقدمون لهم الطعام بسخاء . ويتخذ من هذا المشهد رمزًا طيبًا على الكرم والإحسان . ينقله في صورة مجسمة عن الله ، أولئك الذين تحدث القرآن عن مناقبهم : « سورة النحل : الآيتان 75 و76 » ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا**

هَلْ يَسْتَوُنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ﴾ .

* وصورة السيد والعبد ينقلها محمد من البيئة على لسان الله : 75 و 76 ، ويمضي في تكبيرها وتفخيمها . والبكم صفة للأصنام ، حيث إن النطق والكلمة تجسدان الإرادة والنفوذ على الآخرين ، فإن البكم ، وهي الأصنام الخرساء ، لا نصيب لها من السلطان على الناس . وهو بهذا ـ أي الرسول ـ لا يمثل لشيء حيويٍّ ذي عنفوان . وفي الوقت الذي تطنب فيه السورة في الحديث عن صفات الله المخالفة للأصنام التي لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ، نجد الحديث في المرحلة المكية الأولى مقتضبًا مختصرًا « سورة الإخلاص : الآيات 1 و 2 و 3 و 4 » : ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ *** ﴾ .

غير أن الباحث يبتعد عن الحقيقة كثيرًا ، حين يزعم أن القرآن لم يبيِّن المقصود من الآيات 175 و 176 و 177 سورة الأعراف : ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ *** ﴾ .

وتصحيحًا لزعمه ، فإن الآية نزلت بحقِّ بلعم بن باعر . وقيل : كان أوتي اسم الله الأعظم وقيل النبوة ، فانسلخ منها ، وله حديث طويل . وقيل : إنه عنى به أمية بن أبي الصلت . (فأتبعه الشيطان) ، صيَّره لنفسه تابعًا من الغاوين . ووصفه الله بقوله : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ** . . . ﴾ ،

ولكنه ـ المستشرق ـ أصاب حين ذكر بأن الدافع على الراجح ـ من وراء عدم ذكر الشخص ـ ربما كان هو الشائع في القرآن : قلّةُ الاهتمام بالأشخاص مضرب الأمثال ، والطموح إلى النموذجية والبلورة وعموم القضايا . الغاية إذًا ، هو الأنموذج المحذِّر والمنذِر لأولئك المتجاوزين . وفي هذا المثل ، مثل الكلب لا يجد الرسول نفسه مضطرًّا للارتباط بوضع مسق . فمقابَلة الكافر بالكلب أنموذج

شرقيٌّ خالص . والكلب هو صورة الإنسان المحتقر المبتذل في المجتمع . والنبي يوشع ضرب المثل الآتي للعصاة والمهملين لواجبهم : « حراس شعبي جميعهم عميٌ . إنهم لا يرون شيئًا . جميعهم كلاب خرس ، لا تقدر على النباح ، إنها تحلم ، تتمدَّد ، تنام ، نهمة ، لا تشبع . . » .

والخلاصة ، فخلال 13 عامًا ، أي خلال الفترة من 609 ـ 622 م من الدعوة ، اكتسبت الأمثال أهمية خاصة . ولقد أثبتت الإحصائيات ذلك بجلاء .

ففي الفترة الأولى لم يكن ثمة أمثال . .

وفي الفترة المكية الثانية مثالان فقط . .

وارتفع عدد الأمثلة في الفترة الثالثة إلى أحد عشر مثالاً . .

وهذا الارتفاع الكمي ، يُظْهِر كذلك التحول في صورة الرسالة المحمدية . فقد تحول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من (كاهن) ونبي موحًى إليه إلى معلم . وقد تزامن هذا التحوُّل العددي بتحوُّل موازٍ في المضمون . وتجلَّى ذلك في الإقلال من أهمية الحياة الدنيوية في المرحلة المكية الثانية .

بعد هذا السرد ، لنجملْ النص في أفكار عامة :

أولاً : سِيَرُ الأنبياء انتقلت من العهد القديم إلى الجديد ، واتخذها الرسول قدوة كما في سيرة عيسى عليه السلام . أيُّ ضير في ذلك ؟

ثانياً : التشابه والاختلاف بين الأديان نصًّا وتاريخًا . أي قصد يكمن خلف هذه العبارة ؟

ثالثاً : والفكرة الأكثر إثارة للضحك ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ربما رأى بأم عينه نمو العشب المضطرد الذي يغطِّي سطح الأرض ابتداءً من شهر النوار « فبراير » فاستلهم من تلك الصورة ونسج على منوالها .

رابعًا : والقرآن لم ينهل من مصدر واحد ، والمراد واضح من العبارة ، إنها الشك في صدق القرآن ! !

وبإلقاء نظرة شاملة على استنتاجات المؤلِّفين ، سرعان ما يتبين لنا أن الغرض المنشود ، من الناحية التاريخية لا من الناحية البلاغية ، هو القول بمسايرة الغرض السياسي ، أو التغطية المرحلية للدعوة في أطوارها المختلفة ، تماماً كما رأينا في قصص القرآن .

إن أغلب الأفكار الواردة في التعليق على الأمثال ، يمكن إهمالها وعدم الالتفات إليها ، لأنها مسفَّةٌ ، لا ترقى حتى إلى مستوى النقاش والجدل ، وبالمقابل فثمت أفكار سنقف عندها لأنها أمورٌ قد تخفى حتى على أبناء العربية .

لكنني أؤثر أن أقدم للشرح بالنقاط المهمة الآتية :

إن الغرض الأساسي من أمثال القرآن ، هو خدمة العقيدة ، التحبيب إلى الإيمان والتنفير من الشرك ، ثم التوسع في فكرتي الخير والشر ضمن إطار العقيدة ، فإذا احتجوا بأن في الأمثال شيئاً شبيهاً بكلام العرب ، قلنا : إن كنتم تقصدون أن الشعر كان مرآةً ينظر فيها محمد كما في سورة النور ومصباح إمريء القيس في شعره الجاهل فلا ، أما أنه لسان العرب ولسان حال تجربتهم وتجربة الإنسان السابقة واللاحقة فبلى :

* روي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، كان جالساً بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن . فقال نافع بن الأزرق لنجدةَ بنِ عويمر : قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به . فقاما إليه فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادِقِه من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين . فقال ابن العباس سلاني عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ **عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ** ﴾ . قال : العزون حلق الرفاق . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاؤوا يُهرَعُونَ إليه حتى ... يكونوا حول منبره عِزِينَا

قال أخبرني عن قوله : ﴿ . . . **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** . . . ﴾ . قال الشرعة الدين ، والمنهاج الطريق . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم . أما سمعت قول الشاعر :

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى ... وبيَّن للإسلام دينًا ومنهجًا

(المأمون هو الرسول صلى الله عليه وسلم).

قال أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ** ﴾ . قال : في اعتدال واستقامة . قال وهل تعرف العرب ذلك . قال :

يا عينُ هل بكيت اربداد ... قمنا وقام الخصوم في كبد

قال أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ** . . . ﴾ قال السنا : الضوء . يقول

أبو سفيـان بن الحارث :

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلاً　　يجلو بضوء سنـــاه داجيَ الظلم

قال أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ . . . **مِن طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾ قال : الملتزق . قال وهل تعرف العرب ذلك : قال نعم : أما سمعت قول النابغة :

فلا تحسبون الخيـرَ لا شرَّ بعـده　　ولا تحسبون الشـرَّ ضربـةَ لازبِ

لقد طرح عليه في تلك الجلسة زهاء مئة وخمسين سؤالاً من كلام الله ، وابن عباس يجيب بمئة وخمسين من أشعار العرب . ولا ندري ما إذا كانت الأمثلة التي ذكرنا كافية أم نضيف بضع عشرات أخرى ؟

هذا عن كلام العرب والمصباح . فماذا عن الأمثال ؟

قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ** ﴾ . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام . ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال** » .

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا ، فمنها ما اشتمل على تفاوت في ثواب أو على إحباط عمل ، ومنها ما اشتمل على مدح أو ذم . وضرب الله الأمثال للتذكير والوعظ والحث والزجر ، والاعتبار والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس : فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص . الخفي بالجلي ، والغائب بالمشاهد . وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان بتفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله . ومن حكمة الأمثال تعليم البيان ، والبيان من خصائص هذه الشريعة . والتمثيل يصار إليه لكشف المعاني ، و إدناء المتوهم من الشاهد . فإن كان الممثَّل به مثله ، و إن كان حقيرًا كان الممثَّل به كذلك . والأمثال تبرز خفيات الدقائق ، وفيها تبكيت للخصم شديد الخصومة .

وقال ابن المقفع في الأمثال : « إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنس للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث » .

وقال إبراهيم النظام : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز

اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة » .

فإذا عدنا إلى شروحنا العربية للأمثال ، لا هذه الشروح التي ما أنزل الله بها من سلطان ، أدركنا هول الفجوة بين المعنى الحقيقي والمعنى الملفق المختلق . فانظر كيف وعى الصحابة الأولون القرآن وكيف فهموه . سأل عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم ترون أُنزلتْ : ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** ... ﴾ ؟ فقالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا « نعلم » أو « لا نعلم »! فقال ابن عباس : في نفسي منها شيءٌ يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربتْ مثلاً لعمل . قال عمر : أي عمل؟ قال : لعمل ! ! فقال عمر : رجل غني يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها . . ! !

وإذا كان هؤلاء أنكروا إنسانية عيسى ورسالته ، متعلِّلين قديماً بأن خلْقه لم يكن وفق السنن الطبيعية ، وأن محمداً أراد بهذا المثل الرد على النصارى الذين أبوا الاعتراف بنبوَّته ، ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** * ﴾ « سورة آل عمران : الآية 59 »[1] ، نسمع شرحاً مخالفاً على لسان الطبري : « إن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران الذين حاجوه في عيسى . قال وفد نجران : ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته . قالوا : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط إنساناً خُلِقَ من غير أب؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** . . . ﴾ .

وعن مثل الكلب[2] ، ﴿ ... **إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** ... ﴾ ، وحب الشرقيين إلصاق الصفات الدميمة بالكلاب ، يقول صاحب المنار : « . . . واللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش ، وأما الكلب فيلهث في كلِّ حال . وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته

---

(1) تفسير الطبري ، ص : 468 .

(2) تفسير المنار ج 9 ، ص : 407 .

هذه ، وهي أخس أحواله وأقبحها . . تراه كاللاهث من الإعياء والتعب بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة » .

وأما تفسير الآية المثل ، الذي تعجب منه المستشرق لوهمان ، وعاب فيه على محمد والقرآن الحط من الحياة ، في الوقت الذي رفعتْ فيه النصرانية من شأنها ومجدتها : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ** ... ﴾ يقول محمد فريد وجدي في « مقدمة المصحف المفسر » تحت عنوان : (الدنيا في نظر القرآن) : « ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها ، لتوالي آفاتها وتتابع حسراتها ، فلا لذة فيها إلا وهي مشوبة بألم ، ولا راحة إلا وهي مصحوبة بتعب ، فلم تصفُ لملك ولا عالمٍ ولا جاهل . ولكن الناس ، مالكهم ومملوكهم ، وعالمهم وجاهلهم ، ومؤمنهم وكافرهم ، و إن اتحدوا في هذا الذم ، فإن طرائقهم فيها على غاية التناقض . . اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة . . فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ والشرور . . » . حتى إذا جاء الإسلام ، أتى للأولين بأنواع العبر ليريَهم حقارتها : ﴿ ... **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** * ﴾ .

بهذه الحكمة العالية أشرب القرآن نفوس أهله خصلتين ساميتين : ترك الدنيا لعشاقها ، وثانيتهما ، أخذ ما يقيمون به أود حياتهم منها ، ويحميهم من الوقوع في أسر عبَّادها ، ولا نرى ديناً من الأديان حلَّ هذه المسألة على هذا النحو . .

وقوله في تفسير الآية المثل : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ** ... ﴾ ، إن محمداً نقلها من البيئة على لسان الله وكبَّرها وفخمها ، والبكم صفة للأصنام ، لأن النطق والكلمة يجسدان الإرادة والنفوذ على الآخرين ، فالرسول بذلك لا يمثل بشيء حيوي ذي عنفوان ، قوله السابق مردود . فالكافر عبدٌ مملوك لفساد عقيدته والغشاوة المضروبة على بصيرته بمعتقداته الفاسدة البالية ، بينما المؤمن قوي في فكره ، نافذ ببصره وبصيرته ، غني بعقيدته . لا يستوي هذا بذاك ، الفاشل المخفق برجل كامل العقلية والنضج والإدراك السليم .

فالكافر المشرك كالعبد الأبكم الأعمى . .

والمؤمن الموحِّد كالحر العاقل الراشد . .

وفي تفسير الآية : ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ** ... ﴾ ، يقول المرحوم سيد قطب[1] : « ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود ومعهود ، ويجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ولا الانتفاع به أصلاً ، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بدداً .

هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار ، فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله مفككة كالهباء والرماد لا قوام لها ولا نظام . . » .

وأما مثل الذبابة : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ۝ ﴾ « سورة الحج : الآية 73 » ، هذا المثل يراد به ضعف الآلهة وعجز الشركاء . والقرآن[2] يعلم عن هذا الضعف في صورة مثل : مشهد يصور الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل .

إنه النداء العام ، النفير البعيد الصدى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ** . . . ﴾ . فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب لا حالة خاصة ، ولا مناسبة حاضرة ﴿ . . . **ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ** . . . ﴾ . هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة : ﴿ . . . **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ** . . . ﴾ . كل من تدعون من دون الله .

والذباب صغير حقير ، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا

---

(1) قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ص : 75 ـ 132 .

(2) المصدر السابق ، ج 17 ، ص : 2443 / ط : 12 ـ دار الشروق .

ابن المقفع ، والنظام ص : 15 ، الأمثال في القرآن ، د . محمود بن الشريف ، دار مكتبة الهلال ـ بيروت .

﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** . . ﴾ « **سورة الإسراء : الآية 89** » .

وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير .

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز . . سرِّ الحياة فيستوي في استحالة خلقه من الجمل والفيل . . ولكن القرآن المعجز يختار الذباب الصغير دون الفيل الكبير ، لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن يُخل هذا بالحقيقة في التعبير ، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب .

فإذا قادتنا الأمثال إلى سورة النور ، وجدنا أنفسنا أمام معنيين ، إن المثل هنا لم يعد يتعلق بتشبيه عادي ، و إنما بأمر جلل يخصُّ الذات الإلَٰهية . هل يجرؤ أحدٌ على تحجيم النور الإلَٰهي وحصر سنائه تحت مرمى النظر؟ هل يتعلم الإنسان من هذا المثل كيف ينتقل بالمحسوس إلى المجرد ، وبالمحدود إلى المطلق ، وبالحاضر المنظور إلى الغائب اللامنظور؟ « ولكن نظرة إلى الآية الكريمة ـ كما يقول الدكتور بدوي[1] ـ ترى أن النور هنا ، هو النور الذي يغمر القلب و يشرق على الضمير فيهدي إلى سواء السبيل . أَوَ لا ترى أن القلب ليس في حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقي عليه ضوءه فيهتدي إلى الحق وأقوم السبل ؟! ثم ألا ترى في اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة القلب وقد لفَّه ظلام الشك ، فهو متردد قلق خائف ، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه كساري الليل المتخبط الذي وجد هذا المصباح؟) .

أما الأستاذ سيد قطب فيقول : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** .. . ﴾ النور الذي منه قوامها ومنه نظامها ، فهو الذي يهبها جوهر وجودها و يودعها ناموسها .

وأظن جازماً ، أن الرجل بتفسيره العلمي للنور ، سبق عصره الذي عاش فيه عقوداً حين قدم التفسير الآتي : « ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة ـ بعد تحطيم الذرة ـ إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور! ! ولا (مادة) لها إلا النور ، فذرة المادة مؤلَّفة من كهارب و إليكترونات تنطلق ـ عند تحطيمها ـ في هيئة إشعاع قوامه هو النور »[2] .

---

(1) **الأمثال ص : 112 .**

(2) **في ظلال القرآن ، ج : 18 ـ ص 2519 / ط : 12 ـ دار الشروق .**

وعلى ما يفصل الآن بيننا من مسافات زمنية وأخرى غيبية ، هو في الآجلة ونحن في العاجلة ، فقد وقعت عيني على خبر موثق مثير ، لا يختلف عن المعنى الذي ذهب إليه المفسر . إنه هذه اللقطات المدهشة للنور المنبعث من ورقة حية من أوراق الشجر ونور من كف آدمي[1] ..

إن الفتح العلمي الكبير الذي أدهش به العالم العربي الحسن بن الهيثم العالم ببصرياته (Optics) نبع من فهمه المتعمق لحقيقة النار . فقد خالف ابن الهيثم بنظريته في الرؤية كلَّ رأي سابق ، فبناها على النور المنبعث من الأجسام نفسها لا من النور الذي ترسله العين كما كان يُظَنُّ من قَبْلُ[2] . ولقد ذكر المحلِّلون الأجانب حديثاً أن ابن الهيثم حين وضع الأسس لنظرياته إنما تمثل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** .. ﴾ . ولقد عبَّر العالم الرياضي ـ الفيزيائي عن شيء من هذا القبيل أيضاً حين ذكر أن المادة تنتهي بانتهاء النور .

أما سيد قطب فقد ختم حديثه الذي ذكرنا منه جانباً بقوله : « ... فأما القلبُ البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون .. كان يدركها كلما شفَّ ورقَّ وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد صلى الله عليه وسلم ففاض بها وهو عائد من الطائف نافض كفيه من الناس ، عائذ بوجه ربه ، يقول : « **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة** » . وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج ، فلما سألته عائشة : « **هل رأيت ربك؟ قال** : (**نور .. إني أراه ..**) » .

وكلمة أخرى وأخيرة نختم بها موضوع الأمثال ، يقول الأصبهاني : ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال : فشت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء .

---

(1) **الصور مأخوذة من كتاب بعنوان** : Foszination des Unfassbaren ، **د . فيرنر . ف .بونين ، دار نشر** Dool Seste **ـ شترتغازت 1976 م** .

(2) **انظر ما تقوله المستشرقة زيجريد هونكه بالخصوص (كتابها العقيدة والمعرفة ، بترجمة المؤلف صادر عن دار قتيبة للنشر)** .

ولكن الأصبهاني بقوله (فشى) لم يقصد تأويلات المستشرقين المبنية على التخمين والظن ، وتفسير التصعيد في بنية المثل البلاغية على أنه تطور تاريخي يناسب المرحلة التي قطعتها الدعوة في انتقالها مع المخاطبين وتحولها من موقف لآخر بحسب الضرورات السياسية والاجتماعية ، وتصوير الاستعمال للمثل على أنه سلاح شَهَرَه محمد في وجه خصومه وبما يناسب عدتهم وتكوينهم وتركيبهم العقائدي بين مشركين وكتابيين ، أو مؤمنين قبل وبعد الهجرة .

إن الأمثال في كتاب الله ضُرِبَتْ للعبرة ولمن يعتبر ، وما أكثر العبر وما أقل الاعتبار ! !

ترجمةٌ لكشفٍ بأمثال القرآن الكريم موزعةً بحسب التسلسل الزمني كما وضعها المستشرق لوهمان:

الرقم	الفترة / المثل		الموضع
1 ـ	الفترة المكية الأولى	لا توجد أمثلة	
2 ـ	الفترة المكية الثانية	مثلان إثنان	
	الأول مثل الغني والفقير سورة الكهف الآيات (31 ـ 42)		
	والثاني مثل مقلب كفيه الكهف (43).		
3 ـ	الفترة المكية الثالثة	أحد عشر مثلاً	
	أشار المستشرق إلى مثل في الآية 77 من سورة النحل فلم نجد ذلك		
	وأشار إلى مثل آخر في الآية 78 من نفس السورة فلم نجده أيضاً		
	ومثل الرماد في سورة إبراهيم		14/ 18
	المثل المضاعف للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة		14(24 ـ 26)
	مثل العبد المملوك والشركاء		30/39
	مثل بيت العنكبوت		41/29
	مثل الأرض الحصيد		24/10
	مثل الكلب		176/7
	مثل الظمآن		14/13
	مثل الزبد		17/13
	الفترة المكية	ستة عشر مثلاً	
	مثل من استوقد ناراً فذهب الله بنورهم		17/2
	مثل البرق والرعد		2(19 ـ 20)
	مثل البعوضة		26/2
	لم نجد المثل		
	مثل حبات القمح		261/2
	المثل المضاعف لجنة النخيل والأعناب		265/2 266
	مثل الطير أو الريح الهاوية		31/22
	مثل الذبابة		73/22
	مثل الحمار يحمل أسفاراً		5/62
	مثل الريح الصرصر أصابت حرث قوم		117/3
	مثل الغيث الذي أعجب الكفار		20/57
	مثل نوره		35/24
	مثل السراب		39/24
	مثل الظلمات في البحر		40/24
	مثل الزرع		29/48

وقد عقب المستشرق لوهمان على هذا الجدول بقوله: «يستفاد من هذا، أن الرسول محمداً قد شرع في وقت متأخر نسبيّاً ـ أي في نهاية الفترة المكية الثانية تقريباً، أي بعد زهاء عشر سنوات من البعثة والشروع في الدعوة ـ في استعمال الأمثال. والملاحظ أن النصيب الأوفى من هذه الأمثال ينتمي إلى الفترة المكية الثالثة والفترة المدنية، بحيث إن السنوات القليلة التي سبقت ولحقت الهجرة تمثل قمة ضرب الأمثال. لذا فإن من مهمة هذا العمل أيضاً الكشف عن أسباب هذا التوزيع.





النور يتخلل الوجود : لقطة فريدة لورقة شجر قبل وبعد الذبول. لقد تمكنت العدسات الحديثة بالحيل المستحدثة من الكشف عن هذا الكم الهائل من النور . وكان يُظَنُّ إلى وقت قريب جداً بأن اللون الذي تراه العين هو كلُّ شيء..!

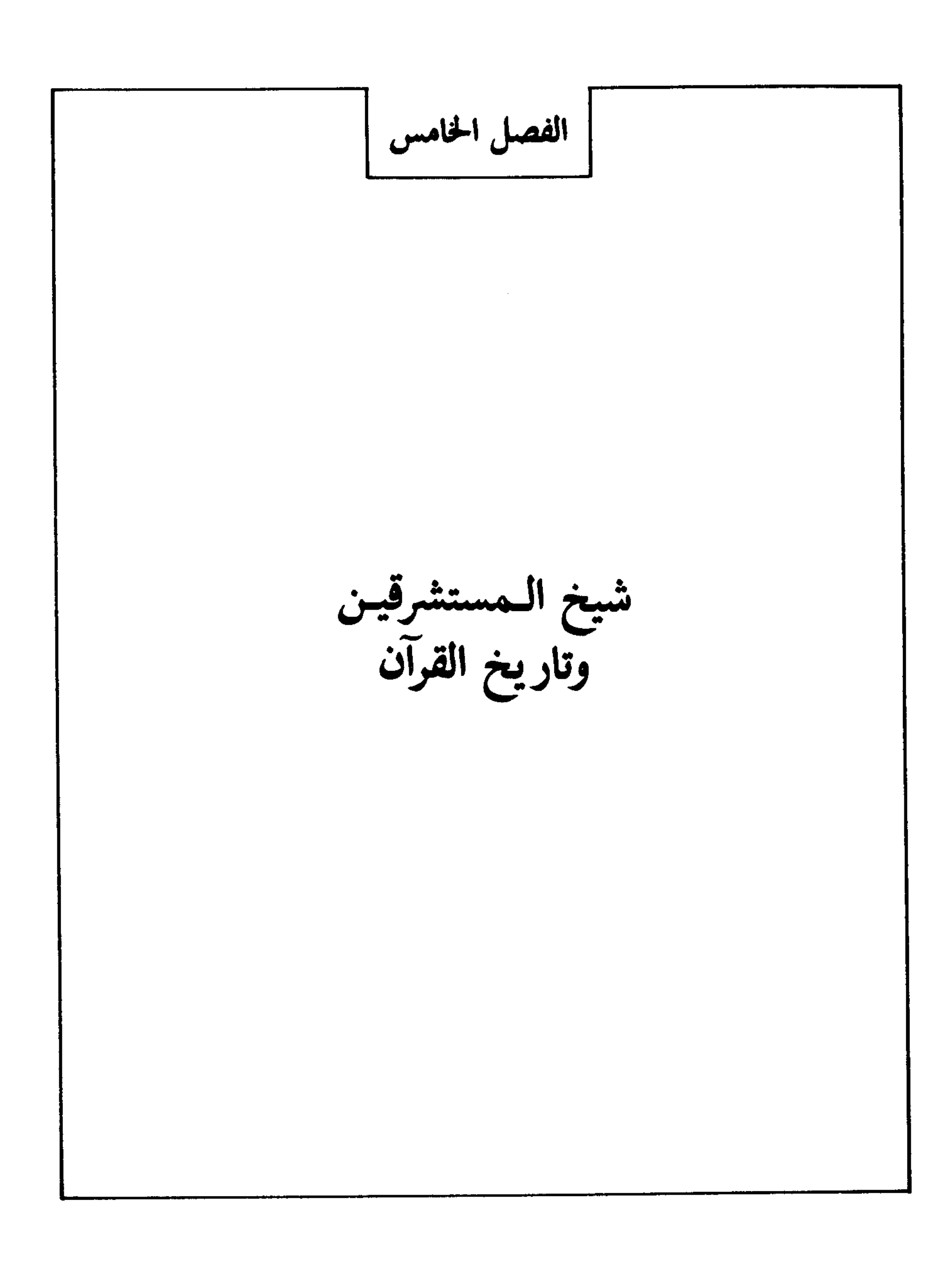
(الصور مأخوذة من كتاب : Faszination des Uneassbaren). ميونيخ ـ لمجموعة من الباحثين ـ وشتونتغارب 1976 م .



﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾.

سخر المستشرقون من آية النور، وزعموا أن النبي اقتبس معنى الآية من الشعر الجاهلي. وعجبوا أكثر من تمثيل القرآن للنور..!

.. والعالم الرياضي أ. آينشتاين، حين قدم نظرياته حول المادة، ذكر أن المادة تنتهي بانتهاء النور، كما أن العالم العربي، الحسن بن الهيثم، صحح نظريات من سبقه من العلماء، حين أثبت أن الجسم لا العين هو الذي يرسل الشعاع الذي يسمح بالرؤية. الجدير بالذكر أن الدارسين الغربيين الذين عكفوا على دراسة نظريات ابن الهيثم هم الذين ذكروا : « إن ابن الهيثم حين قدم مكتشفاته كان يفكر في الآية الكريمة : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾.



الفصل الخامس

شيخ المستشرقين وتاريخ القرآن

السمعة الكبيرة والشهرة العالمية لا تعفيان من الوقوع في الخطأ.

هذه المقدمة تمنيتُ لو جعلتها خاتمة للبحث لا تقدمة له وتصديرًا . وحيث إنني أتكلم عن شخصية ما انفك القوم يحرقون في محرابها البخور ، سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل ، حتى إن ناقدًا واحدًا لم يحاول يومًا الخروج على سنن الإطراء وقوانين الثناء ، رأيت أن أبدأ بتلك الكلمات ، لأنني قررت ـ ربما لأول مرة في تاريخ الترجمة لهذا العملاق ـ أن أكسر القاعدة وأخرج على التقاليد ، لأظهر بالشاهد والدليل أنه ـ تيودور نولدكه ـ تسنَّم مجدًا لا يستحقه ، على حساب اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم .

لكن هذا القول لا ينفي ثقافته ، ولا يلغي مكانته ، ولا يحُط من قدره العلمي ، إلا بالقدر الذي حاول فيه النيل من شأن القرآن ، والغضَّ من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والاستهانة بالعربية ، محدثًا بذلك خرقًا لا يريد أن يُرتق ، إنه كتابه الشهير (**تاريخ القرآن**) ومباحثه في الدراسات السامية .

فمن يكون تيودور نولدكه هذا؟ ولِمَ حاز على لقب شيخ المستشرقين ؟ ما سر هذا الإعجاب؟ وهل قدم للإسلام ـ كما يزعمون ـ خدمات لا تنسى؟

وُلد نولدكه في الثاني من شهر المريخ (مارس) عام 1836 في مدينة هامبورج . أيقظ فيه والده كعالم للغات القديمة رغبةً جامحةً لعلوم الأقدمين ما لبث أن لازمته طيلة حياته . ومن خلال مطالعاته وقراءاته لكتب الرحلات إلى الشرق ودراسة الآداب الشرقية ، أثرى معرفته بشعوب الشرق الأدنى وعمَّقها كما لم يفعل من قُدِّر لهم قضاء أعوام طويلة هناك . وفي الخامسة عشرة من عمره ، اضطر لقطع دراسته بسبب فقر الدَّم الذي ألمَّ به . وفي أثناء قعوده في المنزل ، انكبَ على دراسة اللغة العبرية بوسائله الخاصة دون عون خارجي حتى أعفي من هذه المادة بقرار من إدارة المدرسة التي كان يدرس فيها . وفي خريف عام 1853 التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقًا كما أفاد والده . وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد عكف على دراسة الفارسية والتركية ، ثم تعلم اللغة السنسكريتية بإشراف الأستاذ بنغاي .

وفي عام 1856 خرج مؤلف نولدكه الأول . وقد نجح في اجتياز المسابقة العلمية ، واعتُبر مؤلَّفه أطروحةً للدكتوراه، أما عنوان الكتاب فكان « حول نشوء وتركيب السور

القرآنية » ، وما لبث أن حكم تيودور نفسه على هذا العمل بأنه عمل غير ناضج فأبدل العنوان وأدخل في الكتاب تعديلات جوهرية وأطلق عليه اسم (**تاريخ القرآن**) Geschichte des Qurans . وبكتابه هذا فاز بجائزة أكاديمية المخطوطات الباريسية مشاركًا بذلك عالِمَيْنِ آخرين هما الألماني شبرنجر والإيطالي أماري . وحيث إن الكتاب قد كُتب باللاتينية فقد عاد وترجمه إلى لغته الأم وكان ذلك في عام 1860 م .

سنرجيء إلى مكان آخر الحديث في قيمة الكتاب العلمية وما قاله النقاد في هذا الخصوص لنسلط مزيدًا من الضوء على شخصية نولدكه وتكوينه الثقافي والنفسي ، لعل ذلك يساعدنا أكثر في فهم كتاباته وأفكاره وانطباعاته عن الإسلام .

في الفترة التي قضاها في مدينة (كيل) ، انصرف إلى دراسة العهد القديم Old Tastement الذي كان جزءًا مقررًا من المنهج الدراسي الذي يجب شرحه . واهتم بدراسة اللغة الأرامية في المقام الأول ، وأصدر كتابين : « **المؤلَّفات المختصة بالعهد القديم** » ، و« **أبحاث في نقد العهد القديم** » .

ويعتبر نولدكه واضع الأسس العلمية لدراسة اللغات السريانية والسريانية الحديثة . وكان من ثمار قواعد السريانية الحديثة ظهور بحوث اللغات السامية الحية التي تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة .

أما قواعد الآرامية فقد كوَّنت الأساس لفهم الأدب الآرامي الشرقي ، ولتفهم كثير من المقابَلات اللغوية السامية ، وكان كتاب (قواعد السريانية) الذي صدر من بعد ، وترجم إلى الإنجليزية ، عرضًا قيمًا لهذه اللغة التي تحتل أهمية خاصة بالنسبة إلى الشرق المسيحي . وبعد استدعائه إلى شتراسبورج عام 1920 م بعد إنشاء جامعتها الحديثة أصدر كتبه الحديثة ، وعقد حلقات الدرس التي كانت تتناول حقل اللغات السامية باستثناء اللغة البابلية . وألَّف نولدكه في شتراسبورج سلسلة كبيرة طويلة من الكتب وبخاصة في مجالات الدراسات العربية واللغات السامية المقابَلَة والخرافات الشرقية ، وألَّف في اللهجات العربية ، وتاريخ « رواية الإسكندر » ، وأضواء على تاريخ قصص (ألف ليلة وليلة) ، (وحياة محمد) ، وغيرها من المؤلَّفات التي لا ترتفع إلى أهمية ما أتينا على ذكره هنا لاتصاله الوثيق بما ننوي طرقه . عمَّر طويلاً وتوفي عن سن تناهز أربعة وتسعين ربيعًا .

إن هذا العرض المكثف لمواهب ومؤهلات الرجل والذي اقتبسناه من مقالة

للمستشرق الألماني الكبير إينو ليتمان ، يقدم بالطبع نبذة عن تنوع ثقافة نولدكه ، لكنه يعيننا في ذات الوقت على فهم كثير من الأمور التي سنأتي على ذكرها في حينها . وبذلك لا يكون قد تبقى لنا إلا أن نستمع إلى عدد من شهادات النقاد ، التي تعكس بشكل أو بآخر مقدار الإعجاب والاحترام اللذين استطاع نولدكه أن ينتزعهما في عصره ومن بعد وفاته ، على لسان نقاد من قومه ومذهبه ، وشهودٍ عربٍ لهم أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما ، بين أن نتهمهم بالجهل ، أو بالتجني المقصود على الحق . ولننصت أولاً إلى شهادات تحمل تبريرها في ذاتها ، فقائلوها مستشرقون يتبنون نفس وجهات نظر نولدكه حول المسائل التي تمسنا مسًّا مباشرًا ونعني في مجال الدراسات الإسلامية .

استمع إلى ما يقوله المستشرقان فوك وهورجرونيه : « بذكاء ثاقب ووضوح في الرؤية ، وبذاكرة قوية وسرعة بديهة ، سمحت له بالإبداع في كل حقل طرقه ، وبالوقوف على جوهر الأشياء وتمثلها بدقة ووضوح ، أنجز نولدكه ، كلغوي وباحث وناشر ، ومترجم ونحوي وناقد ، مقدارًا ضخمًا من العمل المثمر في هذه الحقول جميعًا ، بحيث يمكن اعتباره أكبر مستشرق ألماني في عصره . وإلى جانب ذلك ـ وهو الشيء الذي لا يتوفر دومًا في سائر العلماء ـ امتلك موهبة إدراك سليم بأكبر قدر مع تواضع ظاهر . ولم يكن شديد النفور من الرومانسية والتصوف وسائر أنواع العاطفة الهياجة الغامضة فقط ، بل من كل ما هو تأملي ، سواء كان عقيدة ، أو فلسفة ، أفكارًا تاريخية أو نظريات علمية »[1] . « . . ولقد لاحظ نولدكه وعرف ، كما لم يعرف غيره ، وضع الاستشراق ، وطبيعة المواد التي كانت تحت تصرفه . هذه العقلانية جعلت من بحوثه في مجال المنهج قدوة ستجد فيما بعد أيضًا كثيرًا من المعجبين ، حين تصبح الآراء والمعارف المكتسبة بهذا النهج ملكًا علميًّا مشاعًا للشرق . . » .

مثل هذا الرأي قابل للرد والنقاش ، ومجاله الحركي متسع بحيث يحتمل الأخذ والرد . أما الرأي الذي لا ينطوي إلا على الترديد الأعمى والمغالطة المقيتة فهو الرأي الذي قرأناه كما جاء على لسان الدكتور ميشال جحا : « . . هذا ، وتبقى كلمة أخيرة في إنصاف هذا العالِم الجليل ، هي أنه حاول في كل ما كتب أن يكون مثال العالِم المتجرد العقلاني فلم

---

(1) انظر كتاب : «الدراسات العربية في أوروبا» تأليف يوحان فوك باللغة الألمانية ، ج.ت. نولدكه.

يتجنّ في أبحاثه على الإسلام ، ولـم يحاول أن يدَّعيَ معرفة أشيـاء لـم يكن يعرفهـا ، ولـهذا جاءت آراؤه واضحة جليةً وخاضعة لصفة التجرد بعيدة عن الـهوى والتضليل »[1] .

وفي موضع آخر مـن كتـابه ، يستدل الدكتور جحا برأي الدكتور صلاح الدين الـمنجد في صيغة سؤال وجه إليه :

سؤال :

هل توافق على الرأي القائل : إن الألـمـان هـم أكثر الـمستشرقيـن موضوعيـة فيمـا يخص تـاريخنـا الذي كتبه الأجانب حتى الآن؟ و إذا كان الأمر كذلك فـمـا السبب؟

جواب :

« . . . لـم تحاول ألـمـانيـا أن تستعمر البلاد العربيـة ، لذلك نجا مستشرقوهـا مـن الخضوع للسيـاسة ، ولـم تحاول التبشير فنجا مستشرقوهـا مـن العبث بـالتـاريخ الإسلامي ، أو تفسيره علـى شكل يخدم أغراضهـم »[2] .

وللإنصاف ، فإنه لا يداخلنـا شكٌّ في أن الـمستشرق نولدكه ، كان موهبة فذة وعبقريـة نـادرة ، مظاهرةً فريدةً مـن نوعهـا خلال هذا القرن والقرن الذي سبقه . أمـا إنه لـم يتجنّ في أبحاثه على الإسلام ، فهذا قول عجيب . أُذكِّر أنه هو القائل : « صائغٌ غيرُ موهوب لسور قرآنيـة مشوشة الأسلوب » . هذه العبـارة قالـهـا في وصف القرآن الكريم والرسول صلـى الله عليه وسلـم . وفي موضع آخر ، اتهم كلَّ علـمـاء الـمسلـميـن بـالانحيـاز إلى ديـنهـم حيـن رغب في تبرير عجزه اللغوي ، و إحساسه بـالضعف عن مجاراتهـم في لغتهـم . ولكن كمـا سبق القول : إن الـمعرفة شيء والإنصاف شيءٌ آخر . هذه القاعدة سنطبقهـا علـى فصل واحد مـن كتـابه الأكثر شهرة « **تـاريخ القرآن** » . وقبل أن نشرع في جولتنـا الاستقرائيـة ، لنقدمْ عنه أولاً لـمحة عامة :

هو عمل نموذجي استحق به عن جدارة مكانة علـميـة رفيعة . وأصبح ـ الكتـاب ـ أحد الـمصادر الـهـامة التي ربمـا لا يستغني عنهـا بـاحث . هو عرض تـاريخي مفصل لكل الـمسائل والـموضوعات التي تتصل بـالقرآن الكريم مـنذ نزول الوحي وحتى صدور آخر طبعة للقرآن

---

(1) انظر الدراسات العربية في أوروبا تأليف ميشال جحا ص: 199 باللغة العربية.

(2) انظر « المستشرقون الألمان » تأليف المنجد ، ص : 183 .

الكريم في عصر المؤلِّف . ولعل الشيء المسترعي للنظر في هذا الكتاب :
ا ـ أنه جامع .
ب ـ غني بالمصادر العربية والأجنبية ، الشهيرة والمغمورة على حدٍّ سواء .
جـ ـ أحسن مؤلِّفُه الاستفادة من هذه المصادر كأحسن ما تكون الاستفادة .
د ـ وحرص فيه على إبراز سائر وجهات النظر حول المسألة الواحدة .
هـ ـ ودأب على الاستدلال بالأمثلة والشواهد القرآنية واللغوية والمأثور عامة .
و ـ واتبع في عملية الاستقصاء والاستدلال منهجًا أكاديميًّا صارمًا .
ز ـ ووضع بذلك منهجًا حديثًا مستقلاً اعتبر في كثير من الأحيان أساسًا لما سيليه من دراسات .

من هذه الناحية إذًا لا يُشقُّ له غبار . لقد ملك كل أدوات البحث . وهذه الحقيقة لن تعميَنا عن رؤية الحقائق الأخرى . غير أن تقويمنا لموضوعٍ ـ أي موضوع ـ لا ينبع من الانبهار الساذج بعمق وتنوع وغنى الشخصية الباحثة ، بل من التتبع الموضوعي الأمين لمراحل البحث ذاته ، وفي الدراسات القرآنية ، من استخلاص النتائج ، فإذا تضاربتْ ، تحدَّد الخطأ في تقنية البحث ، أو في الاستعدادات الفطرية ومداها للتفاعل الصادق مع ما لا يدرك بالحواس والأدوات ووسائل البحث الظاهرة .

إن هدفنا بكلمتين إذًا : هو استشفاف الكفاية المنهجية ، واختبار استعداد الملكات الخاصة على خلع الإهاب الغربي ، وتقمص الشرق تقمصًا روحيًّا وفكريًّا ونفسيًّا كاملاً ، ثم معاينة مدى تطابق النتائج ، في ضوء المنهج والمعرفة ، والاستعداد في الاندماج ، وفي نزاهة الحكم أولاً وأخيرًا .

المصحف العثماني

إن الفصل الذي ننوي أن نطلعك عليه وأن تشاركنا فيه ، ذُكر تحت عنوان : « أخطاء المصحف العثماني » . تقبَّل معنا هذا الفرض على مضض ، لكي تستطيع ربط المقدمة بالنتيجة ، ولتكتشف بالتالي : أيَّ عالِمٍ هذا الذي أثنى عليه (علماؤنا) العرب ، وقالوا : إنه خدم الثقافة العربية ، ولم يُسيء إلى الإسلام أبدًا . . ! !

في الباب الثالث من هذا الفصل يقول ما نصه : كون مصحف عثمان ، كما أصدره كُتّابه لم يبرأ من الخطإ تمامًا ، فذلك شيءٌ مسلَّمٌ به فيما مضى من المسلمين أنفسهم . فبين أيدينا عدد من الشواهد ، يُشار فيها مباشرة إلى أخطاء كهذه . . أشهرها تعقيب عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه على مصطلحات صارخة الخطأ ، بعد أن ألقى نظرة على النسخ الجاهزة : « . . . وجد فيها حروفًا من اللحن فقال : **لا تُغيِّروها ، فإن العرب ستعربها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والمُمِلُّ من هذيل** » .

وقولٌ آخر نُقِلَ عن عائشة أم المؤمنين إشارة إلى ثلاثة مواضع من السورة 177/2 (والموفون) ، ومن السورة 162/4 ﴿ **لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ** ... ﴾ ، (بدلاً من : المقيمون) ، والسورة 69/5 ، ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ** ... ﴾ (بدلاً من : الصابئين) . والسورة 63/20 . ﴿ ... **إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ** ... ﴾ بدلاً من : هذين . قالوا : هذا عمل الكتّاب أخطؤوا في هذين .

هذه أخطاءُ لغوية ـ والحديث لنولدكه ـ حدثت بالنقل ، ولكن هناك أخطاء أخرى في المضمون . السورة 27/24 : ﴿ ... **لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ** ... ﴾ ، خطأ إملائي بدلاً من (تستأذنوا) ، وقضى : ووصى في السورة 23/17 ، وهو خطأ نتج بسبب سيلان الحبر على الورق .

ـ ولعل الأكثر جرأة ، حين يقابل نور الله (بالمشكاة) ، للاعتقاد السائد بأن الله أكبر من أن يقابَل نوره بمصباح 35/24: ﴿ ... **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ** . . . ﴾ ، فيُبيّنُ من لَدُنْ الكاتب على أنه نور المؤمن دون أدنى تردد .

ـ ويستفاد من كلِّ المأثور أن في النص العثماني ما لا سبيل إلى تغييره حتى ولو دَاخَلَهُ خطأ . وفي الروايات المنقولة في زمن مبكر ، يتجلّى التغيير بشكل واضح . غير أن هذه الأخطاء تحمل (تبريرها) معها : فالمسؤولون عن النص القرآني ـ والحديث دائمًا لنولدكه ـ أي عثمان بن عفان وعُمَّالُه ، والنبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، يترفعون عن الخطإ وتهمة التقصير في اللغة والمضمون . . بحجة أن ذلك يُعزى إلى خطإٍ ارتكبه الكتاب . على أية حال ، فإن إيماننا راسخ بأن هذا دفاع ساذج ، نابعٌ من نظرة إنسانية تلقائية وغير مدروسة حول إعداد نسخة القرآن الرسمية ، بحيث إننا نرجع هذه

الأحكام حول القرآن إلى وقت مبكر جدًّا .

ـ أما الموقفُ المعلَن القديم ، فيتلخص في أن المسلمين لم يطيقوا صبرًا على مثل هذا الخرق ، و إنهم سرعان ما استبدلوه كما حدث في المواضع التي سبقت الإشارة إليها ومئات غيرها لم يجرؤ العرب على التصريح بها .

إن هذه التغييرات التي وصلت إلينا ، تُظهر أن الخرق الذي حدث هو أكثر بكثير ـ لغةً ومضمونًا ـ مما وصل إلينا . فإذا امتنع الناس عن التغيير ، ولم يستطيعوا إنكار الخطإ في النص ، فلا يبقى في هذه الحالة سوى اتفاق واحد ، وهو القرآن خلافًا لما هو مكتوب . (والمقصود بهذه العبارة ـ والكلام لنا ـ أن الألسنة عُقدت والأفواهَ كُمَّتْ ، وأن الاعتراض كان ممنوعًا ، والجميع مطالبون بمباركة الخطإ وأن تصحيحه لا يكون إلا بالقراءة المخالفة التي كان يراها المسلمون صحيحة . . !) .

ولقد أورد نولدكه رأي السلف على هذا في الصفحة (5) من هذا الفصل وعلى الراغب في الاستزادة الرجوع إليه ، فأكبر همنا هنا متابعة منهجه كما ذكرنا في البداية .

انظر إلى هذه العبارة : « . . . وبعد أن فرض حكم السابقين نفسه ، أصبح المأثور القديم حول الأخطاء في النص القرآني مدعاة لعدم الارتياح . أصبح من الواجب تلافيها بواسطة (الجرح) ، أو تأويلها ، أو رفضها . وفي مقدورنا تحديد تاريخ بداية هذه المحاولة على وجه التقريب ، بينما كان أبو عبيدة (223 أو 224) يعمل بالمأثور دون تردد ، سهر ابن الأنباري (327 أو 328) والطبري (310) دون هوادة على إنقاذ النص العثماني . ولن أتطرَّق هنا إلى مصير النسخ الأربع من مصحف عثمان ، والمؤلِّف يرى أن النسخة المشهورة منه تخالف النص الرسمي المدني» .

انظر : « . . . إن اجتهادات المسلمين في الجرح والتعديل والتأويل حدثت كردَّة فعل على فرض حكم السابقين ، ولم تحدث باعتبارها إحدى العلوم التي تفرعت بتشعب الحياة واختلاف الأمصار واتساع الرقعة وتعدد المدارس . .» .

ـ لا بأس ، فلنتابع : « . . ولنتحدثْ في الخصوصيات الهامة لضبط المصحف العثماني ، ولنبدأ بالأمثلة أولاً» : ولا أُرانا في حاجة هنا إلى إعادة الترقيم فالمسألة كما نرى تتعلق أولاً وأخيرًا بالإدغام :

إما : إن ما .

أنما : أن ما .

كأنما : كأن ما .

ربما ــ مهما ــ نعما .

أينما : أين ما .

بئسما : بئس ما .

من ما : مما .

عن من : عمَّن .

عن ما : عما .

أن لا : ألاَّ .

أم من : أمَّن .

أقصى المدينة : أقصا المدينة .

تراءى الجمعان : تراء الجمعان .

خطايانا : خَطَيَٰـنَا .

ها أنتم : هَٰـأنتم .

فعلناه : فَعَلْنَٰه .

تستأخرون : تستئـخِرون .

ويستئذن : ويستأذن .

والتاء المفتوحة بدل المربوطة مثل : قرأتْ ، رحمتْ ، نعمتْ ، شجرتْ ، جنتْ ، آيتْ ، ثمرتْ ، كلمتْ . . إلخ . . ويناقش مسألة الوقف هل يوقف على الهاء أم على التاء؟؟ !

أما حكمه عليه؛ فيتلخص في أن المصحف العثماني يؤلِّف وحدة متماسكة نسبيًّا بالقياس إلى عدد الآيات المطابقة الكبيرة ، أو القراءة التي تشترط مقدمًا نصًّا ملائمًا . أما (الاضطراب وعدم الاطمئنان) فيقتصر على حقلين كبيرين الهمزة (à) ، الكتابة بدونها ، والفصل أو الجمع بين كلمتين صغيرتين (جزءين) . . !

قراءة ابن مسعود

من بين المجموعات الكبيرة للقراءات والاختلافات غير العثمانية ، ثمت مجموعتان تستحقان المعالجة المستقلة ، لابن مسعود وأُبَيٍّ . والسبب هو الثقة بما نقل عن كِلِي الرجلين ، حيث كان في حوزة كلٍّ منهما مجموعة (قرآن) خاصة به . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ، ما إذا كانت القراءات والاختلافات التي ترجع إليهما من مراجعتهما . ولكي نقترب من الإجابة على هذا السؤال ، لا بد أولاً من جمع هذه الاختلافات والقراءات بالقياس إلى النص المعتمد .

أمثلة

مَنْ : الَّذين .

ارشدنا : اهدنا .

يَخَطِّفُ : يخطف .

حتى : حتى يطهرن .

متذبذبين : مذبذين 143/4 .

وتذكروا : واذكروا .

وتزينت : وازَّينت .

يصّعّدُ : يَصْعَدُ .

يساءلون : يتساءلون 101/23 .

فوسوس لهما : فأزلهما 36/2 .

وثومها : وفومها 61/2 .

يقتلون : يذبحون 46/2 .

راعونا : راعنا 104/2 .

ما نُنسك من آية أو : ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها106/2 .

آلوا : يؤلون 226/2 لَتَغْوِينِ : لَتُرْدِينِ 56/37 .

يا مال : يا مالك 77/43 .

بعيس : بحور 54/44 .

نحيا ونموت : نموت ونحيا 24/45 .

ولسيعطيك : ولسوف يعطيك 5/93 .

الله الواحد : قل هو الله أحد . الله 1/112 ـ 2 .

قل للذين كفروا : قل يا أيها الكافرون 12/3 .

القيم : القيوم 2/3 .

وسابقوا : وسارعوا 133/3 .

والمنطوحة : والنطيحة 3/5 .

والسارقون والسارقات : والسارق والسارقة 38/3 .

مولاكم : وليكم 55/5 .

فجزاؤه : فجزاء 95/5 .

تكن : تكون 114/5 .

وهذا صراط ربكم : وَأَنَّ هذا صراطي 154/6 .

المخيط : الخياط 30/7 .

غفور رحيم : عليم حكيم 106/9 .

زاغت : كاد يزيغ 117/9 .

ولا تضروه : ولا تضرونه 57/11 .

عتى : حتى 35/12 .

يمشون : يمرون 105/12 .

أفظن : أفحسب 102/18 .

ساحران : لساحران 63/20 .

لنذبحنه ولنحرقنه : لنحرقنه 97/20 .

معيق : عميق 28/22 .

تخرج الدهن : تنبت بالدهن 20/23 .

الجاهلين : الضالين .

فلكزه : فوكزه 15/28 .
ومكرًا سيئًا : ومكر السيىء 43/35 .
منقلبهم : مرجعهم 68/37 .

لقد قام المستشرق جولدزيهر بعرضٍ لمعالجة اختلافات وقراءات ابن مسعود جمعاء من منطلق الخروج على نص القرآن الأصيل .

هذا ، في الوقت الذي توجد في هذه القراءات حالاتٌ غُيِّر فيها النص العثماني (خطأ) ، أو أنه سمح فيه بالتعرف ـ على الأقل ـ إلى دافع للخروج على النص العثماني ، بحيث يمثل ابن مسعود المرتبة الثانية . ولعل الأهم ـ إن لم يكن على رأس هذه الدوافع ـ ما جعله جولدزيهر في المقدمة ، وهو تجنب المخالفات في المضمون ، أو التوضيح المضموني ، أو البيان اللغوي في النصِّ ، يضاف إليه تجنب الإضافات أو (الأخطاء) ، (أو خشونة الأسلوب) ، أو الرقة العامة والتسهيل . على أنه لا ينبغي النظر إلى نص ابن مسعود عامة ، على أنه صحح ، حيث إن هذه النعومة تصادفنا ، أو تتلاقى معه بعثمانيته .

ولقد زعم جولدزيهر في دراسة المرادفات في نص ابن مسعود ، أنه توصل إلى أنها أثر نعومة ولكن ليس بشكل مضطرد .ومن هذا يُستفاد أحد أمرين : إما أن المصحف العثماني (هو من الدرجة الثانية) ، أو أن كثيرًا من المواضع القرآنية ـ وهذا هو الراجح ـ كانت دارجة بالمشافهة في صيغ مختلفة ، واختلفت فيما بينها من استعمال مختلف المرادفات ، وأن مصحف ابن مسعود أو كلا (المصحفين) ـ منفردين وبشكل مباشر ـ نهلا من ذلك الأصل . لكن الأكثر احتمالاً هو الاقتباس المباشر من المأثور بالمشافهة في أغلب الأحيان ، بحيث إن ابن مسعود يقدم بالمقابل صيغة أكثر موافاة في الشرح أو الكتابة . وواقع الحال أن العلاقة ترجع إلى أن مغزى الجملة بالنسبة (للمواضع) كانت لا تزال حية ، **وإنه حاول إعادتها مرة أخرى كأفصح ما تكون كتابيًا** ، وقد تميَّز عن واضعي النص العثماني بطموح شديد من أجل الحصول على مصطلح (تعبير) كتابي مفهوم ، طالما ترك له عدم كمال الخط . فإذا سلَّمنا باحتمال منشإ كثير من الاختلافات من الشفوي المأثور (لا يكترث المؤلِّف إلى اللهجات إطلاقًا) ، إذًا يجب الاعتراف أيضًا باحتمال أخذ سهولتها وسلاستها ، وتصحيح قراءتها اللغوية . ومن

الصعب الحصول بالطبع على قرار حاسم بشأن هذه المواضع .

أما أن جملة الاختلافات المنسوبة إلى ابن مسعود هي ذات منشإ واحد نسبيًّا فهذا أمر جائز . إنها تستجمع عن طريق تكرار نفس الملامح في مختلف المواضع دون أن تتحد بطريقة مريبة . ففي كل مرَّة تؤدَّى الآية بطريقة ملائمة .

وكما لا يعرف ، ما إذا كان ـ إليه أو لغيره ـ هذا التغيير يصعب كذلك تحديد زمن تغييره . ولا يمكن الاعتماد على النتائج التي تقدمها لنا أسانيد أبي عبيد والطبري ، هذا باستثناء المواضع التي تتضمن المصاعب ، أو التي اختلفت وجهات النظر من حولها والمتعلقة بشرح معاني القرآن . وهذه الأسانيد تقدم لنا عمومًا انطباعًا طيبًا ، حيث إنها لا تبعد كثيرًا عن القرن الثاني للهجرة .

قراءة لويس بالمبسيسته

وننتقل إلى ما يسمى مصحف (LEWIS PALIMPSESTE) ، نسبة إلى A.MINGANA و LEWIS . وهو كناية عن صحف قديمة متآكلة ربما يرجع تاريخها إلى العهد العثماني 1940؟ . وهذه الأوراق محفوظة في ثلاث مجموعات (ا ـ ب ـ جـ) بحسب نوع الخط . ويلاحظ في بعضها القراءات المهجورة . ويتحدث عن رسمها أيضًا ويورد أمثلة كثيرة على ذلك . الجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تشر إلى هذا الرسم والقراءات فما نطلبه فيها قليل . وأكثر الاختلافات هي من النوع الناشيء عن الخلل غير المقصود بالمشافهة والتدوين . إن طبيعة الخطوط لا تشير إلى قدمها كما هي الحال بالنسبة للرسم والضبط . ونخلص إلى أنه لا علاقة للاختلافات بالمصحف ، بل هي ناشئة عن عوامل متأخرة لنص غير عثماني . ومن الصعب رد هذا الاختلاف تاريخيًّا استنادًا إلى ما يتوفر لدينا من مصادر . كما أنه ليس هناك أي ارتباط بين هذا النص ونصوص كل من أُبَيٍّ وابن مسعود .

استنادًا إلى جمع (لويس بالمبسيسته) ، يزعم آ. منجانا وجود نصوص قرآنية طويلة يرجع عهدها إلى ما قبل مصحف عثمان : إن الوثائق الآشورية المتأخرة المضادة للإسلام العائدة إلى BARASALIBI المتوفى سنة 1171 ميلادية من أتباع المذهب اليعقوبي (المسيحية الجديدة) ، تحتوي على بقايا لترجمة القرآن الكريم . وقد زامنت عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، أي القرن السابع الميلادي ، وهي تمثل اختلافًا ظاهرًا عن النصوص التي بين أيدينا .

وبمراجعتها توصلنا فورًا إلى أن هذه النصوص لم تقتبس في أي وقت من مصحف آشوري ، بل ضمت في أصلها (النص الأصلي) من قِبَلِ كاتب مسيحي عربي مضاد للنصرانية كمستندات ، ونُزعت فيما بعد من ترجمة آشورية أو إعدادٍ لهذا الهجوم ، وتَمَّ جمعه بمثابة مشروع لقرآن . وقد خلصنا إلى هذه النتيجة من طراز وترتيب الآيات ، وبقدر أكبر من الانقطاعات . إنها تظهر أنها انتزعت قسرًا من السياق ، وما قُصَّتْ من أجله من وحدة النص القرآني ، هذا فضلاً عن مؤشر آخر ، وهو اختلاف ترجمة نص الآيات عن تكرارها في مواضع مختلفة ، بل في الآية الواحدة . وهذا كله لا يتوضح قط إلا حين يكون المترجم قد عثر على الآية القرآنية ذاتها في مشروعه مرارًا ، وقام بترجمتها في المرة الثانية دون اكتراث لترجمته لها في المرة الأولى . إن صدورهما من عمل موجه ضد الإسلام ، كما هي الحال في هذه المخطوطات عمومًا ـ على علات إملائه ـ لا يفصح عن مخالفات للنص العربي ، بل عن واقع آخر ، وهو اختلاط الأصل الأصيل من القرآن بالدخيل الموروث . إنها باختصار لا تقدم شيئًا لأقدم نسخة قرآنية . إنه يمكن إهمالها فهي لا تستحق الدرس .

قراءة أُبيّ

ونبدأ بالأمثلة أولاً كما هي مبينة في الجدول :

عرضها : عرضهم 31/2 .

بـالذي : بمثل مـا 136/2 .

قبلة : وجهة 144/2 .

ويُشهد : ويَشْهَدُ 204/2 .

وليهلك : ويهلك 205/2 .

بردَّتهن : بردِّهن 228/2 .

متـاع : وصيـة 238/2 .

صَلَوٰة اِلعصر : الوسطى 138/2 .

التـابوه : التـابوت 248/2 .

ويقول الراسخون : والراسخون يقولون 7/3 .

فعلوا : أتوا 188/3 .

وأكفلـهـا : وكفَّلـهـا 37/3 .

وأنزل اللـه على إسرائيل : وكتبنـا عليهم 45/5 .

فكروا : ففسقوا 44/43 .

إن ذان إلاَّ ساحران : إن هذان لساحران 63/20 .

لَذكر : لَعلـم 44/43 .

وبذلك أيضًا أُلحقت الروايـة القائلة بـأن عثمـان بن عفان رضي اللـه تعالـى عنه ، أرسل ، لدى عرض نسخ القرآن الكريم ، عامله هـانيء اليزدي بلوح كتف شاة كتبت عليه الآيـة 261/2 إلـى أُبَيٍّ ، وإن هذا الأخير غيَّـر (يتسن) بـ (يـتسنه) و(للخلق) (لخلق اللـه) و(فأمهل) (أمهل) ، أي إنه أعاد الصياغة العثمـانيـة (الجدير بـالذكر هنـا أن عمرَ بن الخطاب رضي اللـه عنه اتخذ موقفًا مضاداً مـن أُبَيٍّ) .

وجاء في الأثر حول ضبط أُبَيٍّ أنها بعيدة جدًّا عن إمـالة عثمـان ، بـاليـاء وسط الكلـمة (يد) ومثال ذلك للرجال : للرجيل .

إن الصورة التي حصلنـا عليها مـن النص الـمـنسوب إلـى أُبَيٍّ أقل ملاءمة مـن النص المنسوب إلى ابن مسعود ، ومـن القراءة الـمتعجلة يلاحظ الاحتكاك الوثيق بيـن النصيـن . أما أن كلا النصين قد تلاقيا في التغييرات بالرغم من استقلالها فذلك أقل ترجيحًا مـن احتمـال

تلقيهما الشفوي من مصحف عثمان ، و إلا فالراجح أن أُبيًّا هو الذي أخذ عن ابن مسعود لأنه الأغنى والأوثق (للمزيد من الاطلاع ص : 93) .

وهذه المحصلة ، بأن ما نسب إلى أُبَيٍّ من شكل النص في الأصل والترابط يظل دون نص ابن مسعود ، يفرض بالضرورة السؤال ، حول ما إذا كان ينتمي إليه فعلاً دون تدخل من أحد؟ فالإسناد بنية الأخذ موجود . فلان . . عن فلان ! !

وحصولنا على بقايا مواضع أصلية من مراجعات أُبَيٍّ احتمال ضعيف .

ومن الممكن بالطبع أن جانبًا من هذه الآيات ، وحتى تلك التي تتكرر لدى ابن مسعود مشابهة أو مساوية تمامًا تُردُّ إليها ، لا يمكن إقامة الدليل عليه .

هذا الاختلاف في طبيعة المأثور عن ابن مسعود وأُبَيٍّ له أسبابه الوجيهة في اختلاف الشروط الظاهرة لتأثير كلا المرجعين .

إن أُبيًّا ـ كما يُظهر لنا التضارب حول تاريخ وفاته ـ لم يعد يلعبُ بعد وفاة الرسول دورًا مهمًّا . وهو ـ سواء أكان ذلك بسبب وفاته المبكرة أو كان لأسباب أخرى ـ قد أُزيح عن المسرح (السياسي) .

إن استمرار انتشار (مصحفه) ، (قراءته) وجب أن يظل مسألة شخصية خالصة ، في حين أن ابن مسعود ـ بصفته حاكمًا للكوفة ـ انتهز هذه الفرصة لإضفاء الصفة الرسمية على (مصحفه) . وقد استغلها بنجاح . كما أن مصير النسخ القرآنية لكلا الطرفين ظل كذلك مختلفًا . أما أن نسخة أُبَيٍّ سبق ضياعها ، فيندر وجود ما يؤكد ذلك . أما عن نسخ مراجعات ابن مسعود فقد تناهى إلى علمنا الكثير المؤكد عنها .

انتصار (مصحف) عثمان

إن أغلب المتغيِّرات التي سبقت الإشارة إليها تمتْ بيد أصحاب الرسول أو التابعين ، أما أسماؤهم فتتراوح بين المتقدم والقديم ، بحيث إن البياناتِ المقابَلَة تَمَّ انتقاؤها من الأسانيد البعيدة زمنيًّا . وبحسب نظرية العصر المتأخر في الحديث ، فإن جميع الأسانيد ترجع في النهاية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، و إلا فما كان ليصدق فيها اسم قرآن . لذا فلا عجب إن لم تُثِرْ القراءة المخالفة لقراءة عثمان في الإسلام أية دهشة ،

وإنها بالرغم من ذلك نُسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والأغرب من ذلك أن عثمان نفسه هو رائد التغيير .

وسواء أقدم عثمان على (محاولة) التخلص من نسخ القراءات المخالفة ، أو أن الحجاج بن يوسف هو الذي فعل ذلك ـ هذا في حالة اقتلاع كلِّ القراءات الذي لم يحدث ـ فقد عُلق ذلك على شرط الاعتراف بهذه القراءة فقط ، وإن مثل هذا الاعتراف النظري بقراءة عثمان ، **كان من الممكن سريانه ـ وبشرط توفر الحرية الكاملة في معالجة النص كما رُسم أيام الرسول ـ لو أن مثل هذا العمل لقي تجاوبًا لإعادة كلمة الله كما نزلت .**

يُروى عن أنسٍ بنِ مالكٍ أنه قال : « إن القرآن كله صواب ما لم يجعل رحمة عذابًا أو عذابًا رحمة » .

أو ما ذكره الطبري من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك للكُتَّاب الحرية في كتابة أواخر الآيات : « **إن الله عزيز رحيم . . سميع عليم . . عزيز عليم** » . إن رواية ابن مسعود حول تلميذه الذي كان عاجزًا عن نطق (التاء) تكشف عن الكيفية التي تمت بها كتابة القرآن ، هذا بالرغم من اعتراض ابن الجزري الشديد : « وأما مَنْ يقول : إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه » .

لقد كثرت هذه الروايات لدى تفجر الخلاف حول أصيل القرآن . وحين وضع **عثمان والحجاج حدًّا متطرفًا** لهذا الاختلاف في النصوص ، رغب آخرون في التغلب عليه عن طريق التسامح ، وهنا يبرز الحديث إلى الوجود مرّة أخرى : « **إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف**».

غير أن كلاًّ من الفريقين والاتجاهين حقق غرضه . المصحف العثماني شق طريقه إلى التنفيذ ، واعتُرف من جهة أخرى بالقراءات المخالفة على أنها كلمة الله أيضًا . ثم جاء علم النسخ الذي يعتبر كل قراءة عثمانية منسوخة . لكن الاختلاف في القراءات ليس اختلافًا على أمور هامشية دائمًا ، هذا في الوقت الذي تشترط فيه القراءة على سبعة أحرف اتفاق الدلالة مقدماً.وهنا جاء دور الطبري.فربما زعم بعض العلماء أن الغاية من هذه القراءات مجرد توضيح لما التبس من معنى ، لكن علوم القرآن لم تتمسك بهذا الأمر . إن أنس بن مالك كان أول من رفض الصلاة بقراءة ابن مسعود . وتحول الأمر فيما بعد بين جمهرة العلماء عن غايته وصار الجدل يدور حول القصد والنية في ذلك

التغيير وبما يصح أو يفسد العبادة . واستمر الجدل بين العلماء . .

وبعد أن استقر الخصام إلى غير مصلحة القراءات غير العثمانية ، حاول المُقَّريُّ الخروج على القاعدة ، حيث قرأ المخالف في المحراب ولكن دون توفيق . ثم مَثُل المُقَّريُّ أمام القضاء بإشراف الوزير ابن مقلة لإعلان توبته ، وحين رفض أُمِرَ بكتابة تعهد بالتقيد بقراءة عثمان . ثم هرب ليلاً من بيت الوزير ، فأثار ذلك حنقًا شديدًا في صفوف المسلمين ، ولا يُعرف ما إذا غادر إلى المدينة أو إلى البصرة .

إن الشخص الذي طارده مطالباً بمعاقبته كان خصمه القديم ابن مجاهد (324) ، الرجل المتطرف في علم القراءات ، فلم يسمح إلا باختلاف طفيف في قراءة عثمان رضي الله عنهما وأرضاهما .

يروي صاحب الخصائص : « دخلت يومًا على أبي علي ـ رحمه الله ـ خاليًا في آخر النهار . فحين رآني قال لي : أين أنت ؟ أنا أطلبك . قلت : وما ذلك ؟ قال : ما تقول فيما جاء عنهم من حوريث ؟ فخضنا معًا فيه فلم نحل بطائل منه ، فقال : هو من لغة اليمن ومخالف للغة ابني[4] نزار ، والأصمعي يحكي أن رجلاً من العرب دخل على ملك ظفار ، فقال له الملك : (ثب) فوثب الرجل ، واندقت رجلاه ، فقال الملك : ليست عندنا عربيَّتْ ، من دخل ظفار حمّر ؟ وقال اللغوي الشهير عمرو بن العلاء : (وما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء ما يؤيد ذلك أيضًا ، يستفاد من رد النبي على وفود اليمن من همذان : (يا رسول الله ، نصيبة من همذان ، من كل حاضر وبادٍ ، أتوك على قلص نواج ، متصلة بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مخلاف خارف ، ويام ، وشاكر . عهدهم لا يُنقض عن سنة ماحل (المّشاء بالنميمة) ولا سوداء عنقفير (الرجل شديد الدهاء) ما أقام لعلع (اسم جبل) وما جرى اليعفور بصلع (اليعفور ، الظبي ، ولعلع اسم جبل) .

فكتب النبي صلى الله عليه وسلم : « **هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخلاف خارف وأهل جناب الهضب ،وحفاف الرمل مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومَنْ أسلم من قومه أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها ويرعون عفاها . لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم**

من الصدقة الثلب ، والناب ، والفصيل ، والفارض الداجن ، والكبش الحوري ، وعليهم الصالغ والقارح) . قال القلقشندي في شرح الغريب منه : « الفِراع بالكسر ما ارتفع من الأرض ـ والوهاط جمع وهطة وهو ما اطمأن من الأرض ـ والعلاف بالكرج علف كجبل وجبال ، المراد به ما تعتلفه الدواب من نبات الأرض ـ والعزاز ما صلب من الأرض ـ والعفاء ، الدارس ـ والدفء نتاج الإبل ـ والصرام ، النخل ـ والناب المسنة ـ والثلب ذكر الإبل ـ والفصيل أولاد الإبل ـ والفارض المُسنّ منها ـ والصالغ ، البقر والغنم في السنة السادسة » .

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت : (**من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة** (الملوك) **من أهل حضرموت بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة . على التبعة الشاة** (ما تجب فيه الزكاة من الإبل والغنم) ، **والتيمة لصاحبها ، وفي السيوب الخمس** ، (العطاء أو المال المدفون أو المعدن) ، **لا خلاط ولا وراط** ، (الخلاط مصدر خالط ، يفعله الرجل بإبله أو بقره ليمنع حق الله تعالى ، والوراط ، جعل الغنم في وهدة الأرض لتخفى على عامل الصدقة) ، **ولا شناق** ، (والشّنَاق ، المشاركة في الشنَق وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة) ، **ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى وكل مُسكر حرام** » .

هذه النماذج من غريب الألفاظ إنما تعمدنا ذكرها لسبب واحد : لإظهار الفرق بين اللهجات النزارية واليمنية ، الأمر الذي دعا عليًّا كرم الله وجهه ـ وقد سمع كلمات من النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث بها إلى بني نهد ـ إلى القول : « **نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره** » .

والقرطبي عندما يعرض لتفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تَيَسَّرَ منه** » يقول : قال قوم هي سبع لغات في القرآن ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وهي القاسم بين القبائل الأخرى والتي نزل القرآن الكريم بلهجتها .

لكن ذلك لم يترك بغير ضابط ، فالمصاحف التي كُتبت في عهد عثمان تسمح بالمختار من القراءات إذ كانت مجردة من النقط والشكل ، وظلت اللغة العربية هي الميزان الذي يحتكم إليه بالمطابقة ولو بوجه ، وكذلك المصاحف العثمانية ، أي

التوافق بين المعاني عند اختلاف القراءات ، وشرط صحة السند . وقد أخذ القراء السبعة أنفسهم بهذا القيد : فقال أبو شامة (. . . فلا ينبغي أن يُغتر بكلِّ قراءة تُعزى إلى واحد من هؤلاء السبعة ويُطلق عليها العتمة و إن هكذا أنزلت إلا إذا أدخلت في ذلك الضابط . فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا عمن تنسب إليه فإن القراءات المنسوبة إلى كلِّ قاريء من السبعة وغيرهم مقسمة إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجتمع عليه في قراءاتهم تركَنُ النفس إلى ما نُقِل عنهم فوق ما يُنقل عن غيرهم » .

إن قريشًا بعد أن أخذت من لهجات العرب أصفاها وكانوا يأتونها للحج أو التجارة ، نزل القرآن الكريم بلغتها ، وسمح لهم أن يقرؤوه بلهجاتهم ، بل كان القرآن الكريم يتناوب اللّفظ الواحد ، حجازي اللهجة مرّة ، وتميميها تارة أخرى حسبما يستدعي الحال . وبذلك عمل القرآن الكريم على تضييق الشُّقَّة بين لهجات العرب .

ونعود من حيث بدأنا ، إلى المستشرق نولدكه وموضوع الخطإ في المصحف العثماني . فهذه ليست المرة الأولى التي يشار فيها إلى الاختلاف بمثل هذا اللفظ الذي كان من الممكن أن يستبدل بلفظ آخر دون أن يخلِّف أثرًا سلبيًّا كالذي تركه على جملة النص . لقد احتج غيره من واقع القرآن الكريم بالآية : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ . وردّ عليهم العالم ابن قتيبة بالرّد المناسب : (. . . إن القرآن نزل على لهجات العرب ليقرأ كلٌّ عربي بلغته وما جرت عليه عادته ، فالهذلي يقرأ (عتى حين) « حتى حين » ، والأسدي يقرأ (تِسودُّ وجوه) بكسر التاء و (ألم إعهد إليكم) بكسر الهمزة في أعهد ، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز . . . ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً لاشتد ذلك عليه) .

رب قائل : ولكن نولدكه استند إلى مقولة عثمان رضي الله تعالى عنه ، و إلى حديث « الخطإ » أو (خطأ الكتاب) المنسوب إليها ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ أو تحديدًا (باللحن) في القرآن كما في قوله تعالى من سورة طه : ﴿ . . . **إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ** . . . ﴾ وفي سورة المائدة : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ** . . . ﴾ وفي سورة النساء : ﴿ **لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ**

وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ... ﴾ وهي أمثلة ، من آيات كريمة استدل بها نولدكه على ذلك اللحن ، لكن ابن قتيبة يردُّ هذه الفرية أيضًا حين يحيلهم على كلام العرب ولغتهم وأساليبهم فضلاً عن آراء علماء النحو ، ومن ذلك لغة بلحارث بن كعب إذ يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه وركبت علاه .

ومن أقوالهم :

أي قلوص راكب تراها

طاروا علاهن فطر علاها

فكان القوم يقلبون الياء الساكنة ألفًا إذا انفتح ما قبلها . وفي قوله تعالى الذي استدل به الباحث . بسم الله الرحمٰن الرحيم : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ** . . . ﴾ يقول ابن قتيبة : رفع الصابئون لأنه رد على موضع ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** . . . ﴾ وموضعه رفع ، ومن أساليب العرب في هذا قول ضابيء البرجمي :

فمن يكُ أمسى بالمدينة رحلُهُ

فإني وقيارٌ بها لغريب

وفي نصب المقيمين أسند إلى أبي عبيدة قوله : هو نصب على تطاول الكلام بالنسق ، ومن أساليب العرب في هذا قول الخرنق بنت هفان :

لا يبعدن قومي الذين هُمُ

سُمُّ العداةِ وآفةُ الجُزُرِ

النازلين بكلِّ معترك

والطيبون معاقد الأُزُرِ

ومن أمثلة ما احتج به المستشرق نولدكه أيضًا كأخطاء تُعَدُّ بالمئات ما نطلق عليه لغة (الإبدال) . وقد جاء في تأويل قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا** . . . ﴾ فذكر أن قراءة عبد الله بن مسعود (ثومها) بالثاء . فقال الطبري في تفسيره : فإن كان ذلك صحيحًا فإنه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في عاثور شر وعافور شر وكقولهم للأثافي أثاثي . وللمغافير مغاثير وما أشبه ذلك مما تُقلب

الثاء فاء والفاء ثاء لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء .

وفي جدية مبطنة بالسخرية ضرب لنا مثلاً على التلميذ الذي لم يكن يستطيع أن ينطق حرف التاء فأعفاه معلمه الصحابي من نطقها « . . . على حساب القرآن هكذا » ، ونسي أنه كان يشار إلى آيات بعينها . . على أنها قرئت بأداء الأعاجم الذين لم يستطيعوا التخلص من طباعهم في أداء لغتهم الأصلية .

وتحدث عن اختلاف الإمالة بين مصحف عثمان ومصحف أُبيٍّ وكأنها مستحدثات أتت بها القراءات ، ونسي أن الإمالة متأصلة في العربية من قبل : والإمالة هي العدول بالألف إلى الياء أو الكسرة ،وقيل: إن الأصل فيها كان هو الفتح . ولما كان الأداء الصوتي يميل دائمًا باتجاه الأسهل ، فكان الانحدار نحو الأسفل أخف على اللسان من الارتفاع به نحو الأعلى . وأما من فتح كما يقال في النشر فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل .

ومن الخصوصيات التي تحدث بها عن مصحف عثمان ، لا باعتبارها قراءة ، ولكن مخالفة (الهمز) . والقراءات نبّهتْ إلى الهمز الذي كان من الفوارق المميزة بين لهجتي الحجاز وتميم . يقول ابن الجزري : (. . . ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقًا وأبعدها مخرجًا ، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف ، كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم تخفيفًا له ، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح وكنافع من رواية ورش وغيره ، وكأبي جعفر من أكثر رواياته ولاسيما رواية العمري عن أصحابه عنه ، فإنه لم يَكَدْ يحقق همزةً وصلاً ، وكابن محيصن قاريء أهل مكة مع ابن كثير وبعده ، وكأبي عمرو فإن مادة قراءته عن أهل الحجاز وكذلك عاصم من رواية الأعشى عن أبي بكر من حيث إن روايته ترجع إلى ابن مسعود) . الموضوع إذًا يتعلق بالحذف والإبقاء . قرأ سالم بن عمر ﴿..**فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَثْمَ عَلَيْهِ** . . . ﴾ وقراءة الجماعة ﴿ . . . **فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ** . . . ﴾ . حذف الهمزة البتة فالتقت ألف (لا) وثاء (الإثم) ساكنين فحذف الألف من اللفظ لالتقاء الساكنين .

وحدث نولدكه عن اختلاف في المضمون وضرب مثالاً على ذلك « ... حتّى تستأذنوا ... » . ﴿ . . . **تَسْتَأْنِسُواْ** . . . ﴾ . والآية ﴿ . . . **لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا** . . . ﴾ . ووجد بين الفعلين استأنس

وأستأذن قلبًا للمضمون ، الشيء الذي لا نجده نحن ـ أصحابَ هذه اللغة ـ فتطابق المغزى قائم في الحالتين ، فإن الإذن استئناس ، والاستئناس يقوم مقام الإذن . ولربما نظر إلى الأمر من خلال روحه الأدبي الذي لا يقترن فيه الاستئذان والاستئناس بالمعنى الشرعي خشية الحرام والحلال الذي لا يعرفونه .

ولعل الشيء الذي استرعى نظري بصفة أخص هو استعمال عبارة (ABWEICHUNGEN) ، وهذه الكلمة في الألمانية تحتمل معنيين : **الأول** : القراءة أو القراءات الشاذة ، أما الثاني فالقراءات المخالفة ويُخيَّل إليَّ أنه خلط بين الاثنتين حيث استعملت هذه العبارة مسوِّية بين ما لا يصح أن يطلق عليه اللفظ كقراءة أُبيٍّ بن كعب رضي الله تعالى عنه وقراءة ابن مسعود ، أو قراءة من قراءات الأعراب التي لم يكن العرب يرضونها ، من ذلك : حكى المبرد بسنده عن أبي زيد سعيد بن أوس أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَأْنٌّ** ﴾ ، قال أبو زيد ، فظننت قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبّة ، ومأدّة ، ودأبّة (هذه شاذة مقبولة) كانت منجذبة إلى لهجات مختلفة ، أما المثال على شيء غير مقبول. في قول ابن عباس: سألت أبا عمرو عن الشِّجْرة (بكسر الشين) في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشِّجَرَةَ** . . . ﴾ فكرهها وقال : يقرأ بها برابر مكة وسودانها ـ وقال هارون الأعور عن بعض العرب تقول : الشجرة فقال إنها لغة بني سليم . وقالوا في الشجرة (شيره) وتصغيرها (شييرة) .

بعد هذا الاستعراض للجانب اللغوي ولقضية اللهجات ، لا نرى غنى عن العودة مرّة أخرى للحديث في أمر أصحاب المصاحف ، الذين صوّر منهم المستشرق رؤوس شقاق وطُلاّب سلطة وأصحاب أنانية وذات .

ماذا يقول تاريخنا في هؤلاء الأماجد الذين جعل منهم نولدكه روّاد ومثيري فتنة؟؟!

لقد كان هؤلاء المعلِّمون منذ عهد رسول الله ، بعث بهم إلى الأمصار لتعليم القرآن . وتروي الأخبار أن بعضهم قد اغتيل بيد مدبري الفتنة والحاقدين على الإسلام . إنهم في الأساس إذًا أصحاب فقه ودرس وعلم . ووجودهم في عهد الرسول مؤشر على العناية البالغة بالقرآن الكريم ، والرغبة في الاطمئنان إلى سلامة الرواية .

وفي حرب اليمامة ، اَستَحَرَّ القتل بالحفظة ، ففزع أبو بكر إلى عمر بن الخطاب

وزيد بن ثابت فقال لهما : (**اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه . ولنفس الدافع شرُع في جمع القرآن بعدة روايات ، وبعد أخذ وردٍّ من جانب الشيخين وزيد لأنه لم يرض عن فعل شيءٍ لم يفعله رسول الله . ولننظر هنا إلى عبارة قالها كاتب الوحي زيد ، وهو يقبل على مضض أمراً جليلاً : « قال فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ منه** . . . » .

يجب الإشارة هنا إلى أن الروايات لم تنكر دور أبيٍّ بن كعب كاتب وحي الرسول صلى الله عليه وسلم . ففي عهد أبي بكر الصديق ، كان رجال يكتبون ويملي عليهم أبيٌّ بن كعب (هذا شيء ثابت) ، فالواقعة تسلط لنا ضوءًا ما كنا نعرفه حول تفرّد أُبيٍّ ، الصحابي الجليل بقراءته حسب رواية (نولدكه) .

ولقد عرف أُبيّ كاتب الوحي الأمين ، آخر آيتين سمعهما من رسول الله ، وهو الذي أرشد الكتَّاب إليهما . الآية من سورة براءة : ﴿...**ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ** . . . ﴾ .

ولقد ذكر الربيع أن المصحف العثماني جُمع من مصحف أُبَيٍّ . وبالرغم من كون زيد بن ثابت من حفاظ القرآن وكتبة الوحي ، لم يمنعه ذلك من الاستعانة بصدور الحفاظ وصحف الكتاب وما كان مكتوبًا في بيت رسول الله وأتم جمعه على ملإ من المهاجرين والأنصار . إذًا فإن الأمر تَمَّ على الملإ وبالمشورة وبمعرفة جماهير المسلمين ، لا كما أراد نولدكه تصويره على أنه دكتاتورية في الرأي وتعسف في استعمال السلطة .

إن إقدام الشيخين على مثل هذا العمل التاريخي الجليل ، لم يكن لإشعال الفتنة وتأجيج نار الأحقاد ، بل لإخماد نار كانت توشك أن تستعر وتعصف بالمسلمين بقدر ما في ألسنتهم من لهجات . لقد كان الكوفيون يقرؤون عن عبد الله بن مسعود ، والبصريون عن أبي موسى الأشعري ، والشاميون عن أُبيٍّ بن كعب والمقداد بن الأسود ، ولما جمعتهم الحرب ، ظن كلٌّ فريق منهم أنه الأصح في قراءته ، ولاحظ حذيفة بن اليمان اختلافهم فهُرِع إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى ، فقام عثمان فخطب الناس ونهاهم أن يسندوا قراءتهم إلى القراء ثم قال : « **فأعزم على كل رجل منكم ما**

كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به » . وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جُمع من ذلك كثرة . ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم . فلما فرغ من ذلك (أي عثمان) قال : من أَكْتَبُ الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زيدُ بن ثابت . قال : فأي الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص ، قال عثمان : فلْيُملِ سعيد ، وليكتبْ زيد ، وكتب مصاحف فرّقها في الناس ، وقيل : جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار فيهم أبيٌّ بن كعب وزيد بن ثابت . ولكي لا يكون هناك خلاف ، تدخل عثمان برأيه فقال : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ، حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف بعث عثمان إلى كل أُفُقٍ بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا وأمر بسوى ذلك في صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وكان عثمان يتعاهدهم (يقبل عليهم بين الحين والآخر ليطمئن إلى سير العمل) ، فكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخروه . وأتم زيد بن ثابت ورفاقه مهمتهم ، لم يختلفوا إلا في كلمة التابوت فرفعوا أمرهم إلى عثمان فقال : اكتبوه (**التابوت**) فإنه بلسان قريش وكان زيد يقول (التابوه) . وقد استدل نولدكه بهذه القراءة لهذه الكلمة أيضًا وهذا رد السلف الصالح عليها .

إننا لا نسجل هنا غير ما نستلهمه من رسول الله حول رأيه صلى الله عليه وسلم في صحابته : « **من سرّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**) . هذا رأي الرسول في عبد الله بن مسعود ، الذي صوره المستشرق نولدكه خارجًا متمردًا على رأي الجماعة وسلطة المسلمين ومشورتهم .

لقد ذكر نولدكه روايات الخلاف والاختلاف والخصام ، فَلِمَ لم يَرْوِ إلى جانبها أخبار الألفة والوئام والإخاء والاحترام في الرجوع إلى الرأي بين علماء المسلمين ؟ ! جاء رجل إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين جئتك من الكوفة وتركت بها رجلاً يملِّي المصاحف عن ظهر قلبه ـ قال : فغضب عمر وانتفخ حتى كاد أن يملأ ما بين شعبتي الرجل ، قال : مَنْ هو ويحك . . ؟ قال : هو عبد الله بن مسعود ، قال : فمازال يطفأ ويتسرى عنه الغضب حتى عاد إلى حالته التي كان عليها ، ثم قال : ويحك والله ما

أعلم بي من الناس أحد هو أحق بذلك منه) . وانظر إلى هذه الواقعة التي تجعل الأمير فوق الشبهة والذات والهوى : (**وجاء أهل الكوفة يوماً إلى عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم في الجائزة فقالوا : يا أمير المؤمنين : تفضل أهل الشام علينا ؟ فقال : يا أهل الكوفة : أجزعتم أن فضلتُ أهل الشام عليكم لبعد شقتهم وقد آثرتكم بابن أم عبد (أي عبد الله بن مسعود) : ما أعلم أحداً أقرب سَمْتاً ولا هدياً ودلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد**) .

وبعد ، فهذا غيضٌ من فيض . رواية تنير الطريق أمام رواية ، وتمنحها بُعْدَها الحقيقي غير مقطوعة ولا مذمومة ، وهذا هو البحث في أيدي أعداء الإسلام . إن الخيال العلمي يمكن أن يصنع العجائب . وقد يقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا . نفسُ المصادر بتحوير طفيف ، واجتزاء متعمد ، ويصبح التعاطف إزاء القضية المسلَّم بصحتها موقفًا معاديًا لها .

وبكلمة جامعة : لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم بسبع قراءات للكتاب الواحد ، ولم يقل بسبعة مصاحف ، لكل لسان مصحف ، فإذا فعل عمر وعثمان ما قد حصل فلكي يطفئا نار الفتنة بموجب رخصةٍ قديمة : ﴿ . . . **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ۞ ﴾ صدق الله العظيم .

المراجع والمصادر العربية

1 ـ القرآن الكريم .

2 ـ الحديث النبوي الشريف .

3 ـ السِّيَر والمغازي .

4 ـ المصاحف .

5 ـ طبقات القراء .

6 ـ تأويل مشكل القرآن .

7 ـ تفسير الطبري .

8 ـ اللسان .

9 ـ النشر والإتقان.

10 ـ الخصائص .

11 ـ النبأ العظيم .

المراجع والمصادر الأجنبية

(1) N. THEODOR GESCHICHTE DES QURANS DRITTER TEIL — ERSTES KAPITEL KONSONANTES TEXT.

(2) N. THEODOR BEITRÄCE ZUR SEMITISCHEN SPRACHWISSENSCHAFT.

(3) N. FUCK.X. ARBISCHE STUDIEN EUROPA.

الفصل السادس

القرآن معجز فكيف نطلب إعجازه؟

(التصور الإسلامي وأثره على الفكر الاستشراقي)

في بحثه المكثف حول مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم ، أحصى المستشرق هـ . جروتسفيلد[1] عدداً من هذه الوجوه ، عدَّها بمثابة ما قيل أو يمكن أن يقال في الخصوص . .

وفي اعتماده على المصادر العربية ، حدد جروتسفيلد منتصف القرن التاسع الميلادي (الثالث من وفاة الرسول) بداية للحديث عن خصوصيات القرآن وغرائبه كما عبر عنها الكتّاب المسلمون على اختلاف نزعاتهم ، بالكمِّ الذي وافته به مصادر البحث ، وبالقدر الذي هيأه له زمنه الذي عاش فيه .

وعلى غير عادتهم ، اختار المستشرق جروتسفيلد مصدراً يتمتع بدلالة خاصة في تاريخ الكتابة حول مسألة الإعجاز ، ونعني بها الفقرة المقتطفة من كتاب « الدين والدولة » لعلي بن ربَن الطبري ، طبيب مسيحي اعتنق الإسلام في عهد الخليفة المتوكل (847 ـ 861) .

ففي معرض حديث الأخير عن أميَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر : « . . . إن من بين دلائل الإعجاز في نبوة الرسول محمد القرآنَ الذي يجسد بمعانيه علامةً لم يسبق أن يتطرق إليها مؤلِّف كتب في ذات الموضوع ، بل لقد انصرفوا عن الحيثيات وسلموا بواجب التأويل .

وذكر ابن رَبَن أنه حرص ـ كما فعل أحد عمومته من المسيحيين المتعلمين المتحدثين ـ على القول بأن الخطاب الجميل لا يمكن أن يكون في عداد دلائل النبوة لأن لسائر الأمم نصيباً فيه . لكنه حين تحرر من سلطان معتقده الأول وأفلت من قيود النشأة والتقاليد ، وتفكر في معاني القرآن ، أيقن أن الأمر كذلك بالنسبة لكتاب كما يؤكد المسلمون . ولقد تبيَّن له أن ما من كتاب ، منذ بداية العالم ، أُلِّف من قِبَلِ عربي ، فارسي ، هندي أو يوناني كالقرآن ، يهدي ويعلِّم ويدل على الواحد الأحد . . إلى أن يقول : « فلو أن أحداً وافانا بكتاب له مثل هذه الصفات ، ويزاول نفس التأثير والسحر على قلوب البشر . . وأن الذي بُعث به كان أمياً ، فلا شك أن في هذا دليل نبوة أكيداً »[2] .

---

(1) Groetz Feld, Heinz, der Begriff der Unnach — ahmlichkeit des Korans, s.58.

(2) المصدر السابق ص : 61 .

ومن هذه المقدمة المثيرة ينتهي إلى الاستنتاج الأهم لمفهوم الإعجاز ، وهو الصيغ البلاغية أو إعجاز القرآن اللغوي الذي لم يكن ـ حسب رأيه ـ مثار حوار بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى .

إن ارتباط إعجاز القرآن بالجانب اللغوي بمعناه الواسع واعتماده عليه ، جسَّد مركز الثقل في كلِّ الدراسات التي قامتْ خدمةً لهذا الهدف ، سواء في صورة اجتهادات لغوية بأيدي لغويين مهرة ، أو بأيدي دارسين متأخرين ، عربٍ وأعاجم ، اقتصر دورهم على الجمع والتصنيف منذ أن بدأ الحديث حول هذا الموضوع ، وحتى تعطل الفهم أو قصُر عن إدراك المعاني العظيمة والجوانب المُشعة في هذا الكتاب الفريد . وباستثناء القلة القليلة التي لم ترَ هذا الرأي ، بل خالفته ، وكان منهم ابن الراوندي صاحب التاج[1] ، الذي شكك في صدق القرآن ، ومدرسة المعتزلة متمثلةً في زعيمها إبراهيم النظام[2] وتلميذه الجاحظ ، وعيسى بن صبيح المزدار ، والمتنبي الشاعر ، والمتكلمون كأبي الحسن الأشعري ، وبندار الفارسي ، ومن ثم ابن سينا والمعري ، فإن جمهرة الباحثين والمفسرين مالتْ إلى الأخذ بنظرية الإعجاز ، البلاغي والبياني ، ولم تضرب صفحاً عن بقية وجوه الإعجاز الأخرى ، كالإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية ، والوفاء بالوعد ، والتناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهراً أو باطناً من غير اختلاف ، وإن كانت مسألة الإعجاز اللغوي هي التي استأثرتْ بجل الاهتمام سلباً أو إيجاباً منذ إطلالة القرن الثالث وحتى مرحلة الركود[3] .

ولقد عرفت المكتبة العربية أسماء لامعةً جداً على مدى قرون ، وكان من أشهرها الفرَّاء في كتابه : « معاني القرآن » وقد توسع الفراء في التخريج النحوي وبيان القراءات وأوجه التفسير إلى جانب عنايته بالشرح اللغوي والاستشهاد بالشعر . وأبو عبيدة الذي فسر غريب القرآن وبيان نهجه أو مجازه في التعبير واستشهد بكلام العرب .

وكان من ثمار هذه المدرسة ، أو قل من حصيلة الاعتقاد أن قوة القرآن وعظمته

---

(1) زعم أن القرآن كذب وسفهه ورد عليه الخياط والجياش ، وللمزيد راجع ما ذكره عبد الرحيم عباس في معاهد التنصيص ، والتنزيه للقاضي المعتزلي .

(2) قال هؤلاء بالصرفة وستتحدث عنها فيما بعد .

(3) القرن السادس .

تكمنان في نظمه ، هذا الكمُّ الهائل من الشروح التي سبرتْ أغوار العربية ، وفتقتْ معانيها ، وكشفت عن أسرارها وخباياها ، بعد أن قرر أصحابها منذ البداية (. . إن معرفة إعجاز القرآن لا تتهيأ إلا للعربي متناهي الفصاحة)[1] .

وكما قرر هؤلاء الغيورون على لغتهم طبيعة وشروط طالب الإعجاز ، لم يخفوا عن قرائهم دوافعهم من وراء التماس جوانب الإعجاز : « . . وقد قلَّ أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله . فصار عُرضةً لمن شاء أن يتعرض له ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل قال إنه سحر ، وقائل يقول إنه شعر . . إلى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه ، وتكلموا له فصرفوه إليه . وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضِّله عليه »[2] .

ومن حديث الباقلاني لا نستنتج تجريد فنِّه وإشهار قلمه للذود عنه ضد المتحيزين والمتعرضين ، بل إحساسه بالفراغ الناتج عن الأداء المبتور : « وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منه إلى مذاهب البراهمة . ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا مستنصَرَ فيها ، ولا وجه لها ، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا ، ثم رأوا ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مُستوفى في وجهه ، قد أخلَّ بتهذيب طرقه ، وأهمل ترتيب بيانه »[3] .

لكن هذا ليس السبب الوحيد الذي دعا الكتَّاب لاتخاذ موقف المناصرة ، والرد على الملاحدة والمشككين ، فثمت سبب وجيه آخر أملته ظروف العصر وطبيعة التحديات التي واجهها الإسلام جراء الاختلاط بالدول المفتوحة : « ونحن نعلم أن هذا الوقت الذي كتب فيه عبد القاهر هذين الكتابين كان مليئاً بالمتزندقين لا هَمَّ لهم إلا التشكيك في العقائد والتضليل للعقول ، وإثارة الفتن الدينية في كلِّ مقدسات الشريعة الإسلامية ، لا لأن

---

(1) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص : 113 ـ 114 .
(2) المصدر نفسه ص : 4 .
(3) المصدر السابق نفسه .

الفلسفة قد طغت على العقول وسيطرت على الأفكار . ولكن لأن قوماً دخلوا في دينهم ، وانضووا تحت لوائهم ، كانوا يرون أنهم مغلوبون على أمرهم ، وأنه لا مناص من أن يثأروا لأنفسهم بإضعاف شوكة هؤلاء . . »[1] .

وأيّاً كان السبب الذي دفع أولئك إلى وضع كتبهم في الإعجاز اللغوي للقرآن ، وأيّاً كان تقويم المتأخرين لنظرياتهم ، فثمت حقيقة جامعة لا سبيل إلى تجاهلها تحت أي ظرف ، وهي أن محصلة هذه الدراسات أدتْ إلى تسليم المكابرين ، وتصدَّر القرآن المركز الأول بين سائر مصادر اللغة العربية ، وهذه النتيجة ، في حدِّ ذاتها ، تقول الكثير ، وتجسِّد مَعْلَماً بارزاً على طريق الإعجاز اللغوي ، كما تقطع الشك أمام كلِّ احتمال أو تخمين ، وما الطبيبُ الطبري الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام وورد اسمه في مستهل هذا البحث ، سوى شاهد أكيد على جدوى المجهودات التي بُذلتْ لإظهار امتياز لغة القرآن وعجز أي بيان عن مجاراة بيانه مهما كان شأوه وشهادة النقاد فيه[2] . ولعل أفضل ما يُستدَلُّ به في هذا السياق ، ما ذكره صاحب البرهان : « من أنه لا يصح التحدي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدي ، فلا يكون التحدي تحدِّياً إلا إذا تمكن الخصم من الجهة التي تتحداه بها »[3] .

وبرغم ما ينطوي عليه هذا القول من صحة وحصافة ، تظل الحاجة ملحةً لفهم موازٍ لا يُخِلُّ بالفهم السابق ولا يقلِّل من أهميته ، لكنه لا يسمح بتجاوزه إلى التمادي في الخطإ والمغالاة في العاطفة والتسليم للتفاؤل المضلِّل . .

ترى هل كان الثوب اللفظي وحده هو المعنيَّ الأول بالإعجاز؟

وهل كانت الإشارات القرآنية المتكررة ، المنوهة بعظمة الذكر ، لفت نظر ودعوةً صريحة إلى توجيه العناية إلى البلاغة القرآنية وصرف النظر عما سواها من معانٍ ممكنة واتجاهات محتملةٍ وأوجه إعجاز أخرى خلاف اللغة؟

فهم الأولون مسألة الإعجاز على النحو الذي بيَّنَّا ، أو أن قرائحهم ـ بِنْتُ عصرهم ووليدة بيئتهم ـ لم تُؤْذَنْ بأكثر من ذلك ، فتلك مسألة لم يَعْنِنَا منها ـ نحن

---

(1) فقيبي ، محمد حنيف ، نظرية إعجاز القرآن ص : 392 .
(2) للمزيد انظر كتاب مصادر اللغة للدكتور عبد الحميد السلقاني .
(3) البلاقلاني ، إعجاز القرآن ج 2 .

المتأخرين ـ سوى التشديد مرةً تلو المرة على ملاءمة الرسالة لطبائع العصر ومقدرتها على تجريد السلاح المناسب في الوقت المناسب .

لكن ذلك الافتراض لم يحدث أبداً ولم يقل به أحد . وبرغم ما تنطوي عليه روايات السيرة حول موقف المغيرة الأدبي ـ لما سمع الذكر ـ من أهمية في تعيين مخاضات الدعوة ورسم منحنياتها في أثناء مسيرتها الشاقة ، فإننا نقف من « الحلاوة والطلاوة » ، اللتين أحس بهما الناقد الجاهلي ، غير الموقف الذي اتخذه منه محلِّل القرن الثاني للهجرة ، ونستقبلهما بغير الحسِّ النقدي الذي استقبلا به من قبَلِ الجرجاني والباقلاني وأساطين البلاغة ، بسبب آخر نملكه ولا يملكونه ، غير اللغة والفصاحة والبلاغة ، إنه روح العصر الذي يمنح المتأخرين حِساً إضافياً وملكاتٍ استثنائية يَضِنُّ بها على المتقدمين ، كالشيء الذي فعل حين حرمنا من حدة الحس والتذوق الأدبيين اللذين امتازوا بهما علينا ونحن نقرأ ونطالع مشدوهين سبْقهم الفذ في تفجير مكامن اللغة وتفتيق معانيها على نحو لم نعهدْه في أية لغة أخرى مما نعرف ، ويظل الاحتكام إلى النص سبيلنا الوحيد ، عليه نلتقي وعنده نفترق ، لم يشغل العربيَّ المبنى دون المعنى ، بل كان مصدر التأثير جامعاً موزعاً بين الفكرة والأداء والتعبير والمحتوى . لقد استأثر الركنان باهتمامه على قدم المساواة : « فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يُراد بها . قال الأخنس : وأنا ـ والذي حلفت به ـ كذلك »[1] .

لم يكن النص القرآني إذاً مجرد تعبير متفوق عن معانٍ؛ بقدر ما كان تعبيراً رفيعاً عن تصورات وأفكار انقلابية سهُل بعضها واستعصى بعضها الآخر على البيئة الجاهلية . ومن هذا الوجه فقط لا مِن وجهَي الحلاوة والطلاوة أفهم المراد الحقيقي من معنى السحر الذي أراده الوليد ، السحرُ الذي فرَّق بين . . وبين . . وبين ، ليس البلاغة وحدها ، بل الفكرة التي هدمتْ وشيَّدتْ ، وجمعتْ وفرَّقتْ ، وألَّفتْ وشتتتْ ، الفكرةُ الرائدة في أفضل صيغة ، وأبهى حُلَّة ، وأنسب عبارة ، وأدق لفظ ، وأجمل وقع تعيه ذاكرة عربية . . !

---

(1) السيوطي ص : 55 .

ولـم تكن مجموعة الآيـات مـنـاطُ التحدِّي ملزمةً لوجه بذاته مـن وجوه الإعجاز ، بل كانت عامةً شاملة ، عبَّرتْ عن فكرة أو أكثر بالـمقاييس الفنيـة الـمتعارف عليهـا ، وبشرط الخضوع لقوالب النقد الـمعمول بهـا ، مـن نفس مـا اشتهر به العرب في أسواقهم ومنـتديـاتهم . فإذا فهم العرب مـن محتوى الخطاب خلاف ذلك ، أي تحدياً لـملكاتهم الفطريـة ومواهبهم في فنٍّ عُدَّ بمـنزلة صنـاعتهم الوحيدة ، وكانوا فخوريـن به أشد الفخر ، فليس ذلك مقدمةً للزعم بأن الإعجاز اللغوي كان وسيظل حجة الإسلام الوحيدة ، وأن العرب انبهروا ببلاغته لأنه لا يملك غير البلاغة ، أو لأن الـمتحدي أدخل في رُوعِهم أنـه لا يريد غيرهـا ولا يسعى إلا إليهـا .

إن لـمـن الافتئات ، الإصرار على تحجيم دور القرآن وتقنينـه في محيط اللسان فقط . و إن لـمـن التجني كذلك ، جعل اللغة وحدهـا قاسم الإعجاز الأعظم ، ومـن التجني بنـاء حكم خطير كهذا ، على موقفٍ لـم يكن للعرب أنفسهم حيـالـه في محيطهم الضيق وعصرهم الغابر أي اختيـار .

في تاريخ « النقد الأدبي عند العرب » ، تحدث الـمؤلِّف د . عبد العزيز عتيق عن « أن الشعر الجاهلي كان إحساساً أكثر مـنه عقلاً ، وكذلك كان النقد . والشاعر تستثيره الأحداث التي تقع في محيط حيـاته فيـندفع إلى التعبير عنهـا بعاطفته وشعوره .

والنـاقد يصغي في نقده إلى مـا تمليه عليه عواطفه ومشاعره . والعربي بطبعه مرهَفُ الإحساس ، فهو يغضب ويرضى ، ويثور ويهدأ لأقل الأسباب . وكمـا ينفعل الشاعر بعواطفه فيشعر ، ينفعل النـاقد بحسه . وكلاهمـا كان في الجاهليـة ساذجاً . هذا في أدبه وهذا في نقده . والواقع أن نقاد العرب في الجاهليـة وقفوا بالنقد عند هذا الحد البدائي الفطري فلـم يجاوزوه إلى النـاحيـة العلـميـة التحليليـة »[1] ألا يحق لنـا بنـاءً على مـا تقدم مـن حكم ، أن نفرغ الـمجتمع العربي قبل الإسلام مـن كلِّ قيمة حضاريـة ، وأن نُخليَ بينه وبين أي محاكمة موضوعيـة ، وأن نرفع صوتنـا بملء الحق والحريـة ، لننـاديَ بأنه كان مجتمع التفعيلات والأوزان ليس إلا ، ولأنه كان كذلك ، فقد أرسل اللـه محمداً وحمَّـلـه بمعجزة (كلاميـة) ألغتْ بألِفِهـا وبائهـا ، وسجعهـا ومجازهـا ، كلَّ قنـاعاته التي ورثهـا أباً عن جد ،

---

(1) عتيق ، عبد العزيز ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص : 37 .

وحولتها بين يوم وليلة إلى قناعات إسلامية ويقينيات إيمانية توحيدية؟!
أي عالم .. أي عاقل يؤيد هذا الرأي ويسانده!!

إن الغمز من العرب ومحاولة الحط من آفاقهم «كمسعى» حميد لإظهار أثر الإسلام وإبراز دوره الفعال في تغيير صورة العرب، لا يُسدي - من وجهة نظرنا - إلى الإسلام خدمة، فلا العربُ كانوا على تلك الدرجة من السذاجة والبساطة، ولا هُمْ استقبلوا دعوة محمد بالفرحة والبهجة اللتين يصورهما أصحاب النيات الحسنة، حين يطالعوننا بأخبار الإعجاز مكتوبةً بلغتنا التي نعرفها جيداً.

لقد بنى المفسر والمفكر حكمه في مسألة الإعجاز على مجموعة القرائن المستمدة من كتاب الله وسُنَّة رسوله. والذي يعيد النظر في تلك الأدلَّة، بعين متبصرة لا عين متحجرة، وبإرادة مستقلةٍ حرةٍ لا رأيٍ تابعٍ سابق، سيكتشف أن الإعجاز، أو الحلاوة والطلاوة، كانا بمثابة الفن الإعلامي الرفيع في عصرنا الحديث، وأنَّ الإعجاز كان المقدمة التي ستثير الانتباه، وتشدُّ الاهتمام، وتهيِّيء أذن السامع لاستقبال الشيء الأهم، وتحقق أقصى قدر من التأثير لإحداث التفاعل مع الأفكار الجديدة والآراء المستحدثة التي ستؤدي في النهاية إلى التغيير الحقيقي في البنيتين النفسية والاجتماعية في المجتمع الجاهلي. ولعل ذلك بالتحديد هو الذي حفز ابن قيِّم الجوزية على القول: «ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبةً والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمةً لمعانيه أو غير فاهمة، عالمةً بما يحتويه أو غير عالمة، كافرةً بما جاء فيه أو مؤمنة».

ولم تكن النماذج الإيجابية التي قدمها طلاب الإعجاز اللغوي كافة، في سياق الاستدلال على أثرِ الصدمة النفسية التي خلفها القرآن على الأوساط الجاهلية في باكورة الفترة المكية، إلا نفس النماذج السالبة التي رفعتْ لواء المعارضة وآلت على نفسها مقاومة الإسلام، وكانت تجسِّد - بمعايير القوم وعلاقات العصر - واجهةَ الثقافة والسفاهة معاً، **وكانت القطبَ السالبَ للقطب الموجب في دارة البحث عن العقيدة الصحيحة**، بما لهم من أرصدة موروثة في الحكمة والأمثال والقصص، ونظريات حول مسائل الوجود والعدم، وقوانين وأعرافٍ اجتماعية ضاربة في القدم، في المال والإرث والرق، ومنزلة المرأة وقواعد القتال، سمحت جميعها بإجراء المقابلة والمفاضلة، بين فكرين،

ونظامين ، ونظريتين . ولولا وجود الضد إلى جوار الضد ، والنقيض إلى جانب النقيض كما طالعتنا السِّيَرُ ، ما أذن الله لمبدإ أن يظهر ، ولفضيلةٍ أن تُنشر ، ولا كان لدعوة العقل والمنطق التي رفع الإسلام لواءها ، مع توفر المعجزة المُبطلةِ لجميع حجج العقل ، من داعٍ أو ضرورة . . !

و إذا كان لتلك النماذج من دورٍ فعالٍ تُذكر به ، ونقل حقيقي في ميزان الدعوة لا تُغبَط عليه ، فليس تذوقهم الفطري للنص المقدس العربي ، الذي جسَّد تحدياً « قطريّاً » وإعجازاً « محليّاً » ، بل دورهم التنظيري الذي رَقِيَ بالحدث إلى المستوى العالمي والإنساني ، بعدما فشلتْ حججهم وتداعتْ أقاويلهم ، وقدم الإسلام أنموذجه البديل الناجح .

فحين أطل الإسلام بوجهه الوضاء المشرق على الثقافات والشعوب المفتوحة من حوله ، ما كان لأعجمي أن يدرك محاسن الآيات والسور من مداخلها اللغوية والأدبية ، بل من خلال تطبيقاتها الإنسانية ، ومشروعاتها الإصلاحية ، فليس تأخير المبتدأ ، ولا تقديمُ الخبر ، ولا براعةُ اللسان القرشي من اللخلخانية ، والعنعنة ، والغمغمة ، والطمطانية ، والكسكسة[14] ، بل التوجيهُ الربانيُّ المبينُ في قوله تعالى : ﴿ . . . **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ** . . . ﴾ ، هو الذي جعل الأصفر والأسود والأحمر ، يرنو بعينيه إلى هذا الدين ، ويصبو إلى يوم ترفُّ فيه بيارقه .

« يحكي المستشرق هارولد فوكه ، أنه بعدما تلقى نصيحة من مستشرق مخضرم ، بتعلم العربية كمدخل لا غنى عنه لتعلم القرآن الكريم ، تلقَّى دروساً خاصة في العربية على يد الشيخ « سعيد » في مدينة دمشق . وبعد عدة جولات مع العربية وقواعدها ، شرع في تلقِّي أحكام التجويد . وراح الشيخ سعيد يبديء ويعيد ، والأعجمي يردد من ورائه ، فإذا وصل إلى الحروف « المستعلية » وتعذر عليه نطقها ، عمد الحافظ إلى نطقها أمامه ملصقاً لسانه بسقف حلقه مؤكداً أن رسول الله كان خيرَ مَنْ نطق بها » .

---

(1) **اللخلخانية : العجمة في المنطق . العنعنة : نسبة إلى تميم قول ذي الرمة . .**

• الكسكسة : أن يجعل بعد كاف المذكر أو مكانها سيناً .

• الغمغمة : كلام غير بيِّن .

• الطمطانية : جعل (أم) بدل (أل) .

(2) **صحيفة** (Dei Wett) **. أغسطس 1982 م الصفحة 8 ، كولن .**

ويعقب المستشرق فوكه على هذه الحادثة بقوله : « إنه لم يعرف لغةً شقتْ عليه كالعربية » .

لم يبْنِ القرآن نظريته الكبرى على إقناع حكام البلاغة العرب بتفوق أسلوب القرآن ومعانيه على معاني وأساليب الحوليات والأوابد ، وحكم لقمان والكهان وقصص النضر بن الحارث ، بقدر ما بناها على عنصر الإقناع ، بتحويل الأنظار عن القيم والمفاهيم السابقة ، من خلال دروس ولقاءات جدلية متكررة مع شياطين قريش وساداتها : « يعدني محمد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع في يديَّ بعد ذلك؟ ثم ينفخ يديه ويقول : تبّاً لكما ، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد!) .

ولم يكن لتنفع مع هؤلاء سوى لغة قادرة على تحويل السخرية إلى جد ، والشك إلى يقين ، والخرافة إلى حقيقة : ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ *** ﴾ « سورة المؤمنون : الآيات من 35 إلى 40 » .

ولقد أقر القرشيون بالأثر الذي خلّفه محمد : « . . . **وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبتَ الدين ، وسببتَ الآلهة ، وسفَّهتَ الأحلام ، وفرَّقتَ الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك** »[15] . والمشركون إنما أرادوا بالأمر القبيح سُنَّةً حميدة سَنَّها الإسلام أو صفةً ذميمةً نهاهم عنها . قال الله تعالى :﴿... **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** . . . ﴾ ، وقوله تعالى :﴿ ... **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ** . . . ﴾ ، لم تأمرا بعزل جزء عزيز من كتاب الله وتقديمه إلى الملإ على أنه المعجزة الوحيدة التي ينبغي أن تضاهي معجزات الأديان الأخرى .

ماسكت عنه النص فلم يقلْ به صراحة ، كشف عنه أوائل المفسرين ، (وفصَّل) فيه المتأخرون . وبالرغم من الدعاوى المتكررة بتطور حركة التفسير وظهور اتجاهات

---

(1) **السيرة النبوية ص : 51 .**

جديدة فيها ، من التفسير بالنقل ، إلى التفسير بالعقل ، إلى التصوف ، إلى الأدب ، إلى العلم بمنهجَيْ الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي . وبالرغم من شعور المسلمين بالحاجة إلى تفسير القرآن لمواجهة القيم الوافدة والمعارف الجديدة ، بقدر ما تؤهلهم ثقافتُهم وسعةُ آفاقهم في المعارف الإنسانية ، وعلمهم بحقائق الوجود الكبرى ، فإن سائر هذه المحاولات لم تقدر ، برغم الضوضاء التي أثيرتْ من حولها ، على زحزحة عقيدة واحدةٍ ثابتة ، هي أن إعجاز القرآن يكمن في لغته ، وأن جميع وجوه الإعجاز الأخرى بما فيها الإعجاز العلميُّ الذي لم ينضج ولم تتبلور حدودُه وأبعادُه في عقول الباحثين ، مُخْتَلَفٌ عليها لدى أغلب من كتب ، سواء كان عربيّاً أو أعجميّاً ، متقدماً أو متأخراً ، مستشرقاً أو مستغرباً[1] .

وبالرغم من التأكيدات المتوالية حول وجوه الإعجاز الأخرى ، سيان ما ارتبط منها بالقرآن الكريم أو بشخص الرسول ﷺ ، فلا يبدو أنَّ هذه الآراء أصابتْ هوى في نفوس المعنيين بتلك المسألة . لقد أحدثت وجهاتُ النظر المختلفة حول ما يُحتسب من الإعجاز وما لا يحتسب ، **أحدثت بلبلة في أفكار القاريء الغربي . وشحنت استعداداته الفطرية للدس على الإسلام** بطاقةٍ جديدة ودَّ المخلصون من المسلمين لو أنها لم تجد طريقها إلى الظهور أبداً : (. . . لقد قدم التبريرُ السريانيُّ المبكرُ قائمةً من المعجزات المغلوطة المنسوبة زعماً إلى الرسول وتبنتها الأوساط المسيحية الشرقية . وفيما أكد المسلمون تلك المعجزات ، ما لبث الرسول أن أنكرها عليهم فيما بعد . من ذلك معجزة الذئب ، والثور الذي تكلم ، وشجرة التين التي سجدت وأقبلت لنداء الرسول ، وانشقاق القمر ، والشاة المسمومة التي حذرت الرسول من أكلها) . ويعقب المستشرق نورمان على هذا بقوله : « إن سائر هذه المعجزات تَمَّ نفيها من قِبَلِ القرآن »[2] : « لوضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله » . قول مأثور عن عارف كبير ،

---

(1) مثلما أُخذ على ابن عباس تفسيره القرآن بالشعر ، فقد أثار خلفه أبو عبيدة كثيراً من نقد معاصريه . وكانت الحال كذلك من بعد ، فالفراء لا يرضى عن مسلك أبي عبيدة في تفسير القرآن ، والأصمعي يغضب . وأبو حاتم يرى أن لا تحل كتابة المجاز ولا قراءته إلا لمن يصحح خطأه ويبينه لغيره ، وكذلك كان موقف الزجاج والنحاس والأزهري والطبري معه ، انظر الفكر الديني ص : 31 .

(2) Normann, Daniell, Islam and the west, P. 74.

عبد الله بن عباس ، رائد التفسير بالشعر العربي القديم ، وواضع حجر الأساس للانفتاح على الثقافات الأجنبية من أجل فهم أوسع لكتاب الله[1] ولم يستوعب المسلمون الدرس جيداً ، فعوض أن يوظِّفَ النص القرآني في خدمة الاحتياجات المشروعة للمجتمعات الإسلامية من خلال قراءة متَّزنةٍ ملتزمة ، شهد النص تعسفاً مزرياً وإجحافاً كبيراً . وهكذا سعى كلٌّ فريق ديني إلى إخضاع النص للمعنى الذي يناصر فكرته ويؤازر عقيدته .

وتشتت الرأيُ وتفرَّقت الأمة بين سلفي وصوفي ومعتزلي ، وبين قائل بالنقل وقائل بالرأي . وليت أن ثائرتهم لم تثر ، وحميتهم لم تتحرك ، حين سخر منهم النقاد وشمت بهم الأعداء ، وانبروا لتجريح أنبل ظاهرة في المعجزة الإسلامية بجريرة أفرادها ، وأعني بذلك مرونة النص الإسلامي وملاءمته لكلِّ عصر . وهل عرف البحث الاستشراقي عبارة ألذع من عبارة جولدزيهر حين ذكر : « لقد أعطى المفسرون النص القرآني أكثر مما أعطاهم »[2] .

لكن فجوة الخلاف حول الإعجاز تتسع فجأة حين يعلن رشيد رضا ، خلافاً لكلِّ رأي قديم أو حديث وبما يشبه الخروج على مألوف القاعدة : « أما بعدُ أيها المسلمون فإن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونوراً ليعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم ، ويعدكم بما يعدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم يُنزلْه قانوناً دنيويّاً جافّاً كقوانين الحكام ، ولا كتاباً طبيّاً لمداواة الأجسام ، ولا تاريخاً بشرياً لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفراً فنيّاً لوجوه الكسب والمنافع ، فإن كلَّ ذلك مما جعله تعالى باستطاعتكم ، لا يتوقف على وحي من ربكم . وهذا بعضُ مما وصف الله تعالى به كتابه في محكم آياته تدبَّرها سلفُكم الصالح واهتدوا بها »[3] .

والقاريء ينتظر بالطبع رأياً . فلو لم تكن اللغة ، ولا البلاغة ، ولا القصة ، ولا العلم ، ولا معجزات الرسول الخاصة هي الإعجاز ، فأين يكمن إعجازه الذي نتحدث عنه إذاً؟ وهل من رسول لم يؤيَّد بمعجزة؟!

---

(1) الفكر الديني في مواجهة العصر « التفسير بالشعر » .

(2) مذاهب التفسير ، انظر تفسيره في ضوء العقيدة ص : 121 .

(3) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، المقدمة ص : 4 .

إننا نتطلع إلى لغة مشتركة لا نشبع بها نهمنا المعرفي ، بقدر ما نقول فيها للناس شيئاً لا تُشتمُّ منه رائحة الذات الوطنية أو القومية أو الفرقوية . يجب أن نرتفع بالمعجزة عن المنحى التجزيئي والموضوعي والتقسيمي المرحلي ، وعن التفريعات الإقليمية ، بحيث يكون لساننا الذي نتحدث به لساناً مفهوماً من قِبَلِ البشر كافة والأمم عامة ، لا لساناً ذا لهجة محليةٍ ولكنةٍ جهوية . . . !

ما نبحث عنه ، ليس الالتفاف على الدور العربي ، أو النفور من التذوق اللغوي ، أو الإعراض عن النظر الدنيوي ، و إنما تفادي ربط العقيدة السهلة الواضحة بكلٍّ ما من شأنه أن يجعلها عقدة لا عقيدة ، تَمَّ ذلك تحت أي شعار أو أي تسمية مما يخطر لأحدٍ على بال .

ما أروع الأحكام حين تتحرر من سلطان المؤثرات وتتحرى الحق والحقيقة!

لكم عجبت ، حين بحثت بين شتات الرأي عن حكم أجعله خاتمة المطاف ورأس الحكمة والإنصاف ، في صيغة مختصرة مفيدة تعبر عن المعنى الحقيقي للإعجاز ، فلم أجد عبارة أدق من تلك التي قالها مستشرق مغمور وهو يتحدث عن تاريخ القرآن وجمعه : « . . . والنص القرآني ، بما فيه فواتح السور التسعة والعشرون التي لم نجد لها تفسيراً مقنعاً حتى الآن ، هذا النص نُقِل وتُدُوولَ منذ ذلك الحين وحتى الآن . . كلمة . . فكلمة ، وحرفاً فحرفاً . وبناء على ما تقدم ، يمكن الإيمان بثقة مطلقة بأن القرآن في وضعه الراهن مطابق للإملاء الأصلي كما نطق به الرسول وحتى آخر التفاصيل ، فأين التوراة من ذلك؟

ترى هل يمكن أن نقول نفس الكلام في أي مصدر قديم من مصادر القرون الوسطى أو حتى الحديثة؟

إن عملية نقد النص اللغوي التي عكفت عليها أجيال علماء اللاتينية والعهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس ، ليست ضرورية بالنسبة إلى القرآن الكريم .

وأزمة الثقة التي يعاني منها بعض الوسطاء من قُرَّاءِ الكتاب المقدس ، حين يسمعون باختلاف القراءات في الإنجيل ، أو حين يعرفون بتعذر ترجمة بعض المواضع الميؤوس من تصحيحها في التوراة ، هذه الأمور لا يعاني المسلمون منها مطلقاً في كتابهم . وفي الوقت الذي لم يكن فيه للكتاب المقدس ، وقت صدور القرآن ، مدخل عام جامع ، قُسِّمَ القرآن إلى 114 سورةً من أطوال مختلفة . وحيث إن القرآن أُوحيَ بلسانٍ واحد ، فقد

انتفى وجود كتب متعددة بالطبع . وفي الوقت الذي يؤلَّف فيه الكتاب المقدس مكتبة بحالها ، فالقرآن كتاب واحد ليس إلا)[1] .

إن القرآن معجزٌ ، كما يقول طه حسين ، لأنه قرآن . . !

(1) Emmanuel Kellerhals ,und Mohammad ist sein Prophet. S. 35 — 36



الفصل السابع

شهيد الأَدب العربي . . !

في حديثنا عن شهيد الأدب العربي، سنمضي في اتجاه مخالف لسير التاريخ. فالتسلسل الزمني يقضي أن نقدمه على غير ذلك لأنه أقدم هؤلاء المستشرقين عصراً. لكنَّ تفرده واستقلاليته وجمعه بين المنهجية والأمانة، هذه الأمور، هي التي فرضته وجعلته يسبق عصره بقرنين ليحتل منزلة لا تقل عن أترابه لدى الحديث عن تبلور حركة الاستشراق.

ولد رايسكه في 25 من شهر الكانون « ديسمبر » من عام 1716 لأب يعمل دباغًا في مدينة زوربيج . وقضى سني عمره الخمس الأوائل في مدرسة للأيتام بمدينة هاله الألمانية . وبرغبة جامحة منقطعة النظير والتأويل ، لا يجد المرء تفسيرًا لها حتى لديه ، أظهر ميلاً لتعلم العربية وآدابها ولما يُتمَّ السادسة عشرة من عمره بعد ، حين وضع عصا الترحال في مدينة لايبريغ عام 1733 . ودونما أي عون ، بل معتمدًا على موهبته اللغوية ، تمكن من تذليل سائر الصعاب التي اعترضته ، واستطاع ـ بالاستغناء عن الكثير من الضرورات الحيوية ـ تأمين جميع الكتب العربية التي توفرت في حينه ـ على فقره وقلة حيلته ـ وما كاد العام 1735 يطل ، حتى أصبح قادرًا على التعامل مع أوزان عرب شاه التي ألَّفها عن حياة تيمور . وفي عام 1736 ، فرغ من دراسة سائر النصوص العربية التي كانت في حوزته . وبناء على توسله إليه ، أرسل إليه يوحان كريستوف (مؤلفُ المكتبة العربية) مقامات الحريري من بين مخطوطاته . وانطلاقًا منها ، أصدر رايسكه في عام 1737 المقامة السابعة والعشرين باللغتين العربية واللاتينية . ووضع كريستوف تحت تصرفه مزيدًا من المخطوطات ظل مدينًا له بها طوال حياته . وكان كلما تعمق في الأدب العربي ازداد ولعه به ، واشتد شوقه إلى الغوص فيه أكثر فأكثر . وما كان لحلمه أن يتحقق إن هو لم يشد الرحال إلى لايدن والاطلاع على كنوز المخطوطات هناك . وهكذا عقد العزم على تجشم الصعاب مهما تكن كبيرة والسفر إلى هولندا . وفي شهر الماء « مايو » 1738 ، بدأ رحلته شمالاً . وفي أمستردام عرض عليه اللغوي الكلاسيكي أوڤيل ـ وبتوصية من صاحبه ڤولڤ ـ العمل لديه . إلا أن رايسكه ـ وقد غلب عليه حب العربية وأبى أن تقيده أي ارتباطات ـ رفض ذلك العرض السخي بشدة . وفور وصوله إلى مدينة لايدن في السادس من شهر الصيف « يونية » 1738 ، علم من المستشرق شولتنس أنه لا توجد منح دراسية للأجانب ، وأن العطلة الصيفية باتت على الأبواب . لكن أكثر ما آلمه ، هو أن المكتبة التي تحمَّل وعثاء

السفر من أجلها ، كانت مغلقة في وجهه لأنه لم يكن ميسور الحال . وتدخل الحظ حين استخدمه الوراق يوحان لوزاك كمصحح لديه وتكفل بنفقات إقامته . وتمكن من توفير بعض المال لقاء دروس خصوصية في المحادثة باللغتين اليونانية واللاتينية كان يؤديها لبعض الطلبة الهولنديين . وحين استؤنفت المحاضرات ، انفك عن العمل وبادر إلى تسلُّم المخطوطات التي طال حنينه إليها . ولو تُرِكَ له الخيار ، لما اختار على المؤرخين والجغرافيين العرب شيئًا . لكن المستشرق شولتنس صرفه إلى الشعر العربي ، وهكذا فقد نقل في عام 1739 قصائد جرير ولامية العرب للشنفرَى ، وفي العام التالي حماسة البحتري ، لكنه صبّ جلّ اهتمامه على المعلَّقات التي استطاع دراستها بشروح التبريزي والنحاس ، واختار في النهاية أطولها للعمل فيها وهي معلقة طرفة بن العبد . وكان هذا المخطوط يحتوي على النص غير المشكَّل وإلى جانبه ترجمته اللاتينية والشرح في الهامش الأسفل . إن الملاحظات تظهر استدلال الناظم ، وتبيِّن في الموضوعات جميعها التغييرات الشعرية من خلال نظائرها المستحضرة بوفرة من المعلقات الأخرى ، كذلك من ديوان الهذليين ، والحماستين ، ومن المتنبي وأبي العلاء وغيرهم من الشعراء . لقد عالج الخطوط والمفردات (الألفاظ) ، وشروح المعلَّقات ، وبعد عدد من الملاحظات حول الترجمة اللاتينية والتهميشات ، عالج الرموز المختلفة والمعروف منها ، وقدم عن كل واحدة ـ عدا طرفة ـ نبذة إجمالية مختصرة عن المضمون إلى جانب نبذة مقتضبة عن المؤلف ، وفي الختام معالجة مسهبة لحياة طرفة . وشجرة للأنساب تكشف أواصر القربى بين طرفة وشعراء عرب شماليين وتعمل على تسهيل ضبط الحسابات التاريخية المقترحة في المقدمة .

بهذا العمل الريادي ، اختط رايسكه منهجًا في مجال التعريف بالشعراء العرب ، مازال معتمَدًا حتى يومنا هذا ، لأنه يوصل إلى الأهداف المتوخاة من أقصر السبل . ولعل ما يميز هذا الأسلوب عن غيره ، شدة بعده عن الخيوط التي بحث المستشرق شولتنس فيها قبله عن الجذور السامية وسط ضباب أوهامه ، في حين أن رايسكه لم يجشم نفسه حتى عناء الإشارة إليها . فمن رغب في الاستدلال بأسلوبه على أن نشأة المعلقات ترجع إلى القرن السادس الميلادي ، عرف على أية حال الموقف الذي ينبغي اتخاذه من اكتشاف المستشرق شولتنس حول الشعر العربي القديم .

فلقد كان هذا المستشرق ـ من جانبه ـ غير قادر على إدراك قيمة هذا الإنجاز الذي غيَّر مجرى الأحداث . لم يكن يعرف كيفية البدء بكتاب لم يكترث لأدنى قدر من شروح الكتاب المقدس . ومن أجل ذلك فقد أدّب في مقدمته ـ أي رايسكه ـ أستاذاً من جامعة لايبزيغ سبق أن تعرض له من غير ما ذنب اقترفه . ولقد كان السقوط عمليًّا لا على عين المكان ، لأن المستشرق شولتنس أذن له بطلب إلغائه ، أو لأن رايسكه سمح بطبع الفقرة وهو سادر في إصراره ، فأَدى إلى حدوث شقاق بين رجلين كانا على طرفيْ نقيض . غير أن صاحبنا سلك الطريق التي رآها صوابًا دون أن يلتفت إلى الغبار الذي كان يثار من حوله .

لم يكن لرايسكه أي ميل نحو اللاهوت . كما أنه لم يُصْغ إلى شولتنس فيضيِّع وقته في المصطلحات السامية ، لعلمه بأن هذه المصطلحات لا تعود بالفائدة على اللغة العربية . لقد قلَّب تفاهة أُلعوبة الاشتقاق وتصيد المعاني الأصلية الخيالية لجذور السامية . ولقد أعرب بوضوح وبيّن : « إذا كان في نيتنا النهوض باللغة العربية فلا ينبغي لنا مزاولتها كما نزاول اللاهوت»ولقد قرّعه ضميره اللغوي من أللاتخصص الذي عالج به شولتنس النصوص العربية وأسلوبه في القفز من فوق الحواجز التي كانت تعترض طريقه ، والإهمال مع ملازمة الصمت ، أو التغيير المتعمَّد للمفردات التي كان يتعذر عليه فهمها .

لقد كان يعلم علم اليقين ، بأنه ـ من أجل الحصول على إصدار جيد ـ لا يكفي حسن الإلمام بالخط ، بل المقدرة على النقد بالتعرف إلى أخطاء المنقول واكتشاف الدلالة الصحيحة التي كان يرمي إليها المؤلف بطريق الحدس ، و إصلاح الفساد بنفس الخصائص الأسلوبية للكاتب . ولقد أتاح له تكليفه بتنظيم المخطوطات العربية في المكتبة ، أتاح له فرصة النظر فيها عمومًا . وقام بنسخ تلك المؤلَّفات التي كان يعتمد عليها عمله مثل معارف ابن قتيبة ، تاريخ وجغرافية أبي الفداء ، تاريخ حمزة الأصبهاني ، وفصول من سير الأطباء لابن أبي العصيبية وغيرها . وقد أدَّى اختتام دراساته بأطروحة في كلية الفلسفة إلى وقف الحملة التي شنها عليه المستشرق شولتنس . (فإن هذا المستشرق الذي طالما ربى ابنه يوحان ياكوب ـ خلَفَه المستقبلي ـ ودّ من كل قلبه لو رأى رايسكه يقلع عن الدراسات العربية) . فقد أَدخلَ في

رُوعه غموض الرؤية ، ونصحه بدراسة الطب ، وكسب الرهان ، فبفضلِ عدد من الاطلاعات ذات المضامين الطبية المقروءة جماعيًّا لعدد من الكتاب العرب ، أحرز شهادة الدكتوراه في الطب عام 1746 . على أن ذلك لم يتم له بالسهولة التي نتصور ، فرجال اللاهوت أساؤوا لسمعته بسبب وسائله المادية . وفي يولية من نفس العام عاد أدراجه إلى وطنه . وحين تعذر عليه ممارسة مهنة الطب ، وجب أن يكسب قوته بتصحيح المطبوعات وبساعات التعليم الخاص والترجمات وما يشابهها ، إلى جانب الدراسات العربية في وقته الفائض .

وفي شهر هانيبال « أغسطس » من عام 1747 كتب المدخل العام إلى التاريخ الإسلامي . وفي الكلمات الأولى من المقدمة عبّر عن رفضه للتسمية السائدة (شرقي) باعتبارها غير دقيقة . واقترح استبدالها بعبارة (محمدي أو مسلم) ، ذلك أن الأمر ـ في نظره ـ يتعلق بتاريخ المسلمين ، ليس في الشرق فقط ، بل وفي إفريقيا وأوروبا أيضًا . ولعل من أهم ما جاء في هذا المدخل ثناءه على التاريخ الإسلامي .

إن أقواله تلك ، وإن كان المعنيُّ بها وسطًا لقاريء غير متخصص ، ينبغي شد اهتمامه ، وأنّها « أي هذه المقولات » تفتقر إلى الربط المنطقي المتشدد ، فإنها مع ذلك ، تحتفظ بقدر مساوٍ من نظرة رايسكه الثاقبة الإجمالية للمسائل . إنها تظهر أنه يتأمل التاريخ الشرقي من وجهات نظر تاريخية عالمية ، ويعتبر دراسته ضرورية لأسباب تتعلق بالاستمرارية التاريخية كما هي الحال في علوم القرون الماضية التي كان معترفًا بأهميتها في الماضي ، إنه تعقب مصائر دول ومناطق الشرق و إفريقيا على مدى قرون خلت ، يوم كانت في يوم ما يونانية ، وحين آلتْ إلى الامبراطورية الرومانية .

ويولي العلاقات المتبادلة القائمة منذ عهود شارل الكبير والبيزنطيين مرورًا بالرومان والحملات الصليبية وحتى الحروب التي دارت بين الأتراك وأوروبا والعالم الإسلامي اهتمامه ، ويشير إلى الملاحظات التي استخلصها المؤرخون الغربيون من إلمامتهم بالشرق . لكنه يشدد على أن تاريخ الشرق في محتواه الداخلي ليس دون الأوروبي منزلة . فمن واجب الباحث التاريخي النظر إلى أن الوثنية وممارسة العنف ـ إذا لم تُعاقبا ـ أينعتا الحظ في الماضي . في حين أن التقوى والعادات الخرقاء ظلتا في مكانهما من الثرى دون مثوبة أو أنهما ديستا بالمناسم دون شفقة ، بحيث يُخيَّلُ إلى الناظر

الدَّهِشِ المتعجب في قليل أو كثير ، كما لو أنّ كل شيء في دوامة ، ويُحرك من لدن صدمة عمياء . وهكذا يبقى الرأي في القوة الدافعة للسلوك البشري الذي يُماط لنا عنه اللثام بالتاريخ ، أحلى الثمار وأغلى الغلال من دراسة التاريخ . فالذي يريد أن يتعلم أصول الحكم من دراسة التاريخ ، والذي يريد أن ينعم النظر في المشيئة الألهية أو حكمة الأقدار ، الذي يريد أن يبحث في أخلاقيات البشرية ، فسوف يعثر على أمثلة حية لذلك في تاريخ المشرق كما في التاريخ الأوروبي تمامًا .

إن رايسكه لا يتردد في أن يضع إنجازات أعمال طغرل ، جنكيز خان ، تيمور ، ومحمد الفاتح ، فوق إنجازات الإسكندر الأكبر المقدوني .

وبنظرة مماثلة ، يرى التاريخ الإسلامي وظهور محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ويعتبر انتصارات دينه واحدة من أحداث التاريخ التي يحار العقل البشري في تقديم تفسير لها ، كما أنه يرى فيها مشيئة إلَـهية عليا . ويرى في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، بشجاعته وإنصافه ، أفضل فارس أنجبه تاريخ الإسلام ويقابله بالفيلسوف (مارك أوريل) المتربع على عرش الفلسفة .

إن هذا الميل إلى التركيز على موازيات الأحداث التاريخية وإظهارها بالمقابلة مع ظواهر مشابهة من التاريخ الأوروبي تحمله دائمًا على كشف النقاب عن نظائر بين التاريخ الإسلامي والأوروبي بقصد إطلاع قرائه على أن مشاهد رائعة مليئة بالعبر قد جرت على مسرح الشرق مثلما كانت عليه الحال في أوروبا .

وفي ذاك الوقت تقريبًا أعد كتابه حول الإسلام ونال لقب الأستاذية وأُجري له مرتب تقاعدي غير ثابت مالبث أن وَقَفَ بعد عام 1755 وهكذا ظل يعاني من ضغط الحاجة . وقد حامت حوله شبهة الهرطقة ، فأبى الرضوخ لرجال اللاهوت حين طلبوا منه تكذيب نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف دينه بالخرافة المضحكة ، وتقسيم تاريخ العالم إلى قسم مقدس وآخر مدنس . وفعل العكس إذ قلَّد العالم الإسلاميَّ نقطة الوسط في تاريخ الكون كله . وعبر عن رأيه ذلك بصراحة تامة ، غير مكترث للعواقب الوخيمة التي يجرها عليه مثل ذلك الاعتراف .

وحدث أن أصدر المستشرق شولتنس كتابيه اللذين حاول أن يثبت في أحدهما المصاهرة بين اللغتين العربية والعبرية ، وفي الآخر (أقوال سليمان المأثورة) الاستفادة من أسلوب

الاشتقاق . وأبى ضمير رايسكه إلا أن يقول شيئًا في الكتابين . ودافع شولتنس الذي لم يكن أحد ليجرؤ على تجريحه ، ولا تطرق شك في ضلاعته من العربية ، وجّه رسالتين إلى الناشر هاجم فيهما رايسكه بعبارات جارحة جدًّا . وعُرضتْ أقوال الناقد رايسكه على مجموعة من القراء والمهتمين ومن بينهم أساتذة ومحاضرون في الجامعات ، فعجزوا عن تقويم الأسباب الموضوعية التي دافع بها رايسكه عن وجهة نظره ، إلى جانبه أو ضده . ولم يحرك أحد ساكنًا لفائدته سنوات طوالاً ولا استدعته أية جامعة لكي يحاضر فيها . ولم تُفده كذلك محاضراته العلنية كمحدث لامع . فقد كان له بالمرصاد رجل اللاهوت واللغوي الكلاسيكي المعروف (أرنيستي) ، الذي كان رايسكه ـ في نظره ـ غير خليق بشرف حلِّ رباط حذائه . وفي عام 1753 ، قام الأستاذ النمساوي (بوبوڤيتس) بمحاولة لدى رجل ذي حظوة في الباب العالي (التركي) ، وأخفقت المحاولة بعدما رفض رايسكه شرط الوسيط بانضمامه إلى الكنيسة الكاثوليكية .

وظل حبه للعربية هاجسه الذي لا يفارقه حتى وهو يرسف في أغلال الحاجة . وشكا إلى زميل دراسة قديم رقة حاله ، والتمس منه التوسط لدى حكومة مقاطعة ساكسن لتنظر في أمر استخدامه ، ولم يكن يدري بأن صاحبه الذي لجأ إليه أناني بارد الطبع ، زد على ذلك ما أشعل به نار حسده وأجَّجها حين نقل إليه أن فقره فقط هو الذي ثناه عن تقديم المزيد للآداب العربية ، وأن المولى ، إن لم يَمدَّ له العون ، فإنه هالك فداء العربية لا محالة . . كان الصديقان يلتقيان عند نقطة واحدة وهي وحدة العمل والاختصاص . إلا أن الفارق الجوهري والمسافة الفاصلة بين الاثنين كانا كبيرين . كان البروفسور (ميخائيلي) موهوبًا مثله ، لكنه لم يكن يملك الأصالة التي كان رايسكه يمتاز بها . فهذا الأخير عرف أنه لا يمكن فهم اللغة والنحو العربيين والدراسات الشرقية عامة ، قبل أن يتم تحريرها من سلطة اللاهوت . وكانت معارفه العربية واهية ، حين اعتبر الإعراب بمنزلة اختراع من النحويين ، ويسير وفقًا للصورة الأوروبية . وقد سلّم هو نفسه بأنه لم يتمكن من وزن القوافي العربية . وكان بادي الإخفاق في أثناء دروسه بالعربية . وعمل برغم ذلك كله على أن لا ينازعه فيها منازع . وعودًا على بدء : قام بتحويل طلب رايسكه بالعمل إلى وزير (مونش هاوسن) ، وأرفق الطلب بملاحظة مناسبة . . . ، وهكذا تحطمت آخر آمال رايسكه في الحصول على كرسي للتدريس . وعُين في عام 1756 مديرًا لإحدى المدارس وكان

على شفا السقوط في مكيدة حاكها له صديق مزيف . ثم عُيِّنَ في آخر الأمر ـ بقبول من مراقب الخزانة وبتوصية من الوزير الدوق (فاكربارت) ـ قاضيًا ، وكانت توصية الدوق كافية لإبعاد أي شبح من الشك يحوم حول عقيدته . وبذلك ـ وبعد سنوات طويلة من العوز ـ وجد الملجأ والملاذ ، وشغل وقته الفائض في هوايته ، إن لم نقل في قضيته التي نذر حياته من أجلها ، ونقصد بذلك : الأدب العربي . وبرزت له مشكلة جديدة ، إذ لم يجد دارًا للنشر واحدةً تقبل بمؤلفاته فاضطر إلى طبعها على نفقته الخاصة . ولما صدر المجلد الأول من ترجمته اللاتينية لأبي الفدا في عام 1754 ، وبالنظر إلى أنه لم يبع منها أكثر من 30 نسخة ، فقد اضطر إلى وَقْفِ طبعها . واكتفى منذ ذلك الحين بالمؤلَّفات الصغيرة ، فانتهى في عام 1755 من رسالة ابن زيدون الهامة إلى ابن عبدوس باللغتين اللاتينية والعربية ، وذلك بسبب دلالاتها التاريخية . وترجم لأكثم بن صيفي ، ومن بعده في عام 1765 مختارات في الغزل والرثاء للمتنبيء . وتكريمًا للسيدة التي اقترن بها وحملت اسمه ، أهداها هذه الباقة من الأشعار في الغزل ، مستغنيًا في شرحه عن جميع الملحقات التعليمية ، واكتفى بكلمات الشاعر وبإزالة الإبهام في بعض الجوانب الغريبة على عالم الإحساس الأوروبي وبالتقويم الجمالي لها . ووفاءً منها لزوجها الذي لم يكمل الثامنة والخمسين من العمر ، حيث توفي في شهر هانيبال « أغسطس » من عام 1774 ، وعهدًا قطعته له على نفسها ، فقد حرصت على عدم وقوع مؤلَّفاته ومخلَّفاته الأدبية في يد الناشر (إرنيستي) بما في ذلك مذكراته وتفاصيل حياته المثيرة ، وتولت نشرها بذاتها في عام 1779 . وقد قُيِّضَ لها أن تعيش من بعد وفاته لتهنأ نفسًا بمرحلة الاعتراف له بمنزلة عالية أنكرها عليه أغلب الناس إبان حياته . وكان مما نشرت له أيضًا كتاب هامٌّ مضمونه (رسائل حول طبيعة النقود العربية) .

* بعض الناس لا تروق لهم فكرة الترجمة للشخصيات . فهم يعتبرون هذا اللون من الأعمال الأدبية ضربًا من الإثارات العاطفية التي لا تنطوي على أية قيمة علمية . أما نحن فننظر إلى الأمر من زاوية أخرى :

ـ لقد رفع رايسكه النحو العربي إلى سُدَّةِ علم قائم بذاته . وباستثنائه ، فإن أحدًا لم يتوصل إلى قواعده الخاصة وإلى استقلاليتها ، كما أن أحدًا لم يتصدَّ بوعي إلى اللغة التي كانت تدور في فلك اللاهوت ، والتي اتخذ منها أداة لتحقيق الرغبة الموعودة في التفسير

التوراتي ، واكتفوا منها بانتقاء مرادفات الألفاظ العبرية التي كانت تتمشى كأفضل ما يكون في السياق .

ـ وخلافًا للمعرفة التاريخية السائدة في زمنه ، فقد كان يملك بصيرة نافذة للتسلل إلى أغوار الطبيعة البشرية . وقد رفض أن يبعثر جهوده في دراسة المصطلحات اللغوية التي تربطها صلات قربى بالعربية .

فإذا حدث أن كان لعصره نظرةٌ متعمقةٌ في العلاقات المقابلة الجامعة للغات السامية (وهذه التسمية لم تُعرف إلا في عام 1781) فإن نظره الثاقب تعرَّف، على نحو أكيد، إلى الأسلوب الظاهر الذي ينبغي أن تتوحد فيه مختلف الاختصاصات في كلية متناقضة فيما يدعى باللغات السامية ، والتي لا تربطها رابطة داخلية على أساس القرابة اللغوية .

لكن المسألة بالنسبة إليه كانت تقف (تعتمد) على علمه الداخلي . لقد كانت قواعد اللغة بالنسبة إليه حتمًا هي الأساس للمعرفة . ولقد توصل إلى أن التعامل الدؤوب ـ طويلَ النفس ـ مع الكتاب العربي هو الذي سيمكنه من بلوغ المعرفة الفعلية للغتهم ، فمضى بجدية مع الرأي القائل : إن الكتابة المسيحية ـ العربية في كل مضمار هي التي كان المسلمون من ورائها . . !

ولم يخف على ثاقب نظره ، أن طبعات الإنجيل الغربي ، إما أنها ترجع إلى مسيحيين شرقيين لم يكونوا على دراية باليونانية والعبرية والعربية ، أو أنها ترجمات بربرية ليسوعيين كانوا يعرفون الڤولغاتا فقط (الڤولغاتا ـ VULGATA أكثر ترجمة لاتينية استعمالاً للكتاب المقدس عام 1546) . لذا فقد بحث ووجد الطريق إلى كنوز الأدب العربي ـ الإسلامي وأرشد غيره إلى هذا السبيل . لكن دراسة اللغة لم تكن غايته القصوى ، بل كانت مجرد منطلق لاستطلاع التاريخ .

ولأنه عرف أهمية الإسلام بالنسبة إلى تاريخ أوروبا ، فلم يقرأ النصوص العربية كلغوي يكتني من المؤلِّف بفهم مراده ، بل كمؤرخ يصنف التاريخ الإسلامي في تاريخ العالم العام ويتولى شرحه ، شأنه في ذلك شأن مشاهد لفصول في مسرح ، يمحص دوافع الممثلين والمتحاورين فوق خشبة المسرح ، ويسعى إلى تقديم تفسير لنيات الشاعر . وبذلك أصبح رايسكه أحد السباقين في مضمار العلوم الإسلامية الحديثة التي نهضت كنظام تاريخي على أساس علوم اللغة العربية .

ونهاية الختام كلمة : لقد كان من الممكن أن نكتفيَ من حياة الرجل بخطوط عريضة تبيِّن لنا موقفه من قضية اللغة ، وأن نستغنيَ في هذا العرض عن كثير من التفاصيل ، ولاسيما تلك التي تتعلق بحياته الخاصة . لكننا وجدنا أن النّص المبتور من سياقه يفقد الفكرة بريقها من جهة ، ويضيِّع ويفوِّت على القاريء الجوَّ الصحي الذي ينبغي أن يتنفس فيه الحقيقة كاملة بغير ما عسف أو قطع ووصل في شريط الحدث ، فما بالك إذا كانت تلك المقصوصات جزءًا نابضًا بالحياة يظل على حركته ، ويأبى إلا أن يتصل بالأصل ليكمل الصورة في كلِّ ملامحها وقسماتها حتى ليبدو الدميم جميلاً والجميل أكثر جمالاً وإشراقًا . . !

لقد تفانى الرجل ـ كما رأينا وسمعنا من كلماته ـ في حب العربية وعلومها . ولم تكن عنايته بها ـ كما ذكر ـ غايةً بل وسيلة ومنطلقًا إلى فهم تاريخ العرب والمسلمين . ولقد أوصله ذلك إلى استنتاجات تختلف اختلافًا بيِّنًا عن كلِّ ما شاهدناه لدى كثير من أقطاب الاستشراق .

الحق ، إن (شهيد العربية) أغنانا عن قول الكثير مما يجب أن يقال في شأن المناهج الموصلة إلى الحقيقة وإلى استخلاصها من عقائد وثقافة وحياة الشعوب . فلا تسامح في اللغة ، ولا مجاملة على حساب الفهم . لا علم مع اللاهوت ، ولا مواربة في الحق مهما يكن الثمن فادحًا .

وجودة أي كتاب لا تعتمد على قابلية المخطوط للنقل فقط ، بل على استعداد الناقل للنقد كذلك ، وذلك من خلال التعرف إلى أخطاء المنقول ، واستخراج المغزى الذي يرمي إليه المؤلِّف بالحدس من السياق ، وتقويم الاعوجاج بمنتخبات الكاتب ومصطلحاته اللفظية . ولم يكن التكسب غايته التي يسعى إليها من وراء محبته لهذه اللغة . بل على العكس ، إن حبه لها وتعظيمه للرسول الكريم وتنزيهه لدينه ، وتقديره لأمجاد وأبطال المسلمين ، ورفضه إغراءات وتهديدات الكنيسة ، إن هو لم يكذِّب النبوة ويصف الإسلام بالخرافة المضحكة ، أجل ، كانت السبب في اتهامه بالإلحاد ، وفي حياته الضنكى ، وفي حرمانه من كلِّ الامتيازات التي كان يتمتع بها غيره ، ممن كان يَفْضُلُهمْ بكثير في ذلك العصر .

وحين جدَّ الجدُّ ووقعت الواقعة ، ومنعت عنه الدولة ما أجرت من معاش ، لم يتمرغ على أعتاب السادة ولم يهن ، ولم يتخل عن قيمه ومبادئه ، بل توجه إلى مولاه الأكبر في

ضراعة المؤمن المحتسب والمحب العفيف : « إن لم تمد لي يد العون يا الله فسأكون من الهالكين في حب العربية » .

غفر الله لذلك الرجل العظيم والأديب الكبير ، وجوزيَ خيرًا بقدر حبه وعطائه ومعاناته من أجل اللغة العربية ، لغة القرآن العظيم . . ! !

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

(1) القرآن الكريم.

(2) الصحيحان.

(3) سيرة ابن هشام.

(4) التفاسير: «القرطبي ـ المنار ـ في ظلال القرآن».

(5) إعجاز القرآن للباقلاني ـ دار المعارف بمصر.

(6) فقيهي، محمد حنيف، نظرية إعجاز القرآن.

(7) السلقاني، عبد الحميد، مصادر اللغة ط 2 طرابلس 1982 م.

(8) عتيق، عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت 1981 م.

(9) الأمثال في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار مكتبة الهلال، بيروت؟

(10) الأمثال القرآنية، عبد الرحمٰن حبنكة الميداني، دار القلم، بيروت 1980 م.

(11) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز، السعادة، مصر، 1960 م.

(12) من روائع القرآن، م. سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي.

(13) الفن القصصي في القرآن طبعة ثانية 1957 م.

(14) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، طرابلس، لبنان 1980 م.

(15) حياة محمد، محمد حسين هيكل، طبعة 15، القاهرة.

(16) مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج1، ج2، دار الفكر.

(17) الفكر الديني في مواجهة العصر، د. عفت محمد الشرقاوي، ط 2، بيروت، 1979 م.

(18) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، بيروت 1983 م.

(19) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، مطبعة النهضة، بغداد ط 2، 1978 م.

(20) الدراسات العربية في أوروبا، د. ميشال جحا، بيروت.

ثانياً : المصادر الأجنبية (الكتب والدوريات)

(1) Normann, Daniell, Islam and the West, Edinburgh 1980.

(2) Geiger, Abraham, was hat Mohammad aus dem Judentum aufgenommen, Leipzig 1902.

(3) Speyen, Heinrich, die Biblischen Erzaehlungen im Quran, Breslau 1931.

(4) Noeldeke, Th, Geschichte des Qurans̀, Leipzig 1909.

(5) KELLER HAIS, IMMANUELL, UND. M. ist sein Prophet, stuttgart 1961.

(6) Paret, Rudi, Mohammad und der Koran, fuenfte Auflage- Berlin- Mainz 1980.

(7) Watt, Montogomry, Muhammad at Mecca, Oxford 1979.

(8) Schimmel, Anne marie, und Muhammad ist sein Prophet, KÖLN 1981.

(9) Groetzfeld, Heinz, der Begriff der Unnachahmlichkeit des Qurans̀. O.L.Z. 1936. S.58.

(10) Noeldeke, Th. Beitraege zur semitischen Sprachwisissen- schaft, Leipzig 1909 s.z.

(11) P. Rudi, das Geschichts̀ bild Mohammeds̀, Vorlesung November. 1951- Tuebingen.

(12) Dr. Algeier, Arthur, Untersuchungen zur syrischen ueberlieferungen der Siebenshlaeferlegende, oriens, christianus, Neue serie 1915.

(13) Fueck, Johann, die Arabischen Studien in Europa, Leipzig, 1955.

(14) Brockelamsnn, Carl, die morgenlandischien Studien in Deutschland, Band 76/77, vahngang 1922/1923'

(15) Fueck, Johann, die Originalitaet des arabischen Propheten, Z.D.M.G.B. 90, 1936.

(16) Lohmann, Th, sure 96 und die Berufung Muhammeds̀.

(17) Lohmann, Th, Gleichnis und Gleichnis reolen im Koransuren.

(18) BECK, Edmund, Die Gestalt des Abrahams am Wende punkt der Entwicklung Muhammed's Museon 65 (1952) 73-94.

الفهرس

هذا الكتاب:

تفاوتت ردود الفعل تجاه الاستشراق بين معجب منبهر راغب إلى غيور معارض مكابر. وظل صوت الاعتدال خفيضاً أسيراً بين الموقفين المتعنتين المتطرفين.

وتجيء محاولة هذا الكتاب ردَّةَ فعل طبيعية على القوى التي تتجاذب الساحة الفكرية لتتجنب إثارة قضايا مجزأة ومقتطعة من سياقها ولتعود إلى جوهر المشكلة وأصلها كما تحسَّسها المؤلِّف من خلال تفحص حركة الاستشراق في نشأتها الأولى وتطورها، ولتخلص إلى استنتاج أكيد يتمثل في أن أنماط الفكر وأساليب العمل هي التي فرضت نفسها على أولئك الدارسين.

وبالمقابل وفي إطار المواجهة الحضارية يرى المؤلِّف أن الذي يفكر بسلطان الكلمة وأثرها الحقيقي يعدل في هذا العلم (الاستشراق) عن المبارزة بالعبارات الأنيقة والألفاظ المنبرية إلى البحث عن استراتيجية فكرية تصلح لمنازلة المناهج والنظريات العلمية. ذاك هو منهج هذا الكتاب في خياره الطرائقي ومبحث موضوعاته.

إنه نظرة جديدة ومتوازنة للاستشراق.